pia mater

(الأم الحنون)

رواية

pia mater

(الأم الحنون)

أسماء محسن

(داخل المعزل)

(١)

عام ٨٥ في المعزل

تشعر بأن رأسها سينفجر وكأن أسياخاً من الحديد الساخن تنغرز فيه، بينما هناك طنين مزعج في أذنها، والرؤية ضبابية، وحتى أصوات من حولها مشوَّشة.

الناس تحملها وتركض وتتصايح أنها يجب أن تذهب للطبيب فوراً، ثم ظهرت بقعة مظلمة في مجال رؤيتها وفقدت الوعي، وعندما فتحت عينيها ثانية كانت ممددة مغطاة على فراش مريح، حاولت النهوض فلم تستطع، وعادت تغيب عن الوعي وتفيق وتغيب وفي لحظات استفاقتها تسمع أصوات قلقة مشفقة لفتيات حولها، ثم استعادت عافيتها أخيراً وتمكنت من الجلوس فالنهوض وتفحُّص ما حولها.

إنها في غرفة صغيرة بسيطة الأثاث نظيفة، وهناك نافذة بالقرب من السرير تتيح الدخول لنسمات هواء تحمل رائحة زهور برية.

فُتح باب الحجرة لتظهر طفلتان إحداهما في العاشرة والأخرى في الرابعة من العمر، وقالت الكبرى وقد تهللت أساريرها: لقد استيقظتِ أخيراً.. سيفرح الجميع بذلك.

وأسرعت الطفلة تركض مبتعدة تتبعها الأخرى.. لم تفهم من هاتين الطفلتين، بل ومن هي وماذا تفعل هنا؟

عادت الطفلتان ومعهما شابة قالت باسمة: حمداً لله على سلامتك.. سيصل أخي بعد قليل ويفحصك، فهو طبيب.

ظلت صامتة تحملق فيهن، فقالت الفتاة الشابة: اسمي رهف وتلك أختي الصغيرة رغد وأما تلك الطفلة الأصغر فهي ابنتي آلاء.. وأنتِ؟ ما اسمك؟ ربما نعثر على أقاربك أو أسرتك.. هل أنت من المنطقة (٦) أم (٧) أم من هنا؟

قالت بصوت مبحوح: أنا لا أذكر شيئاً عن نفسي.

شهقت رهف مشفقة ثم قالت: مسكينة، لعل إصابة رأسك السبب، ولكن الحمد لله فقد نجوت بأعجوبة..

ألا تذكرين؟ لقد عثرنا عليك بالقرب من الانفجار، وخمن الجميع أنك من المنطقة (٧) التي سقطت منذ أيام وهرب سكانها إلى هنا.

ـ سقطت؟

فأجابت رهف: في الحرب.

ـ حرب؟

قالت رغد بصوت هامس: أظنها فقدت الذاكرة.

فقالت رهف بعطف: استريحي قليلاً وسأحضر لك الطعام.

انسحبت الفتيات الثلاث من الحجرة ثم عادت رهف بعد دقائق تحمل صحفة طعام تحوي جبناً وخبزاً وبيضة مسلوقة وثمرة موز، وقالت باسمة: تناولي الطعام بألف هناء.

وبعد ساعة استأذن الطبيب في الدخول ومعه ممرضة وقال باسماً: حمداً لله على سلامتك.. هل تشعرين بصداع؟ دوار؟ رغبة في القيء؟ الرؤية مشوشة؟

وكانت أجابتها لا في كل مرة وهي تتفحص الطبيب المرتبك محمر الأذن وقد أدركت أنه شقيق الفتاتين، فملامحهم متقاربة؛ بشرة قمحية، وشعر داكن ناعم، وعيون داكنة واسعة، وملامح جذابة تشي بالطيبة البالغة، وأما الطفلة آلاء فقد اختلفت عنهم بلون بشرتها وشعرها الفاتح وعينيها التي تميل للون العنبري.

سألها إن كانت تذكر أي شيء، فأخبرته أنها لا تذكر سوى أن اسمها هديل.

قال: ستستعيدين ذاكرتك مع الوقت والراحة والعلاج، وحتى يحين ذلك الوقت أنت ضيفة لدينا.. أنا الدكتور رامي وهاتان شقيقتاي رهف ورغد وتلك الصغيرة هي ابنة أختي.

في اليوم التالي اغتسلت ورأت ملامحها لأول مرة في مرآة الحمام الصغيرة، إنها رائعة الجمال بشكل لا يصدق، شعرها ناعم كثيف، وبشرتها صافية، وأنفها كأنه منحوت.. ولكنها لاحظت أن ملامحها باردة جداً خاصة عينيها الجميلتين الخضراوتين.. ألقت نظرة على المرحاض وتساءلت في حيرة: فيم يستخدم هذا الشيء؟ هل يجمعون فيه المياه؟

اهتز البيت قليلاً بفعل صوت مروع لانفجار ما قريب، فانتفضت في توتر، وغادرت الحمام مسرعة إلى الصالة الضيقة حيث جلست رهف تحتضن طفلتها وشقيقتها وتطمئنهما.

هتفت هديل: ماذا يحدث؟

ردت رهف: قذائف، جيش الإمبراطور يقصف المنطقة بالصواريخ.

جلست بجوارها تتحسس شعر آلاء الباكية في رفق، ثم اهتز البيت بقصف آخر، ثم توالت القذائف لساعة كاملة حتى هدأ كل شيء وبعد مرور وقت وبعد أن هدأت الطفلتان أخيراً نهضت رهف لتعد الغداء وقالت باسمة: طعام إفطارك مغطى على المائدة.

ـ رهف؟

ـ أجل؟

ـ ماذا عن رامي.. ألست قلقة عليه؟

ـ إنه في المشفى، أنهم لا يقذفون المدنيين ولا المستشفيات ولا المنازل لذا فهو في أمان.

اقتربت هديل منها وقالت: أريد شرحاً.. سبب الحرب وما يحدث في العالم خارج البيت، أريد أن أفهم ما يدور حولي، فأنا لا أذكر أي شيء.

مطت رهف شفتيها مفكرة ثم تنهدت وقالت: سأحاول أن أختصر لك الأمر.

***

أدرك رامي مع تدفق المصابين أنه سيتأخر اليوم في العودة وربما يبيت في المستشفى لعدة أيام.

قال زميله في شك: أنت عرضت أوصافها على اللاجئين وقسم الشرطة منذ أيام دون نتيجة.. لا أحد يبحث عنها أو يعرفها.. ماذا إن كانت جاسوسة للإمبراطور؟

ـ هل تمزح.. لقد كانت إصابتها خطيرة وقد أنقذت حياتها بفضل الله لأن أجلها لم يحن لا أكثر.. كانت على شفا الموت.

ـ فقط كن حذراً.

***

كان لرهف نظرة حزينة قليلاً فاحصة مُتعبة وكأنه لم يعد يدهشها شيء، وكان هذا غريباً على شابة عمرها ست وعشرون سنة. قالت رهف: كان العالم في الماضي مختلفاً، كانت هناك شعوب وثقافات وحضارات، دول وممالك وتقدم علمي حتى ظهر وباء جديد غريب ومرعب.

أسرعت آلاء نحو قدمي هديل وطلبت منها أن تحملها، ففعلت عن طيب خاطر.

قالت رهف: آلاء.. خالة هديل مريضة ولا يمكنها أن تحملك.

ولكن هديل هزت رأسها وقالت: دعيها! إنها خفيفة كالريشة.

وكانت تحملها بسهولة ودون أن تشعر بأي وزن تقريباً.

تنهدت رهف ثم أكملت وهي تغسل الأرز: مرض غريب لم يتعرف العلماء على مسببه، هناك فريق أصر على أنه سلاح بيولوجي.. يشبه تأثيره الجذام.

ـ الجذام.. مرض تسببه بكتريا عضوية، يؤدي إلى تلف في الجلد والأعصاب والأطراف.

قالت رهف منبهرة: إما أنك واسعة الثقافة أو أنك كنت طبيبة.

ثم توجهت للصالة تتبعها هديل والتي لم تنسَ أن تقذف آلاء إلى أعلى عدة مرات وتستقبلها بينما الطفلة تضحك في سعادة.

جلست رهف إلى المقعد أمام المائدة وبدأت بتقطيع الفاصولياء وأكملت: كان الوباء يصيب الدم وبعد فترة من الإصابة يفقد المريض الشعور كالجذام، ثم يسيطر على الجهاز العصبي ويتحول المريض إلى وحش عدواني فاقد لعقله بالكليَّة ولا علاج سوى قتله. وإن ظل حياً فسوف يهلك خلال أعوام لأن جميع أجهزة الجسم تبدأ في الانهيار بالتدريج.. كان الحل معزلاً كاملاً يعيش فيه الأصحاء إلى أن نجد حلاً.. اختيرت أستراليا كموقع للعزل.

أنزلت هديل الصغيرة أرضاً كي تلعب مع خالتها رغد ثم قالت: أكملي من فضلك.

ـ تم بناء المعزل وتقسيمه إلى ثماني مناطق، وتم توزيع الأصحاء داخل المناطق تبعاً لمساهمتهم المادية في بناء المعزل، وأقيمت حكومة ومجلس للحكم مكون من ثمانية أفراد، كل فرد يمثل منطقة إضافة إلى رئيس للمجلس، وظل الأمر هكذا. ثم أعلن رئيس المجلس الحالي أنه سيحول المعزل إلى إمبراطورية هو زعيمها وأطلق على نفسه الإمبراطور وتخلص من كل من عارضه ببساطة.

ـ ولماذا هناك حرب حالياً؟

ـ تخيلي المعزل مثلثاً مكوناً من قمة وقاعدة.. القمة تبدأ في المنطقة (١) وبعدها المنطقة (٢) حتى تنتهي بالقاع المنطقة (٨)، ولأن الأثرياء حول العالم كانوا أكبر المساهمين، فقد كانت لهم امتيازات خاصة، لذا فالمناطق العليا المميزة للأثرياء، وكلما نزلت إلى أسفل كنت أكثر فقراً وبؤساً ومواطنة من الدرجة الثانية، وممثلو الحكم لا يبالون بنا.

ثم منذ عامين قررنا أن نثور على أوضاعنا البائسة واتحد الناس من المناطق (٦) و(٧) و(٨) وقاد ثورتنا قائداً حسبناه عظيماً، كان يقاتل ويدرب ويشجع الناس ويبث فيهم الحماسة ويقف في مقدمة صفوف الجيش.

قالت هديل: أتمنى أن ننتصر في تلك الحرب.

غمغمت رهف في مرارة: نحن ننهزم بالفعل، لقد سقطت جميع المناطق وحتى منطقتنا (٨) سقط نصفها منذ يومين ونحن محاصرون منذ أشهر والطعام والدواء سينفد قريباً، إن جيوش الإمبراطور تملك أسلحة لا قبل لنا بها.

ـ وماذا عن قائدكم العظيم؟

اهتزت يد رهف قليلاً وكأن تلك النقطة تؤثر فيها شخصياً وصمتت لثوان ثم غمغمت: في أحد المعارك استسلم وقام بتوقيع معاهدة مع الإمبراطور وصار قائد جيشه وتخلى عن كل شيء.

نهضت هديل وقالت بغضب: استسلم.. ذلك الأحمق استسلم هكذا ببساطة؟! يا له من خائن!

ـ على رسلك.. هل أنت من المناطق السفلى؟ هل تذكرت شيئاً؟

ـ لا.. ولكن الأمر أغضبني فعلاً ولا أدري السبب.

وعادت تجلس بجوار رهف ثم قالت: والآن لم يتبقَّ في وجه ذلك الإمبراطور سوى نحن.

سمع الجميع دوي انفجار وارتفعت ألسنة اللهب من بعيد.. أسرعت الطفلتان المذعورتان إلى رهف التي حاولت تهدئة خوفهما وهي ترمق الخارج من النافذة.

خطر في بال هديل أمر فسألت: لماذا جميع الانفجارات والقذائف لا تستهدف سوى الجنود.. لم يتصرف الإمبراطور بأخلاق سامية؟ لم لا يستهدف المدنيين كأي طاغية شرير؟

ـ حسبتك قد أدركت أن من يحاصرنا حالياً ويقاتلنا هو (فر.. القائد الخائن).. ويُظهر أخلاقاً ونبلاً لا يليقان بخائن.. أو ربما هو في الواقع يحاول نيل رضا الناس بتلك الألاعيب.

***

كما توقع رامي تدفق الجرحى من الجنود إلى المشفى واضطر للبقاء ليومين، وفي اليوم الثالث عاد إلى المنزل سيراً وقد أوشكت الشمس على الغروب وشعر بغصة وهو يمر بمبان هدمت كلياً أو بعض أجزائها بفعل

القذائف.. سوف يجعل الإمبراطور منهم عبرة حتى لا يجرؤ مخلوق على المعارضة لسنوات قادمة.

بلغ الحي السكني ولمح مومو تجلس أمام دارها الصغيرة وهي امرأة يابانية لها شعر ناعم فضي ووجه بشوش وصوت رخيم هادئ، في الستين من عمرها، ورغم أنها من سكان المنطقة (٨) والتي يتحدث معظم سكانها باللغة العربية؛ فقد كانت لغتها العربية ضعيفة؛ لذا كان يتفاهم معها معظم الوقت بالإنجليزية اللغة الرسمية للمعزل، فتوجه نحوها وألقى التحية.

تبسمت ابتسامة عريضة وقالت: مرحباً دكتور رامي.. يوم صعب؟

ـ للغاية يا سيدتي.

ـ أدخل إلى منزلي وأحضر من فوق المائدة علبة الطعام.. سآتي معك لزيارة البنات وتناول العشاء.

ـ أشكرك يا سيدتي ولكن..

ـ دعك من الحرج فالكل بحاجة للطعام في هذه الظروف، كما أن الطعام لا يكون شهياً بدون صحبة.. هل يرضيك أن آكل وحدي.

ـ أحم....

حمل الطعام وسار بجوارها عائداً إلى منزله، وقالت وهي تسير بنشاط وذراعاها منعقدان خلف ظهرها: كيف حال مريضتك؟

ـ تتماثل للشفاء.

ـ شفيت بسرعة غير عادية، بل سمعت أنها لم تحتج إلى نقل دم رغم أنها فقدت الكثير عندما كانت مصابة.

ـ لقد توقف النزف يومها سريعاً واستعادت صحتها خلال يومين.

وشعر بالتوتر قليلاً وقد تذكر ما ألمح إليه زميله أنها قد تكون جاسوسة للإمبراطور.

عادت مومو تقول: لم لا تتواصل مع فريد؟ بوسعك أن تنهي تلك الحرب وتحقن دماء الجنود والأبرياء.

صمت مطولاً ثم قال: ستقتلني رهف إن فعلت ذلك، كما أنني لا أرغب في التواصل مع خائن.. الأشرف لنا أن نموت ونحن نقاتل لنيل حقوقنا بدلاً من أن نحيا مهزومين.

ـ لا شرف في موت الأطفال والنساء وتعليق جثثهم على الأعمدة.. لقد أظهر الإمبراطور رحمة غير معتادة

فقط كي يرضي فريد لسبب ما.. يمكن استغلال تلك النقطة لنتفاوض، فهي مسألة وقت قبل أن تسقط المنطقة (٨) كسابقاتها...ليحيا الأطفال وينشأ جيل جديد بفرص للنصر أفضل من فرصنا الآن.

كانا الآن قد وصلا إلى المنزل ولمح رامي ضيفتهم تجلس في الخارج على أريكة مستعملة كانوا يضعونها في حديقة البيت الصغيرة وتجلس بجوارها آلاء وتعرض قلادتها على شكل قلب.

تهللت أسارير الطفلة وصاحت وهي تركض نحوه: خالو رامي.. مومو.

احتضن رامي الصغيرة وقال باسماً: السلام عليكم.. كيف حالك آنسة هديل؟ تلك جارتنا مومو.

رحبت الفتاتان بشقيقهما بحرارة واشتياق واستقبلتا مومو في حبور.. سرعان ما وضع الطعام وجلس الجميع إلى المائدة.

وقالت رهف في حماس: تحسنت صحة هديل كثيراً وأول أمس تجولت في الشوارع وحدها.

كان الحديث الآن يدور باللغة العربية ثم تترجم رهف ما يقال إلى الإنجليزية.

تأملت مومو هديلاً ثم قالت: أنت فتاة جميلة جداً، من المؤسف أنك لم تتذكري بعد هويتك.

أجابت هديل: أظن أنني سأتذكر مع الوقت، حالياً شرحت لي رهف ما يدور حولي من أحداث.

ـ هل يذكرك اسم فريد عبد الكريم بأي شيء؟

ـ لا .

ـ إنه زوج رهف.

ـ مهلاً.. زوج من؟

ثم توقفت عن الكلام وقد لا حظت أن الجميع يحدق فيها في حيرة وتساءلت عن السبب.

قالت رغد في انبهار: واو.. أنت تجيدين اللغة اليابانية!

لاحظت هديل شبح الابتسامة المرتسم على شفتي مومو ونظرتها، لقد كانت تتحدث باليابانية طوال الوقت وقد أجابتها هديل ببساطة وبإتقان.

قالت رهف: هذه ثالثة لغة نكتشف أنك تجيدينها.. كم لغة تجيدين؟

رأت هديل نظرة شك تطل من عيني رامي. وقالت مومو بلغة عربية ضعيفة: سرَّني التعرف إليك.

- ....

***

تتأمل هديل عينيها في مرآة الحمام، ما زالت نظرتها باردة تخيفها. خلدت الطفلتان للنوم، ثم غادرت مومو بعد مدة وجيزة. تناهى إلى مسامعها صوت جدال بين رامي ورهف فغادرت إلى الصالة حيث كانت رهف تقول: أنت مرهق.. هديل لا تبدو لي جاسوسة مطلقاً، ثم ماذا تقول.. تظن أننا إن استسلمنا سننجو وسيمنحنا الإمبراطور عفواً؟ ولماذ تثق في فريد؟ وبعد أن خاننا وخان وطنه وأهله.

هل يشكّون بها؟ إنها فاقدة للذاكرة ولكنها تؤمن أنها لن تتعاون يوماً مع طاغية كالإمبراطور؛ فقد أخبرتها رهف كيف بعد أن اجتاح المنطقة (٦) قام بقتل أُسر الجنود وأطفالهم وتعليق الجثث على أعمدة الإنارة، ولو أنها تعمل معه لقامت باغتياله وقتها بلا تردد.

قالت هديل: من هو فريد؟ هل هو من يُدعى فريد عبد الكريم؟

هتفت رهف: كيف عرفتِ اسمه؟

ـ مومو.

دمعت عينا رهف قليلاً وغمغمت في غضب مكتوم: القائد الخائن، إنه زوجي ووالد ابنتي.

ثم استدارت منسحبة إلى حجرتها.

مضت لحظات من الصمت المحرج ثم تنحنح رامي وقال: هل.. آه.. كيف هي صحتك؟

أجابت هديل بوجوم: أنتم بحاجة لمساعدة.. أريد التطوع للعمل كممرضة في المشفى بدلاً من جلوسي هكذا بلا نفع.

***

حاملةً الطعام ومتجاهلةً أصوات القذائف التي تسقط على البلدة توجهت هديل إلى المستشفى الميداني وهي تفكر أنها قوية ثابتة الجَنان لأنها لا تشعر بأي خوف مما يحدث حولها.. خلت الشوارع والأسواق من الناس والكل يحتمي ببيته.. نيران تشتعل في بعض الشوارع من أثر القذائف.. إنها الحرب حقاً.

وصلت إلى المستشفى وكان رامي منحنٍ على جندي مصاب نازف . وقعت عيناه عليها فهتف: في الوقت المناسبِ.

وألقى الطعام على منضدة وقال: بسرعة.. هذا الجندي بحاجة لتدخل جراحي سريع.. أحتاج معونتك.

أنها ذات عون كبير هنا، تتعلم بسرعة وتجيد خياطة الجروح وتميز الأدوية، وقد رجح البعض أنها كانت طبيبة قبل إصابتها وفقدانها للذاكرة.

مر شهر كامل والمنطقة (٨) محاصرة والجرحى في كل مكان ومخزون الطعام والأدوية ينفد

عادت هديل إلى البيت مساءً وفكرت أنها مسألة أيام قبل أن تسقط المنطقة (٨). ما يؤخر الأمر هو دفاع المقاتلين المستميت وعدم وحشية فريد في القتال.

لمحت مومو جالسة أمام دارها كعادتها فحيَّتها بهزة رأس باردة، ولكن المرأة نادتها كي تقترب، ففعلت وقالت باسمة: ما زلت متضايقة وتشعرين أنني أوقعتك في فخ. كيف حال الفتيات؟ صرتن أَربع أخوات.. أربع فراشات في بستان يحتضر.. ألا تظنين ذلك؟ الحرب خطر على النساء والأطفال دوماً.

ـ سننتصر.. الحق والخير والعدل دوماً ينتصر.

ـ الحق والخير سينتصر في الحرب.. هذا مؤكد.. ولكن للأسف الشر ينتصر في معظم المعارك.

ثم نهضت وناولتها علبة مغلقة وقالت: بعض البطاطا المسلوقة.. تناولوها بالهناء والشفاء.

ـ شكراً.. إلى اللقاء.

ـ هديل.. لقد تحدثتُ معكِ للتو باللغة الصينية التي أجيدها قليلاً.

ـ ....

***

على الجانب الآخر حيث العدو، وقف الجنود بزيهم الذي طبعت عليه عبارة (الإمبراطور المعظم) يتمازح بعضهم، ويتدرب بعضهم فلما مر وسطهم القائد وقفوا بثبات وأدوا التحية العسكرية بصرامة واحترام شديد، فردَّها على عجالة وهو يدلف إلى خيمته وراح يتفحص الخرائط أمامه بعينيه في اهتمام، وغمغم: يجب أن يتم الاجتياح اليوم وأن أحاول تجنب إراقة الدماء قدر المستطاع.

دلف أحد القادة إلى الخيمة وقال: اليوم هو آخر يوم في المهلة، مولانا الإمبراطور قادم بنفسه بعد قليل من العاصمة يا هذا.

جلس فريد على مقعد أمام الطاولة ومد ساقيه ليريحهما عليها ثم أغلق عينيه وغمغم: أنا أحتاج إلى بعض الراحة.. عندما يصل جلالته سأكون جاهزاً لا ستقباله.

صاح القائد في غضب وقد استفزه ما فعله فريد: اسمع أيها المواطن من المنطقة (٨) لا تغتر كثيراً لأن مولانا الإمبراطور يفضلك حالياً وقد منحك قيادة الجيش، إن هي إلا مسألة وقت وسيتخلى عنك بعد أن تؤدي مهمتك ككلب صيد.

أجابه فريد: أما زلت حاقداً علي لأنني حصلت على المنصب بدلاً منك يا رسلان؟

احمر وجه رسلان وصرخ وهو يخرج سلاحاً من جيبه: كيف..

انفتح ستار الخيمة بغتة وظهر الإمبراطور بقامته الفارعة ونظراته المخيفة وملامحه التي تبدو كأنها نحتت من الصخر وعينيه شديدتي القسوة وكان ضخم الشخصية مخيفاً، وسمعته في القسوة والجبروت تسبقه.

نظر الإمبراطور إلى القائد الغاضب ثم شاعت ابتسامة غريبة على محياه وقال: أشعر بالحبور كلما رأيتكما أنتما بالذات تتشاجران ولكن يا رسلان.. هل حقاً هذا وقت الشجار؟

غمغم رسلان بارتباك: مولاي الإمبراطور.. أنا...

هوى الإمبراطور بلطمة قوية على وجهه ثم قال وهو يتفحص كف يده: ألا تعلم أنني متوتر بسبب تلك الحرب؟ غادرْ!

أسرع يغادر الخيمة وأثر اللطمة على وجنته، ثم نظر الإمبراطور إلى فريد وقال: والآن.. يا قائد الجيش.. لقد انتهت المهلة.

أسرع فريد يقول: ما زال أمامنا ثلاثون ساعة.. لقد وعدتني بالحفاظ على الناس من المنطقة (٨) والعفو عن اللاجئين يا مولاي.

تأمل الإمبراطور واحدة من الخرائط المعلقة ثم قال: أنت تمقتني، أليس كذلك؟ ولكن ماذا بيدك لتفعله؟ لا شيء.. هذا العالم تحكمه القوة وأنا أمتلكها؛ لذا فقد استحققت الحكم.. لقد منحتك عاماً كاملاً كي تنفذ خطتك وقد انتهت مهلتك.. بعد قليل سيتم تفعيل سلاحنا من الفئة سي وبعدها تنتهي الحرب بانتصارنا.. بلغتني معلومة خطيرة وعلي الإسراع الآن.

ـ سأحذرهم إذاً، أتوسل إليك.. سيموت العديد من الأبرياء.

ـ لا أهتم حتى وإن مات جميع قاطني المنطقة (٨) ولكن.. فقط لأنك قبلت بأن تصير تابعاً لي من رجالي، فسآمر بالعفو عن النساء والأطفال

هذه المرة، والآن أسرع بتحذير السكان من خلال الراديو.. دعهم يغادروا المباني.

وأخرج ساعة من جيبه ونظر إلى التوقيت ثم قال: معك عشر دقائق.

***

توجهت هديل صباحاً إلى المستشفى الميداني بنشاط.. أحبت الناس هنا، وبالأخص عائلة الطبيب؛ إذ عاملوها بحب ومودة، ربما تستقر في تلك المنطقة في المستقبل، ثم سمعت صوتاً يصدر من مكبرات الصوت في الشوارع ومن الراديو : «تحذير من قيادة جيوش الإمبراطور إلى سكان المنطقة (٨)! غادروا منازلكم فوراً، فسيتم تدمير جميع المباني والبيوت خلال دقائق».

راحت تلك الرسالة تتكرر، فتوقفت هديل في مكانها ومن بعيد لمحت الناس تغادر بيوتها في ذعر، ثم بغتة أضاءت المنطقة بضوء شديد السطوع جعلها تغلق عينيها بقوة ثم ارتفع صوت طنين غريب جعلها تغطي أذنها بكل قوة وتطلق آهة ألم.. وتحطم زجاج النوافذ للبيوت والمحال بفعل الطنين، ثم توقف وبدأت المباني تنهار وكأنها مصنوعة من الرمال.

ركضت هديل نحو البيت شاعرة بالفزع.. لا يجب أن ينهار البيت والفتيات بداخله.. ماذا يحدث؟ هل هو سلاح جديد من أسلحة ذلك الإمبراطور؟! تركض حتى كادت أنفاسها تنقطع حتى وصلت إلى أنقاض البيت.. لا .. لا .. لا .. لا يمكن أن تصاب الفتيات بمكروه.. ركعت على ركبتيها تنادي بخوف وعصبية وهي تحاول إزاحة تلك الأنقاض،

والغريب أنها وجدت في نفسها قوة غير عادية جعلتها تزيح أثقل الأشياء في طريقها وهي تهتف: رهف.. رغد.. آلاء.. يا بنات.

هاهي يد رغد الصغيرة، سقطت عليها كتلة كبيرة حقاً.. بكل قوتها أزاحت هديل الكتلة وجذبت الصغيرة فاقدة الوعي من أسفلها.. إنها تتنفس .. فحصتها سريعاً.. كانت بخير.. ماذا عن رهف وآلاء؟

عادت تبحث وهي تدعو الله أن تكون الاثنتان بخير.

تزيح الأنقاض.. هاهي ذي الصغيرة الحلوة آلاء إنها تنشج وتبكي وتنادي : هديل.. ساعديني.

جذبت هديل جسد الطفلة واحتضنتها في لهفة.. إنها سليمة.. لا إصابات.

قالت وهي تجلسها بجوار رغد: انتظري لثوان.. سأعثر على والدتك حالاً.

تناهى إلى مسامعها أصوات اشتباك من بعيد.. إذاً فقد اقتحم جنود الإمبراطورية المكان.. الأوغاد.. كيف يستخدمون سلاحاً شريراً كهذا، يهدم البيوت على رؤوس قاطنيها؟ لو أصيب أحد ممن تحبه بمكروه فستقتل هؤلاء الأوغاد.. هناك رغبة في القتل تجتاحها الآن.

هاهي رهف.. أزاحت العديد من الكتل حتى عثرت عليها.. رهف شاحبة بشدة وتنزف من جرح عميق في بطنها.. إنها بحاجة إلى عناية طبية فوراً.. ستحملها إلى رامي فلا وقت للتفكير.

وقفت في حيرة تتساءل كيف تحمل الفتيات الثلاثة لوحدها. حملت رهف على ظهرها وجذبت آلاء من يدها برفق وقالت معتذرة: آسفة يا رغد ابقي هنا قليلاً وسأعود إليك فوراً.

حاولت الإسراع إلى رامي في المستشفى الميداني.. تتمنى ألا يكون الجنود قد اجتاحوها.. أصوات الصراخ تأتي من بعيد.. هل يؤذون الناس أو يقومون بإعدامهم.. ليتها لم تفكر في الأمر.

وجدت نفسها أمام بعض جنود الإمبراطور يمسكون سلاحاً غريباً يبدو كأنبوبة بلون الفضة لها مقبض.. وصاح أحدهم بشراسة: قفي مكانك.. القي تلك الفتاة أرضاً حالاً.

انتفضت آلاء مذعورة واختبأت خلف هديل وهي تنشج فغمغمت هديل: إنها بحالة حرجة.. نحن مدنيون عزَّل كما ترى.

كان عدد الجنود أربعة وقد تأملها أحدهم وقد ضاقت عيناه ثم قال باسماً في توحش : أيتها الجميلة، لا أصدق وجود كل هذا الجمال في تلك المنطقة القذرة.. اقتربي ودعينا نرى هذا الجمال عن قرب.

أدركت هديل وهي تُرقد رهف بحذر على الأرض أنها قد فارقت الحياة، فقالت هامسة لآلاء وهي تربت على رأسها: آلاء.. اسمعيني.. أغلقي عينيك وعدِّي حتى مائة.. أنت تجيدين العد أليس كذلك؟

وأجلست الطفلة الباكية بجوار جسد والدتها ثم توجهت نحو الجنود بهدوء.

تبادل الجنود النظرات غير مصدقين أنها متوجهة معهم بكل هدوء وطاعة وبلا مقاومة تذكر، وقالت بصرامة: بعيداً عن أعين الطفلة.

لطمها أحد الجنود وهو يصيح: أيتها الكلبة لا تعطينا الأوامر.

جاسوسة للإمبراطور؟ لقد فقدت ذاكرتها ولكنها الآن واثقة تماماً بأنها لا يمكن أن تكون سوى عدوَّته.

وأما آلاء فقد فتحت عينيها بعد أن انتهت من العد فلم تجد حولها أحداً سوى جسد والدتها المسجى ولم يعد الجنود ثانية أبداً.

***

(٢)

عام ٩٩ في المعزل

حاملاً الملف السري تحرك (كارل موستانج) في الممر الطويل شبه المظلم وهو يعرج بسبب إصابة قديمة في ركبته اليسرى إضافة إلى الروماتيزم، كان رجلاً في بداية الستينيات أمهق، مصاب بقصر النظر وحساسية من الضوء، يرتدي نظارة سميكة العدسات، وكان من سكان المنطقة (٦) التي تتأرجح بين المناطق المتوسطة والمناطق الفقيرة، التي يصفها دوماً بأنها منطقة لعينة ويعتبر نفسه محظوظاً لأنه حصل على فرصة عمل نادرة هنا في اللجنة كما اعتاد أن يصف المنطقة (١).

فقط كان يعيب المنطقة بالنسبة له الطقس البارد والثلوج التي تتساقط في أشهر الشتاء بكثافة فتثير الألم في ركبته المصابة وفي عظامه، ولكنه كان يتحمل كل هذا في سبيل بقائه هنا ومشاهدته للسكان الأثرياء الأرستقراطيين ذوي الأناقة والفخامة.. وكانت وظيفته تلك قد أورثته مع الوقت التعالي على جيرانه واحتقار الناس من المناطق السفلى، ومع الوقت لم يعد يطيق حتى البقاء مع أسرته في المنزل، فكان يلقي إليهم كل شهر جزءً من مرتبه الكبير ويحتفظ بالبقية لملذاته الخاصة في المنطقة (١).

اليوم يقوم بعمله الروتيني المعتاد، وهو يحفظ التعليمات جيداً ويدرك أنه غير مصرح له مطلقاً برؤية محتوى أي ملف، فكان يقاوم الفضول في كل مرة، ولكنه قريباً سوف يتقاعد ولن يكون بوسعه العودة إلى مبنى

وزارة الشؤون الداخلية ثانية، فالأمن لا يمزح هنا، وكل يوم يمر تتضاءل فرصه في إرواء فضوله. فوجد اليوم فرصته ليلقي نظرة سريعة على تلك الأوراق فائقة السرية، فالممر خال كالعادة ولن يراه أحد.. بتردد أبطأ سيره قليلاً ثم توقف وتلفت حوله ليتأكد من خلو الممر، ثم مد يداً مرتجفة ليفتح الملف فوجد العنوان بالإنجليزية (قضية الجنود الأربعة) وتحتها كتب أن المكان هو المنطقة (٨) والتوقيت هو عام ٨٥ في المعزل.

غمغم: المنطقة (٨).. القاع اللعين.

رغم أن المناطق السفلى ازدهرت كثيراً في السنوات الأخيرة بفضل رئيس الحكومة فريد عبد الكريم، ازداد فضوله فقلب الصفحة ثم اتسعت عيناه قليلاً وانقبض قلبه في خوف وهو ينظر إلى صورة التقطتها كاميرات المحققين لأربعة من الجذوع البشرية.. مبتورة الرأس والذراعين والقدمين، وبدا من بقايا الزي أنهم جنود جيش الإمبراطور، فتذكر أن هذا العام كان عام اجتياح المنطقة (٨)، ونهاية تلك الثورة البلهاء التي قام بها سكان المناطق السفلى وقتها، والتي أثارت سخريته وسخطه معاً، ورفض المشاركة فيها بأي شكل.

قلب الصفحة وُدهش وهو يرى الكتابة العجيبة؛ إذ كانت الجمل مكونة من كلمة من كل لغة تقريباً، فكلمة بالإنجليزية تليها كلمة بالإسبانية ثم الألمانية ثم العربية ثم الصينية.. الخ. أي أنه كي يتمكن من قراءة التحقيق عليه أن يجيد جميع اللغات، وهو أمر مستحيل خاصة وهو لا يجيد سوى الإنجليزية فقط، فأعاد إغلاق الملف بحذر وحرص على أن يبدو كما كان بالضبط، وأكمل سيره إلى نهاية الممر، حيث ينقسم إلى اتجاهين. وكالعادة

توجه إلى الجزء الأيسر ووقف أمام باب حجرة في نهاية الممر وطرق الباب مرتين ودلف إلى الحجرة، وهو يبذل جهداً كي تظل ملامحه طبيعية.. أنا لم أعبث بالملف.. لم أحاول قراءته يا سيدة أستريد المخيفة.. وكانت المديرة الصهباء الثلاثينية تجلس إلى مكتبها وعيناها على شاشة الحاسب، فوضع الملف على المكتب، ثم تراجع قليلاً في انتظار أي أوامر، وقد توقع أن تقول كالعادة: يمكنك الانصراف.

ولكنها قالت وعيناها لا تفارقان الشاشة: لقد خالفت التعليمات وتعلم العقوبة.

قبل أن يفتح فمه لينكر أو يبحث عن حجة ما؛ شعر بحبل يلتف حول عنقه بقوة، بينما رجل مفتول العضلات من رجال الأمن يضغط الحبل بقوة.. متى ظهر ذلك الرجل وأين كان؟

قالت أستريد وهي تضغط بعض الأزرار على لوحة المفاتيح: لا تقتله.

وعلى الفور توقف رجل الأمن وترك كارل يسقط أرضاً وهو يشهق بعنف طلباً للهواء. أردفت أستريد وهي ما زالت تكتب: خذه إلى المسلخ.

زحف كارل محاولاً الهرب من الحجرة في هلع وتحامل على نفسه، فنهض وفتح الباب ثم أطلق ساقيه للريح مغادراً الحجرة وهو يعرج ويلهث.. إلى أين سيهرب لا يدري ولكنه لن يظل واقفاً حتى ينتقل إلى هذا المسلخ.. الاسم وحده يثير الرعب.. بالطبع لم يبتعد سوى بضعة أمتار قبل أن يطرحه رجل الأمن أرضاً.

***

انفتح باب القبو بغتة وعلى الفور أبعد عينيه عن مشاهدة السماء من النافذة المرتفعة ونظر إلى القادم، ورغم أن الحجرة كانت شبه مظلمة لكنه كان يستطيع الرؤية جيداً، ولهذا ميز وجه صاحب السيرك النحيل وكان بصحبته رجل بدين يرتدي ثياباً باهظة ويزين أصبعه بخاتم ذهبي.

قال الرجل البدين: أشعل بعض الضوء.. لا يمكنني الرؤية.

أشعل النحيل مصباح السقف وقال: معذرة ولكن الضوء لن يفيد هذا الشاب في شيء ولهذا أوفر أموالي.

حدق الرجل البدين في وجه الشاب القابع في قفص حديدي محكم الغلق داخل الحجرة، ومضت لحظات وهو يتفرس فيه بفضول واهتمام وكأنه يثمن بضاعة، ثم مط شفتيه وقال مستنكراً: هل تمزح معي يا آصف؟ أتظن أنك تستطيع خداع مواطن من المناطق العليا وله صلات بالحكومة.. هل اتصلت بي من أجل هذا؟

رد آصف: كيف أجرؤ على خداعك يا سيد حشمت؟ إن هذا الشاب..

قاطعه الرجل البدين بعصبية: بشري تماماً.. لو تغاضينا عن ثيابه الرثة ورائحته الكريهة.. مجرد شاب يُعامل بإهمال.

ـ لا تدع المظاهر تخدعك يا سيدي.. هذا الشاب ولد حاملاً للمرض.. وقد اصطدته بنفسي من خارج المعزل.

ـ حقاً.. وتركته لك الحكومة بكل بساطة.

ـ كما أخبرتك يا سيدي.. دفعت مبالغ طائلة لبعض الموظفين حتى أنجح في إدخاله وحصلت عليه لنفسي وقررت عرضه في السيرك لعلية القوم سراً.. ثم قلت أنك أولى بالحصول عليه.

رد الرجل البدين: كلام لا يُقنع طفلاً.. المرضى يتغير مظهرهم بشكل مرعب ويهاجمون البشر ويقتلونهم.. أما هذا الصبي.. فقط انظر إليه.

قال آصف في نفاذ صبر: إن كنت لا ترغب به فهذا شأنك.. هناك العديد من الأثرياء سيرغبون في شرائه.. لن تصدق عدد الذين سيرغبون بتقديمه هدية لمولانا الإمبراطور لنيل رضاه.

ـ أريد عينة دم منه لفحصها أولاً.. إن اتضح أنه حامل للمرض كما تقول دون أن تظهر عليه أعراض فسأدفع لك المبلغ الذي اتفقنا عليه وأشتريه فوراً.. ولكن إن كنت تخدعني فسأقضي عليك.

ابتسم آصف في خبث وقال: لست غبياً كي أخدعك يا سيدي.. تفضل بالحصول على العينة.

ـ خذ تلك القنينة وأحضر لي عينة الدم وسأقف بجانبك أراقبك.

قال آصف وهو يخرج من جيبه محقناً: الطبيب الذي سيقوم بتحليل الدم..

قاطعه حشمت: أثق به فلا تقلق.

انتهى آصف من سحب عينة الدم ثم قال: ثمن الصبي مليون جنيه إمبراطوري.. اتفقنا يا سيد حشمت.

استدار الرجل البدين مغادراً بعد أن منحه آصف عينة الدم من الصبي دون مقاومة أو رد فعل يذكر من الأخير وغمغم: إن كان يستحق المبلغ.

ولم ينسَ آصف وهو يلحق بضيفه أن يطفئ المصباح كي تغرق الحجرة في الظلام من جديد، وكعادته يستلقي على أرض القفص الحديدي ينظر

إلى النافذة الصغيرة أعلى حجرة القبو ويتأمل النجوم في السماء، ثم ابتسم في سعادة.. سينتقل قريباً.

***

قبل شهر

تأملت مومو في رضا اللافتة الخشبية التي كتب عليها بخط إنجليزي وعربي منمق «رهف للمخبوزات» وتشممت الرائحة الشهية التي تعبق الهواء قبل أن تدلف من باب المخبز إلى الداخل فلما لمحها رامي قال باسماً في شحوب: مومو.. مرحباً.

هزت رأسها وأجابته: مرحباً بعودتك يا بني، احتجت ثلاثة أشهر حتى أتشجع وأراك.

ونظرت مشفقة إلى لحيته النامية ووجهه الناحل المرهق وبعض الخصلات الشائبة في شعره وبدا لها واهناً ضعيفاً جسمانياً ونفسياً، ومظهره يدعو للرثاء كأي سجين وضع في سجون الإمبراطور وأكملت: دعنا نتحدث.. سأجلس إلى تلك الطاولة.. أحضر لي بعض الشاي الأخضر المر.

كان الوقت مساءً وقد قل الازدحام وتهافُت الزبائن على المخبز الصغير الشهير بنظافته ومنتجاته الشهية، ووضع رامي أمامها ما طلبت وجلس في المقعد المواجه وفي يده فنجان من القهوة وغمغم ممتناً: شكراً جزيلاً لك يا سيدتي لأنك اعتنيت برغد وآلاء في غيابي.

ـ عم تتحدث؟ الفتاتان من أنس وحدتي واعتنيا بي وليس العكس، لقد كنت محظوظة.

ماتت رهف يوم الاجتياح متأثرة بجراحها، واختفت هديل تماماً دون أثر، وعُثر يومها على أربعة جذوع بشرية للجنود الذين اعترضوا طريقها، وقد حافظ الإمبراطور على وعده لفريد فلم ينكّل بأسر الجنود كما يفعل عادة، ولكنه أعدم العديد من قادة الثوار وسجن العديد كما حصل مع رامي الذي سُجن بتهمة مساعدة المتمردين وأفرج عنه أخيراً.

عاد يقول: وهذا المخبز الجميل.. أنت شريكة فيه بالمال.

أجابته: كانت فكرة رغد.. لقد كان فريد عبد الكريم هو من أنفق على دراسة رغد للتمريض وعلى معيشة آلاء، وكان يرسل الأموال كل شهر.

ـ هذا حق ابنته عليه.. أما عن رغد فسأرد إليه كل مليم أنفقه.

لم تعلق، فهي تدرك أنه لم يعد بوسعه العمل كطبيب ولا أي وظيفة بعد أن أصبح سجيناً سابقاً، ولا تدري إن كان ينوي العمل في المخبز، فآلاء حصلت على منحة للدراسة في جامعة الإمبراطورية في المنطقة (٣) وهي فرصة لا تعوض، وأما رغد فهي ممرضة لامرأة مسنة ثرية من المنطقة (٣)، والمخبز خلال أيام سيصبح بلا إدارة.

قال كأنما قرأ أفكارها: سوف أهتم بالمخبز في غياب الفتاتين.

ـ هل تحدثت مع فريد؟ علمت أنه زارك مرتين في السجن؟

ـ قال أنه يريد محادثتي في أمر مهم ولكنني تركته في الزيارة الأولى ورفضت رؤيته في الزيارة الثانية.

هبطت رغد من الطابق العلوي تتبعها آلاء وتهللت أسارير الفتاتين وقفزتا تحتضنان مومو بمجرد أن لمحتاها...وأما رغد فقد صارت الآن في الرابعة والعشرين من عمرها ولم تتغير ملامحها كثيراً، وكانت قد أعدت كل أصناف الطعام والحلوى التي يحبها أخوها، وغمرتها السعادة لخروجه أخيراً، وبدت في كل خلجة من خلجاتها التي عبرت عن الاشتياق الشديد لمن كان أخاً وأباً لها.

أما آلاء فهي نحيلة وبلغت الثامنة عشر وكانت عيناها الواسعتان بلون العنبر تشبهان عيني والدها، ولها أهداب طويلة، وتصفف شعرها الناعم وتعقصه على شكل سنبلة قمح معظم الوقت كوالدتها، ومن وقت لآخر تمتص طرف الضفيرة كلما توترت فتنهرها رغد.

قالت رغد: ما زال أمام آلاء شهر كامل قبل أن تنتقل إلى الجامعة، وسوف نوظف اثنين من المساعدين مع أخي طبعاً، أما أنا فتنتهي إجازتي خلال أيام وعلي العودة للأسف إلى عملي بالمنطقة (٣).

قال رامي: انهي عقد عملك هذا واعملي في أي مشفى من مستشفيات المنطقة (٨) القريبة.

أجابت رغد: سينتهي عقد عملي خلال عام بعدها سأفعل كما قلت ولكن حالياً لا أستطيع ترك العمل. كما أن صاحب المنزل وافق أن تأتي آلاء وتقيم معي.. تلك فرصة كي تكون تحت رعايتي وتعتاد الوضع هناك.

تغادر آلاء من وقت لآخر فقد اعتاد والدها على استقدامها في الأعياد إلى قصره الفاخر في المنطقة (١)، وكان دوماً يعاملها بدفء واهتمام

شديدين وكذلك إخوتها، وفي كل مرة تنتهي الزيارة يتمزق قلبها بين رغبتها في المكوث معه ومع إخوتها وفي العودة، وكثيراً ما كانت تستغرب عدم إصرار والدها على إبقائها معه، وأرجعت السبب إلى زوجته التي ربما لا ترغب في بقائها معهم بشكل دائم.

***

مر الشهر سريعاً وعادت رغد إلى عملها وهي تجر قدميها غير راغبة في مفارقة أخيها، وظلت آلاء معه، وبعد أن كان شديد الاضطراب تنتابه الكوابيس بدأ يتحسن لأن آلاء أخذت على عاتقها مهمة رعايته، وكانت لديها نزعة لمساعدة الآخرين عموماً دون أن تكون لها مصلحة أو منفعة خاصة في ذلك، وإنما كانت تشعر بأن ذلك واجبها لأنها خُلقت إنسانة، فجعلت حجرته مريحة مبهجة، ووضعت على نافذة الحجرة أصيص زرع للريحان وآخر للبنفسج، وكانت تثرثر معه ولا تتركه وحده لوقت طويل.

وفي البداية كان قليل الكلام جداً، ربما لأنه اعتاد الصمت في زنزانته، ثم بدأ يتحدث ويجيبها ويسألها عن العديد من الأمور، وظلت هي حريصة على عدم سؤاله عن أي شيء يتعلق بمدة سجنه وإن خمنت أنه كان يُعامل أفضل من غيره، وأرجعت السبب إلى والدها.

وقبل مغادرتها بيوم جمعت ثيابها في حقيبة وابتاعت ثوبين جديدين للجامعة، وأرسل إليها والدها معطفاً أنيقاً ثقيل أسود اللون، ونظرت حولها في الحجرة كي تتأكد من أنها لم تنسَ شيئاً مهماً ثم ارتدت قلادتها على شكل قلب بداخلها صورة تجمعها بوالديها، وغادرت حجرتها.

بعد قليل استيقظ رامي وتناولا الإفطار معاً، قال: سأشتاق إليك حقاً يا آلاء.. لا أحب فكرة البقاء وحيداً، ولكن مومو تأتي كل يوم وتسليني.. أريد أن أسمع أخبار تفوقك الدراسي، فأنت طفلة ذكية.

ـ سأجعلك فخوراً.

صلى رامي الظهر في المسجد، بينما أدت هي الصلاة في حجرتها، ثم تركا عمل المخبز إلى العامل الجديد وأوصلها إلى محطة القطار الذي كان وسيلة المواصلات الرئيسية في المعزل بين المناطق المختلفة. قالت آلاء: في كل مرة كنت أسافر فيها إلى أبي ...

كان رامي يدرك أنها تتجنب الحديث في أي أمر تعتقد أنه قد يضايقه فابتسم ابتسامة دافئة وقال: إذا قمتِ بزيارته قريباً فأبلغيه سلامي وامتناني لأنه أنفق على دراسة أختي، وأخبريه أنني سأسدد ذلك المال يوماً ما.

وقبلها في جبينها.

وصل القطار إلى المحطة فاحتضنت خالها وكررت رجاءها له بأن يعتني بنفسه جيداً، ثم صعدت وأطلت من النافذة بجوار مقعدها كي تودع خالها، وبعد دقائق انطلق القطار مبتعداً واختفى خالها من أمام ناظريها.

أما رامي فقد مشى عائداً إلى المخبز باسماً.. من الجميل أن يرى آلاء الصغيرة وقد صارت شابة جميلة أمامها مستقبل مشرق رغم كل الصعاب.. تذكره في طباعها وحركاتها برهف وأما عيناها وبشرتها فتذكره بفريد القديم الذي كان يحمل هموم قضية مواطنيه قبل أن يتغير.

***

غادر حشمت سيارته ووقف أمام باب منزله الفاخر يتلفت حوله في حذر، ووقف ابنه بجواره وهو صبي مراهق أحمق وقال: ستصل قريبة رغد الممرضة اليوم بالذات.

رد حشمت: أوامر آصف.. اليوم بالذات.

ظهر بعض رجاله فقال أمراً: تعاونوا مع بقية الرجال على نقل هذا القفص المغطى إلى القبو، وإياكم أن يلمح أحد مَن فيه.

وفرك يده وهو يمدح ذكاءه الذي جعله يسرع في شراء الشاب قبل أن يسبقه أحد آخر إلى ذلك.. سينتظر حتى يوم العيد الوطني لإنشاء الإمبراطورية ثم يقدمه كهدية ثمينة لمديره، وحتماً في المقابل سيترقى لمنصب أعلى في الحكومة، ولن يظل مجرد تاجر أسلحة للجيش، وينتقل مع أسرته للعيش في المنطقة (١) التي لا مثيل لها.

أسقط الرجال القفص وأُزيح الغطاء كاشفاً عن الشاب فصاح حشمت غاضباً: أغبياء.

على الفور تمت تغطية القفص، وقال أحدهم: لقد تحرك بغتة.

ظلت آلاء تقف مذهولة حاملة حقيبتها، ومن حسن الحظ أن أحداً لم يلمحها وسط ذلك الارتباك الذي ساد لثوان.. لقد رأت بأم عينها شاباً مقيداً في القفص، وقد أصابها هذا بالرعب.. هل تبلغ الشرطة؟ أم تستفسر من خالتها.. بل الأفضل أن تهرب مع خالتها من هذا المنزل أولاً ثم تفكر فيما ستفعل.. استجمعت شجاعتها ثم توجهت إلى بوابة المنزل وداست زر جرس الباب ليفتح لها حارس البوابة فغمغمت: أنا.. آلاء.. قريبة الممرضة رغد.

دلفت إلى الداخل وتبعت الحارس إلى المنزل مارة بحديقة جميلة وحمام سباحة صغير، ثم إلى داخل البيت من باب جانبي يؤدي إلى المطبخ، وتناهى إلى مسامعها صوت شجار، ولمحت بعض الخدم منهمكين في عملهم وكأنهم صمّ، بينما جلست رغد إلى أحد المقاعد غير مبالية بشجار بين رئيسها وزوجته.

الزوجة تصرخ: أنت قد جننت.. هل تريدنا أن نُقتل في أسرَّتنا؟ كيف تجلب هذا الـ.. الشيء إلى منزلنا؟

رد حشمت: أخبرتك أنني اتخذت جميع الاحتياطات اللازمة.. نحن في أمان تام.

ـ لن أبقى في هذا المنزل مع وجود هذا المخلوق.

ـ هذا وضع مؤقت.. خلال أشهر.. سأمنحه هدية للمدير.

لمحتها رغد فنهضت تحتضنها في حرارة وتقبلها قائلة: كيف كانت رحلتك؟

ـ جيدة.. أريد الحديث معك في أمر مهم.

ـ مساءً عندما أنتهي من أعمالي.. اذهبي إلى حجرتي واستريحي.. إنها الحجرة المجاورة لحجرة الهانم والدة حشمت بك في هذا الطابق.. لا أصدق أنهما يتشاجران من أجل تمثال أثري.

***

هناك سلسلة حديدية غليظة تم تثبيت أحد طرفيها إلى الأرض، وتم تثبيت الطرف الآخر إلى كاحله، وبعدها تم وضع أصفاد حديدية حول

معصميه، ثم تراجع الرجال الثلاثة بعد أن تم الأمر، ووقف حشمت وبجواره ولده وعقد يديه خلف ظهره وقال بصرامة: أعلم أنك تفهم كلامي أيها الوحش.. لا أريد أن تصدر صوتاً أو تحاول الهرب.. كن مطيعاً كي نحسن معاملتك.. أفعل أمراً خاطئاً ولن أتوانى عن ضربك حتى الموت.. ستبقى هنا لوقت.. ذلك الغطاء الصغير بجوارك أسفله فتحة المجارير كي تقضي حاجتك.. هل تفهم؟

ثم أشار إلى الجميع بالانصراف وألقى أمامه بطبق يحتوي على بعض الأرز، وأغلق باب القبو الحديدي تاركاً الشاب وحده.

في المساء حاولت آلاء إقناع رغد بما رأته وكانت تصر: كان شاب مقيد.. أقسم لك.. ليس تمثالاً أثرياً.

قالت رغد وهي ترتدي جلباب النوم: أنت مرهقة لا أكثر.. لم تحظَي بالنوم في القطار كعادتك وتشعرين بالقلق على رامي.. إن حشمت بك بخيل بعض الشيء وعصبي قليلاً، ولكن ليس من ضمن عيوبه خطف الناس ووضعهم في أقفاص وارتكاب جريمة تقضي على مستقبله.

كان بالحجرة سرير واحد، ولكنه كبير الحجم ويكفي شخصين، فاندست آلاء أسفل الغطاء شاعرة بالبرد، ومضت لحظات من الصمت ثم عادت آلاء تقول: ولكن ماذا إن كان ما رأيته...

ـ حشمت بك ليس رجل عصابات، كما أنه طيب القلب إذ سمح لمجنونة مثلك بالمكوث معي، فاخرسي قليلاً.

***

في المنطقة (١) تتساقط الأمطار بكثافة أعلى حتى أن المظلات صارت غارقة، وانحنى مازن يتفحص الجثة وحوله بعض الجنود وقد أُحيط المكان بشريط أصفر يمنع اقتراب الفضوليين.. بالطبع سيتكفل المطر بضياع الأدلة، ولهذا راح في نشاط يبحث بحذر عن أي شيء ربما غفل عنه رجال المعمل الجنائي، ثم زفر في ضيق وعاد يرمق الجثة التي خلت تماماً من الدماء.. هرع نحو المكان زميله أيدن وانحنى بجواره لفحص الجثة ثم قال: ما هذا؟ هل لدينا قضية مصاص دماء؟

ـ يبدو الأمر كذلك.

ثم نهض وحاول أن ينفض عن ثيابه كل ذلك البلل وسأل أحد الضباط بصرامة: ماذا حدث؟

أجابه الضابط: منذ ثلاث ساعات سيارة نقل موتى انزلقت على الطريق بسبب الأمطار وسقط منها ذلك التابوت، ومنه تدحرجت الجثة.. أصيب المارة بالفزع وهرعوا لمساعدة السائق، وبعد أن أفاق السائق انطلق هارباً بالسيارة.

ـ بصمات؟

ـ لا يوجد حتى الآن.

ـ أين الشهود؟ أريد وصفاً لملامح هذا السائق ووصفاً للسيارة وأرقامها وصور لأثر الإطارات.

ـ الشهود الآن في مركز الشرطة يدلون بشهادتهم.

ـ ممتاز.. أيضاً أحضر لي تسجيل الكاميرات في جميع الشوارع المحيطة.

قال الضابط مرتبكاً: جميع الكاميرات تعطلت وقتها.

ـ ماذا تعني بأن جميع الكاميرات تعطلت؟

ـ كلها كانت معطلة يا سيدي في توقيت الحادث.

هتف أيدن هذه المرة: كلها؟ وفي التوقيت نفسه؟

قال مازن: احصل على تلك الكاميرات وليحاول الخبراء إصلاحها.

وتحرك مغادراً موقع الجريمة وقال محدثاً زميله: أنا ذاهب إلى المركز لمتابعة القضية.

ـ سآتي معك.. تباً.. لقد غادرت سيارة الشرطة.. كيف سنذهب في هذا الطقس؟

ـ بالترام.. هيا بنا.

ازدادت كثافة الأمطار وعطس أيدن وقال: تلك المهنة ستقتلنا يوماً.. بالمناسبة لقد اتصل والدك وطلب مني إبلاغك برسالة.

ـ إنه ليس والدي.

ـ رسمياً هو والدك وإن كان بالتبني الأمني.. اسمك (مازن فريد عبد الكريم) رسمياً.

ـ لن يكون والدي يوماً.

ـ فقط دعني أبلغك الرسالة قبل أن أنسى محتواها.. يقول لك أن تجيب هاتفك من فضلك وأن تقضي إجازة العيد الوطني للإمبراطورية في القصر، وأن آلاء كذلك ستكون متواجدة.

ـ آلاء؟ آه.. ابنته التي تعيش في المنطقة (٨).

وصلا إلى محطة الترام وغمغم أيدن: أحتاج إلى فنجان من القهوة الساخنة أو إلى السحلب الرائع الذي تعده.

وصل الترام صغير الحجم المكون من عربتين فركبا فيه، وهو وسيلة التنقل الثانية داخل القطاعات. والحقيقة أن السيارات يمنع امتلاكها للأفراد العاديين؛ لذا كانت قليلة العدد لا تملكها سوى الشركات أو الوزارات أو الشرطة أو المستشفيات.. إلخ.. وذلك لأغراض العمل فقط.

جلس مازن وبجواره زميله، وحاول أن ينفض الماء عن ثيابه وهو يغلق المظلة الغارقة وقال: وكيف حال إيلين.. هل قبلت الزواج منك؟

احمر وجه أيدن وأجاب: لم أعرض عليها بعد.

تنهد مازن ثم قال: إنها تعتبرك عدوها كما تعلم.. فنحن محققو شرطة نعمل مع حكومة الإمبراطور المعظم وأنت ابن القائد رسلان الذي أعدم والدتها ومعظم أقاربها منذ خمسة عشر عاماً.

لم يجبه أيدن وظل صامتاً حتى وصلا وغادرا الترام متجهين إلى المركز وظلا يدرسان القضية ويتابعا الأدلة ويستجوبا الشهود حتى أشرقت شمس اليوم التالي. توقفت الأمطار أخيراً وبدأ النعاس يتسلل إلى عيني أيدن فنظر إلى مازن الذي كان يرشف فنجان القهوة الرابع وقال: ستصاب بقرحة المعدة بهذا الشكل.. أريد أن أناااام.

تجاهله مازن وعقد حاجبيه وهو يراجع ما أمامه ثم قال: فلنذهب إلى مصلحة الطب الشرعي لاستعجال تقرير التشريح.. علينا نشر صورته في جريدة الإمبراطورية ربما يتعرف إليه أحد.

ـ بعد أن ننام.

***

في الصباح الباكر استيقظت رغد وارتدت زي الممرضات ووضعت حجابها ومدت يدها لآلاء بحفنة نقود قائلة: فقط خذيها.. اشتري طعاماً للإفطار قبل ذهابك للجامعة.

ـ شكراً جزيلاً.

وغادرت البيت ومنه إلى محطة الترام وابتاعت شطيرة من محل صغير قريب من المحطة.

الدراسة ستبدأ خلال أسبوعين، ولكن عليها أن تحضر امتحان الوطنية، وهو امتحان يُفرض على الجميع في المعزل خلال بعض المراحل الدراسية؛ الأسئلة ذاتها بالإجابة ذاتها وعليها أن تنجح فيه كي تكتمل المنحة وتُقبل في الجامعة.

وصلت للجامعة ثم حجرة مشرفة الوطنية فطرقت الباب ودلفت لتجد امرأة تجلس إلى مكتبها وترمقها من أسفل نظارتها فغمغمت في تهذيب: مرحباً.. أنا طالبة جديدة بمنحة دراسية ولدي اليوم اختبار.

تغير تعبير وجه المرأة وبدت عاجزة عن إخفاء امتعاضها وهي تقول: منحة؟ من أي منطقة سفلية أنت؟

ـ اسمي آلاء من المنطقة (٨) ورقم السجل (....).

ـ فلنبدأ إذاً.. أين نعيش؟

ـ في المعزل.. آخر ملاذ أمن للبشرية.

ـ هل يمكن لأي إنسان أن يغادر المعزل؟

ـ لا .. خارج المعزل مصير أي إنسان هو الموت.

ـ لماذا اضطر البشر إلى اللجوء إلى المعزل؟

ـ عام ٢٠٤٠م؟ ظهر وباء مميت على وجه الأرض انتقل بالماء الملوث في البداية وكان يصيب الجهاز العصبي للإنسان فيتحول المصاب إلى وحش يقتل الناس بلا سبب.. كاد البشر ينقرضون ولهذا كان الحل في بناء معزل وإحاطته بأسوار وإغلاقه على الأصحاء.

سألت المشرفة في ملل: كيف قُسم المعزل؟

ـ المعزل مقسم إلى ثماني مناطق، المنطقة (١) حيث الإمبراطور وكبار رجال الحكومة العظماء الذين يقودون البشرية.. وتتدرج المناطق حتى المنطقة (٨).. هناك البوابة الشمالية والجنوبية للمعزل في المنطقة (٨) والمنطقة (١).

ـ لم يُعد حكم الإمبراطور المعظم هو الأفضل؟

ـ لأنه قضى على فساد الحكام الثمانية ووحد المعزل.

هنا رفعت المرأة عينيها إليها وقالت كأنها تحاول استفزازها: لمَ يعتبر سكان المناطق السفلى كائنات دونية حقيرة عديمة النفع كان الأجدر عدم السماح لهم بدخول المعزل من البداية؟

أجابت آلاء ببرود مستفز أكثر: لأنهم كانوا فقراء ولم يستطع أحد منهم المساهمة في بناء المعزل ولو بثمن قطعة حجر.

ـ يمكنك الانصراف.. نجحت في اختبار الوطنية.. انتظري في الخارج قليلاً ريثما أطبع النتيجة.

أكملت آلاء: ولكن لا يمكن إنكار أن ما يحدث معهم هو عنصرية بغيضة، فهم يعملون ويكدحون كأي مواطن شريف وليس ذنبهم أن أجدادهم كانوا فقراء.

ثم نهضت مغادرة الحجرة فجلست على أحد مقاعد الانتظار وسمحت للغضب والضيق أن يظهر عليها أخيراً فسمعت صوتاً لطيفاً يقول: اختبارات سخيفة مستفزة.

نظرت إلى الفتاة الجالسة بجوارها وكانت رياضية الجسم لها شعر أشقر وعينان واسعتان بلون السماء وكانت تضفر شعرها على شكل سنبلة قمح مثلها ولكن على عكسها، لم تكن محجبة، وكانت تنتظر دورها في الاختبار وبعد أن قالت عبارتها تلفتت نحوها ومدت يدها تصافحها في بساطة وهي تقول: إيلين أليز من أصول ألبانية قوقازية، اسم عائلتي (إليز) وتعني الحرية وأنا من المنطقة (١)، وأمكث مع والدي حالياً، وكنت لوقت في المنطقة (٦) وأحاول إكمال دراستي الجامعية في المنطقة (٣) بعد أن رفضتني جميع جامعات المعزل.

ابتسمت آلاء برغمها وقالت: آلاء.. أصلي من المنطقة (٨) وقدمت هنا للدراسة بمنحة.

ـ منحة؟ أنت ذكية متفوقة إذاً.. بإذنك سأدخل إلى الساحرة الشمطاء.

ونهضت إلى حجرة المشرفة وأغلقت الباب.. بعد لحظات سمعت آلاء أصوات جدال مرتفعة، فضحكت ضحكة خافتة وهي تسمع أجزاء من الحوار والمشرفة تقول: هل يمكن لأي إنسان أن يغادر المملكة؟

ـ ما أدراني.. لا أنا ولا أحد قد جرب الحياة بالخارج من قبل.

ـ هل تمزحين؟ في الخارج ينتظرنا الموت والمرضى الوحوش.

ـ وهل رأيت بعينك؟

ـ هكذا يقول القادة.

ـ إن كان هذا الاعتقاد يريحك حضرة المشرفة.

ـ لم يُعد حكم الإمبراطور المعظم هو الأفضل؟

ـ حكمه هو الأسوأ في الواقع.

بالطبع تم رفض الفتاة مع توصية بمراقبتها أمنياً، وحصلت آلاء على شهادة النجاح مطبوعة، فصافحت إيلين من جديد وقالت معتذرة: أتمنى لك النجاح في مناطق أخرى.

مطت إيلين شفتيها وقالت: لا أظن.. ولكنني حققت رقماً قياسياً في عدد المرات التي أخفقت فيها في امتحان الوطنية.

وضحكت في مرح ثم أسرعتا تغادران المبنى فالجامعة الضخمة إلى الشارع، وبينما توجهت آلاء لهاتف عمومي للاتصال بخالها ثم خالتها

وطمأنتها على نتيجة الاختبار توجهت إيلين إلى حديقة عامة رائعة الجمال وجلست على مقعد خشبي أمام بحيرة صغيرة تسبح فيها طيور الإوز ثم بعد قليل جلس رجل بجوارها وألقى بعض الطعام للطيور في البحيرة، ثم مد كفه نحوها سريعاً فناولته إيلين منديلاً به ثلاث شعرات وتمتمت: تخص آلاء ابنة رئيس الحكومة. إنها محجبة ومن حسن الحظ أن تلك الشعرات كانت على كتفها.. الآن لدينا بصمة وراثية.

نهض الرجل بهدوء وانصرف وظلت إيلين جالسة لعشر دقائق أخرى ثم نهضت مغادرة.

***

مجرد نظرة كي يطمئن قلبها.. الآن وقد خلد الجميع إلى النوم نهضت آلاء بخفة فارتدت فستانها وفوقه سترة وطرحة رأسها، ثم بهدوء وحذر غادرت الحجرة فالبهو فالصالة، ثم وقفت عند الباب المؤدي إلى القبو ففتحته بحذر ونظرت إلى السلم الطويل المؤدي إلى أسفل، الذي كان مظلماً، فضغطت زر الضوء فأضاء مصباح صغير خافت المكان، وهبطت في حذر حتى وصلت إلى أسفل فوجدت نفسها في حجرة بها بعض الصناديق الـمُخزنة بداخلها أشياء قديمة، وأريكة قديمة ولمحت حجرة صغيرة مظلمة مغلقة بباب حديدي، فوقفت أمام الباب الحديدي المغلق بثلاث مزاليج، هناك فتحة صغيرة في الباب وضع عليها قضبان حديدية كي يتمكن المرء من مراقبة الداخل.. نظرت من الفتحة فلم تستطع الرؤية.. مدت يدها فأزاحت المزلاج الأول ثم الثاني فالأخير ودفعت

الباب ليصدر عنه صوت صرير مرعب وهو يُفتح، ودلفت إلى الحجرة ولكنها لم تتوغل، بل ظلت بالقرب من الباب ترمق الجالس بهدوء في نهاية حجرة القبو، رفع عينيه إليها. كان هناك زر إضاءة قرب الباب فضغطته لينير مصباح صغير في سقف الحجرة، ولترى ذلك الشاب مقيداً، يرتدي ثياباً شبه بالية وينظر إليها نظرة متوترة، فقالت: أنت إنسان.. كان ما رأيته صحيحاً.. لمَ أنت هنا؟

فلم تتلقَّ جواباً، فعادت تقول: أنا لا أعمل معهم، وأريد مساعدتك.

لم تتلقَّ جواباً من جديد، ثم فطنت أنها كانت تحدثه بالعربية فعادت تكرر كلامها بالإنجليزية، ولكنه ظل يحملق فيها.

فكرت أن الإنجليزية هي اللغة الرسمية للمعزل ويتم تدريسها في كل المناطق، فكيف لا يجيدها ما لم يكن مصاباً بإعاقة عقلية ما؟ فقالت من جديد: أنا سأبلغ الشرطة كي تخرجك من هنا.

هذه المرة تناول طبق طعام فارغ ومده إليها.. إنه يريد طعاماً أو يقول أنه أنهى الطعام، وانتبهت تلك المرة كم يبدو نحيلاً، ثم تلك الثياب في هذا الطقس لن تمنحه الدفء الكافي.

أسرعت مغادرة وقد عزمت أمرها على الحديث مع رغد أولاً ثم إبلاغ الشرطة في الغد، ولكن الآن ستحضر له طعاماً من المطبخ، ولو كان بيدها أن تحضر له ثياباً لفعلت. أمام الثلاجة الكبيرة وقفت حاملة أكبر صحن وجدته وملأته بأصناف الطعام، ثم عادت إلى القبو تحمل غنيمتها وتنحنحت، فنهض فوراً ونظر إلى الطعام في يدها ثم بدأ لعابه

يسيل في لهفة، وبحذر اقتربت ووضعت الصحن أمامه ثم تراجعت فهي ما زالت لا تدري سبب سجنه بهذا الشكل؛ لذا وجب الحذر. راقبته وهو يزدرد الطعام في شراهة.. تباً لفضولها، هاهي قد اكتشفت وجوده ولم يعد بوسعها أن تتجاهل الأمر أو تتناساه.. ستبلغ الشرطة وسيُقبض على حشمت، وتفقد رغد عملها ذا الراتب الكبير.

شعرت بغصة، فهي لن تنسى أن حشمت سمح لها بالبقاء في بيته مع رغد في لفتة إنسانية وكرم لا يليقان بشخص يسجن الناس في قبوه.. ربما هناك حل آخر قبل إبلاغ الشرطة.

انتهى من تناول الطعام فقالت: ما اسمك؟

وأشارت بأصبعها نحو نفسها وأردفت: أنا آلاء.. آلاء.

ثم أشارت إليه وقالت: وأنت؟ ما اسمك؟

ـ ....

ـ هل أنت أبكم؟ هل يمكنك الكتابة؟

ـ ....

تناهى إلى مسامعها أصوات تهبط إلى القبو فانتفضت وهمست وهي تأخذ الصحن الفارغ: فيما بعد.

وهرعت خارج الحجرة، وأغلقت الضوء ثم الباب بهدوء ثم المزاليج الثلاث، ثم اختبأت في ركن مظلم من القبو خلف الأريكة القديمة وحبست أنفاسها، ثم نظرت بحذر إلى القادمَين وهما زوجة حشمت

وولده المراهق يقول في لهفة: إنه مقيد فلا تقلقي.. سأجعلك ترينه من الخارج.. إنه ليس خطيراً.

صاحت الأم في غضب: لا أريد.. قلت أنني سأغادر المنزل غداً ولن أغير رأيي.. إنه وحش.. مسخٌ جلبه أبوك ووضعه في القبو.

ـ ولكنه وسيلة انتقالنا إلى منطقة (١) يا ماما.

ـ ماذا لو هاجمنا؟ سنمرض حتماً.

ـ أبي قيده جيداً ولن يهرب.

ـ ما أدرانا أن القائد قد يعتبره هدية قيمة.. قد تعدمنا الحكومة.

ـ والدي يقول..

ـ والدك أحمق.

بدأ الصبي يزيح المزاليج، ثم أضاء الحجرة وأشار إلى والدته كي تلقي نظرة، فراحت المرأة ترجف في هلع وعيونها متسعة وقد تسمرت في مكانها، وبعد أن ألقت نظرة رفعت منديلاً قماشياً تسد فمها وأنفها وغمغمت: ماذا لو نقل لنا المرض بالهواء؟ تباً.. أغلق الباب.

ثم هرعت تغادر يتبعها ولدها، وظلت آلاء متجمدة في مكانها مذهولة.. مسخ.. هل هو مريض؟ هل أطعمت لتوها واحداً من الوحوش التي كانت سبباً لبناء المعزل.

***

(٣)

أزاح مازن ربطة عنقه قليلاً وهو يقرأ تقرير القضية، قال أيدن وهو يجلس إلى المكتب المجاور ويلتهم شطيرة: إذاً فالرجل كان يعمل في وزارة الشؤون الداخلية، وكان أمامه شهر ويتقاعد.

أجابه مازن: (كارل موستانج).. العمر ٦١ عاماً.. من المنطقة (٦).. موظف في وزارة الشؤون الداخلية في قسم القضايا الداخلية.. ليس له أعداء ولم يتلقَّ أي تهديد بالقتل.. استمع لهذا.. تم تصفية الدم كاملاً من الجسد عن طريق عدة محاقن في أماكن متفرقة موضحة في الصور.. السيارة الهاربة ليس لها أي تسجيل رسمي، وجميع الكاميرات في المنطقة كانت معطلة.. حتى الكاميرات الخاصة بالسيارة والترام والبقالات والمحال.. هل هذه صدفة؟

ـ صدفة لا تُصدق أو نحسٌ لا مثيل له.. ولكن إن كانت متعمدة فأنا لا أعرف من لديه القدرة على تعطيل جميع الكاميرات بتلك الاحترافية.

ـ ربما مقرصن عبقري.

ـ ماذا سنفعل الآن؟.هل سنذهب إلى الوزارة لاستجواب العاملين؟

ـ بكل تأكيد.

قال أيدن باسماً: كن حذراً، فأنت ذاهب إلى عرين أستريد شخصياً وإلى المنطقة المحظورة.

ـ لا أحد فوق القانون.

ـ أجل طبعاً.. باستثناء تلك النمرة.

نهضا معاً وغادرا المركز متوجهين إلى وزارة الشؤون الداخلية، وهي تختلف عن وزارة العدل ووزارة الداخلية؛ إذ تم تأسيسها مع إقامة الإمبراطورية، وهي مسؤولة عن التحقيقات في قضايا اللاجئين من خارج المعزل، والتعامل مع المرضى من الخارج، والمهام المتعلقة بالأمن الوطني للمعزل.

ترجلا من سيارة الشرطة بعد أن ركنها أيدن وأخرجا شارتهما ببطاقتيهما وأبرزاها وهما يتحركان في ذلك الشارع الخالي تماماً من أي مبنى أو بشر أو كائن حي.. بعد عشر دقائق من السير وصلا إلى المنطقة المحظورة المحاطة بأسوار بارتفاع عشرة أمتار وكأنها معزل آخر داخل المعزل. وعلى الفور رفع الحرس جميعاً والقناصة على السور أسلحتهم صوب الضابطين، فصاح مازن مشيراً إلى بطاقته: نحن ضابطان جئنا للتحقيق في قضية قتل وقعت لعامل في وزارة الشؤون الداخلية ومعنا موافقة القاضي.

ظلت الأسلحة مصوبة إلى صدريهما، وهمس أيدن في عصبية: فلنعد يا مازن.

ـ مستحيل.

تحرك أحد حرس البوابة المواجهة لهما وقال آمراً: سأخذ عينة للتحليل.

وأخرج من علبة موضوعة بجواره اثنين من المحاقن البلاستيكية الجديدة، فمد مازن وأيدن ذراعيهما كاشفين الثوب عن الوريد، ودون

كلمة حقن الحارس كليهما بالإبرة على التوالي حاصلاً على كمية من الدم وناولها لزميله الذي فتح البوابة ودلف إليها ثم أغلقها.

ظلا واقفين لنصف ساعة في ملل حتى فُتحت البوابة مرة أخرى وعاد الحارس وعلى شاشة الحاسوب الموضوع أمامهما ظهرت نتائج التحليل فقال أحد الحراس: العينة الأولى سليمة وهي تخص المواطن رقم (..) بطاقة رقم (..) والاسم (مازن فريد عبد الكريم)، المهنة (محقق شرطة) من المنطقة (١)..

قاطعه مازن بعصبية: هذا اسمي بعد التبني الأمني.. اسمي الحقيقي (مازن منصو..)

أكمل الحارس متجاهلاً إياه: العينة الثانية سليمة وهي تخص المواطن رقم (..) بطاقة رقم (..) والاسم (أيدن رسلان دلمات) المهنة (محقق شرطة) المنطقة (١).. يمكنكما المرور.. مسموح لكما بالحركة اتجاه وزارة الشؤون الداخلية فقط.. هناك سيارة داخلية ستوصلكما.. أي تحرك باتجاه مصانع الأسلحة أو السجن الخاص أو الحجر الصحي أو القصر الإمبراطوري سيتم الرد عليه بإطلاق الرصاص الحي عليكما.

ـ نعلم ذلك، شكراً.

***

ارتفع صوت جرس المنبه بجوار سريرها فنظرت آلاء إلى الساعة ثم نهضت، فهو موعد صلاة الفجر، ومن سوء الحظ أن المنطقة (٣) لا يوجد بها سوى مسجدين فقط، وكلاهما بعيد عن بيت حشمت.

توجهت إلى الحمام الصغير الملحق بحجرتها فتوضأت وأدت صلاة الفجر وأيقظت رغد كي تفعل المثل.

قالت رغد بعد أن انتهت من الصلاة وعادت إلى السرير: ماذا بك؟ لم نومك مضطرب وتصابين بالكوابيس؟ هل ضايقك أحدهم؟

ـ ربما.. تـ.. تغيير البيت.

نظرت رغد إليها في شك ولم تعلق ثم خلدت إلى النوم من جديد، وبعد أن انتظم تنفسها وارتفع صوت شخيرها نهضت آلاء بهدوء، وكانت في حيرة من أمرها في الأيام السابقة.. إن كان مسخاً كما قيل فلماذا يأكل الطعام العادي؟ ولماذا مظهره بشري تماماً؟ اقشعر بدنها وهي تستحضر صور تلك المخلوقات التي كانت بشرية يوماً قبل أن تصاب بالمرض.. في معظم الكتب الدراسية كانت ترى صور مسوخ مريعة بعضها ممزق اللحم بنظرة مجنونة وأسنان مستعدة للقضم.. كم كانت ترعبها تلك الصور في طفولتها، والآن واحد من تلك المسوخ على بعد خطوات من حجرتها. غادرت الحجرة بهدوء على أطراف أصابعها بعد أن ارتدت معطفاً طويلاً وتوجهت إلى القبو، وخطر لها أن حشمت هذا واثقاً من نفسه ومن خدمه حقاً كي يترك باب القبو مفتوحاً هكذا ولم تنسَ أن تأخذ معها سكيناً كبيرةً من المطبخ على سبيل الاحتياط، ثم توجهت إلى الحجرة ذات المزاليج فأزاحتها ودلفت وأضاءت المصباح.

كان جالساً في مكانه كما هو وقد ضم قدميه ودفن وجهه بين ركبتيه، رفع عينيه نحوها وخيل إليها أن نظرته حملت لمحة من المودة الغريبة، ولكن

كلّا، لن يخدعها.. قالت بصرامة: لقد عرفت حقيقتك.. أنت مريض..ما الذي تفعله في المعزل؟ هل تحاول إيذاء الناس؟ لقد تركنا لكم الكوكب تمرحون فيه فماذا تريدون بعد؟

ثم فطنت أنها تحدثت بالعربية ثانية، ففتحت فمها لتعيد الكلام بالإنجليزية، ولكنها تجمدت عندما أجاب بالعربية: أريد أغادر.. خارج المعزل.

ظلت تحدق فيه غير مصدقة، ثم هتفت: أنت تتكلم.. كيف تتكلم؟ المريض يفقد القدرة على التواصل والكلام و...مهلاً.. لقد تكلمت باللغة العربية.. أنت...ما أنت؟ من أنت؟

وارتفع صوتها أكثر دون قصد وهي تكمل: تريد أن تغادر حتى تقتل الناس وتنشر المرض.

أطلق زفرة ثم ولاها ظهره واستلقى على الأرض..ما الذي يفعله؟ هل غضب منها؟ أم أن كلامها جرح أحاسيسه؟ هل لديه أحاسيس؟

وقفت مكانها تفكر في الخطوة التالية.. لا تصدق أنها تتواصل مع واحد من تلك المخلوقات وربما ستحصل منه على كمية عظيمة من المعلومات.. لا بد أن تُعلم والدها بأمر هذا الشاب.

قالت برفق: أنا آلاء.. هل لك اسم؟

استدار متأملاً لها ثم إلى السكين في يدها والتي ظهرت دون أن تنتبه، فأرجعت يدها خلف ظهرها تخفي السكين وغمغمت: هذه السكين للدفاع عن النفس.

لم يجبها، فعادت تسأله عن اسمه، فلم يجبها وظل صامتاً.

قالت: ربما أستطيع مساعدتك، سأخبر أبي عنك وهو سيتصرف.. سيخرجك من هنا ويعيدك خارج المعزل، سأطلب منه فعل ذلك.

تهللت أساريره وعاد يقول: أريد أغادر.

ـ حصيلتك اللغوية ضعيفة كما أرى، يجب أن تقول أريد أن أغادر.. أن أغادر.

وابتسمت في لطف وغمغمت: هل أنت حقاً مريض؟

أجاب هذه المرة بالإنجليزية وهو يشير إلى نفسه: حامل للمرض.

ارتفع حاجباها في دهشة وغمغمت: لم أسمع بهذا من قبل.. أنت حالة غريبة.. لهذا يحتفظ بك السيد حشمت.. أنت تتحدث الإنجليزية الآن.. أنت لست مسخاً ولا مريضاً.

عاد يشير إلى نفسه وقال بالعربية: غسان.

ـ أنت عربي الأصل من خارج المعزل إذاً.. متى جئت إلى المعزل؟ وكيف؟

ـ اختطفني آصف ثم أعطاني لحشمت.

ـ حقاً؟ هل لديك أسرة؟

اتسعت عيناه بغتة ثم بدت فيهما نظرة شرسة أخافتها وهو يهمس من بين أسنانه: قُتلوا.

تراجعت ببطء ثم استدارت مسرعة وغادرت الحجرة فالقبو.

***

يرمق مازن تلك الأسلحة ضخمة الحجم التي تقارب حجم مبنى من طابقين، والكفيلة بتدمير منطقة سكنية كاملة إذا ما أطلقت النار عليه.

غمغم أيدن: ما زال بدني يقشعر من تلك الأشياء.

المنطقة المحظورة كانت ذات شوارع نظيفة جميلة وهناك جزء من غابة كثيفة الأشجار على جانبي الطريق، ولكنها لا تثير الطمأنينة في النفس، وهناك نهر.. ثم توقفت السيارة أمام وزارة الشؤون الداخلية فهبطا منها لبدء التحقيق، ولكنه كان بلا جدوى.. مكتب القتيل كان نظيفاً خالياً من أي دليل، والكاميرات سجلت خروج كارل من مكتب المديرة كعادته ثم مغادرة مبنى الوزارة.

استجوب مازن وأيدن الموظفين وزملاء عمله فكانت شهادتهم تتراوح بين أنهم لم يروه هذا اليوم، وهناك من رآه يغادر بصورة طبيعية ككل يوم.

قال مازن لأحد الضباط ضخام الجثة كالعادة: نحتاج لأخذ إفادة السيدة أستريد.

أجابه الضابط في غلظة: سيادة المديرة لا وقت لديها لتضيعه.

هتف أيدن محذراً: نحن معنا موافقة القاضي بالتحقيق هنا، وشهادتها مهمة وإلا سنستدعيها للمركز كي تدلي بشهادتها.

ابتسم الضابط في سخرية وقال: يمكنك أن تحاول.

جاء صوت أستريد الصارم: يكفي.

تقف بقامتها الفارعة الرشيقة وملامحها الباردة وفي يدها كوب ورقي ينبعث منه البخار برائحة القهوة الذكية، وبعد أن تفرست فيهما لثوان

قالت: ملامح طفولية بلهاء.. أنت أيدن.. ملامح لاتينية أو عربية مع الشارب السخيف.. آه.. أنت مازن.. سأمنحكما خمس دقائق من وقتي.

قال أيدن: كيف تـ...

قاطعته وهي تتوجه بخطوات سريعة نحو مكتبها: تبدأ من الآن.

هرول الاثنان خلفها ودلفا إلى مكتبها الواسع الفاخر فأشارت برأسها إلى أريكة وثيرة جلسا إليها وجلست أمامهما.

قال مازن: نحن نحقق في قضية مقتل كارل موستانج.

أجابت بملامح صلدة: مسكين.. كان على وشك التقاعد والعودة للأبد إلى أسرته وموطنه بالمنطقة (٦).

لم يرتح مازن لردها ولكنه لم يرغب بإضاعة الوقت فليحلل كلامها فيما بعد.. أشار إلى أيدن الذي أخرج مسجل صوت ووضعه على طاولة صغيرة أمامها وقال: متى رأيته آخر مرة؟

ـ يوم (..) قام بتسليم ملف من قسم القضايا الداخلية إلى مكتبي ثم غادر، وفي اليوم التالي لم يأت إلى العمل.. حاول قسم العلاقات العامة التواصل معه بلا جدوى فتقرر تحويله للتحقيق.

سأل مازن: هل لديك فكرة إن كان هناك شخص ما قام بتهديده أو بينه وبين أي زميل هنا عداوة؟

ـ لا أعرف ولا أهتم.. أنا لا أهتم سوى بمستوى عمله كموظف.

سأل مازن: هل كان يعاني من مرض ما؟

ـ بوسعك الحصول على ملف عمله وبه آخر كشف طبي دوري قام به من قسم شؤون العاملين.. والآن لا تضيع وقتي في تلك الأسئلة التي لا أملك لها إجابة.

ـ كمديرة للوزارة لا شك أنك علمت أن كاميرات المنطقة التي عُثر عليه فيها وقت الحادث كانت معطلة كلها في ذات الوقت.

ـ أعرف.. يقوم رجالنا بالتحقيق في هذا الأمر طبعاً.

ـ نريد المشاركة في التحقيق.

ـ لا.

ـ هذا تحقيق متعلق بالقضية.

ـ هذا تحقيق متعلق بالأمن العام.. أن يتمكن مقرصن من فعل هذا تحت أنوفنا.. ولكننا سنوافيكم بنتائج التحقيق بعد الانتهاء منها.

ثم نهضت وقالت بابتسامة باردة: يمكنك الحصول على تسجيل الكاميرات التي تظهره وهو يغادر المنطقة المحظورة في ذلك اليوم.. حسناً.. لقد انتهى الوقت.. إلى اللقاء وحظاً موفقاً في حل القضية.

ـ ....

***

مع اقتراب نهاية شهر نوفمبر انتهت امتحانات نصف العام وبدأ اقتراب الصيف بجفافه، وقررت آلاء أنها لن تستكمل دراستها في المنطقة (٣) و ستتخلى عن المنحة الدراسية، وصارحت رغد بذلك، فقالت لها

بلطف: يمكنك أن تدرسي في المنطقة (٨).. دعك من دراسة التاريخ والجغرافيا كذلك.

غمغمت آلاء: أردت أن أعرف عن العالم.

وشعرت بالحزن والإحباط، فكل ما درسته هو أن كوكب الأرض ثالث كوكب في المجموعة الشمسية، وأن عدد قارات العالم سبع قارات، أكبرهن مساحة هي قارة آسيا وأصغرهن أستراليا، ثم انتقلت الدراسة إلى المعزل وتاريخ بنائه والحياة فيه وخطورة العالم خارجه، وهو ما كانت تدرسه طوال حياتها. لم تضف لها الدراسة الجامعية أي جديد، اللهم إلا دراسة حكمة وروعة وعظمة الإمبراطور.

قالت بغيظ: كيف يتم حصر تاريخ البشرية في مجرد معزل بلا تاريخ؟ كيف نحيا بلا ماض؟

طقطقت رغد بلسانها محذرة ثم قالت محاولة تغيير الموضوع: لقد حصلتِ على إجازة الصيف الآن، وخلال يومين ستكون إجازة الإمبراطورية الرسمية للجميع لمدة عشرة أيام، وسأعود إلى المنطقة (٨).

ـ سألحق بك بعد قضاء الوقت مع أبي.. سأذهب إلى المنطقة (١) لأيام.

والواقع أنها كانت تتسلل يومياً إلى القبو بعد أن ينام الجميع مساءً لتجلس مع غسان، وقد فعلت هذا اليوم أيضاً بعد ان التهم حشمت الطعام كالغيلان كعادته وذهب للنوم، ثم لحق به الجميع وساد الصمت والهدوء. هذه المرة كانت تحمل كتب تعلم اللغة العربية والإنجليزية

والحساب للصف الثالث الابتدائي، وضعتها أمامه وقالت آمرة: والآن قم بنسخ تلك القطعة الكتابية في المفكرة بخط جيد.

تحسنت حصيلته اللغوية بفضلها وخلال الأشهر المنصرمة تعلم كيف يمسك القلم ويقرأ ويكتب جملاً بسيطة باللغة العربية والإنجليزية ويجمع ويطرح الأرقام الصغيرة كذلك كانت هي الإنسانة الوحيدة التي تؤنس وحدته وتلعب دور المعلمة والمربية والأخت، وقد فعلت هذا بتحفظ وحذر، وهو كذلك أخبرها عن العالم بالخارج باقتضاب. وذات يوم بارد تساقطت الأمطار بغزارة مع الكثير من الرعد والبرق فغمغمت: لا أحب صوت الرعد.. تقول رغد أن سبب ذلك هو الحرب التي وقعت في طفولتي وأدت إلى مقتل أمي.. كانت القذائف وأصوات الانفجارات ترعبني.

قال غسان: أذكر أنني اعتدت اللعب تحت الأمطار ومعي العديد من الأطفال.

ـ العديد من الأطفال؟.هذا يعني أن هناك بشراً أصحاء في الخارج!

ـ آلاء.. أريد العودة إلى الخارج ويمكنك أن تصحبيني إن شئت.. العالم في الخارج به ناس وأطفال

وحياة.. ليس الجميع مرضى.

ـ شكراً.. الحياة في الخارج مع وجود مرضى كابوس مقيم.

ـ انتهيتُ من الكتابة.

فحصت ما كتبه بعينيها ثم قالت باسمة في تشجيع: أحسنت! والآن حان وقت درس الإنجليزية.

ـ تباً.

***

تسللت بعد ساعتين عائدة إلى حجرتها حاملة الكتب، ففتحت باب الحجرة بحذر ثم تجمدت أمام رغد التي اتسعت عيناها في غضب مرعب واتهام، ووضعت ذراعيها على وسطها وهي تقول من بين أسنانها: أين كنت ومع من؟ لا تكذبي.. لقد لاحظت أنك تختفين كل ليلة منذ أيام.

ارتبكت آلاء واحمر وجهها وتمتمت: كنت في الـ..

قاطعتها رغد وهي تتجه نحوها وتغلق باب الحجرة: لا تقولي أنك كنت في الحمام أو المطبخ أو المكتبة.. لقد بحثت عنك هناك.

ثم استدارت إليها من جديد فتنهدت آلاء ثم وضعت الكتب جانباً وقالت: كنت في القبو.

وأخبرتها عن غسان، وعما تفعله في القبو، وقالت مؤكدة: يمكنك القدوم معي الآن لتتأكدي بنفسك.

ـ سأفترض أنك صادقة، من سمح لك بدخول القبو والجلوس وحدك مع شاب.. هل نسيتِ أننا من المنطقة (٨) ولنا تقاليدنا وعاداتنا وديننا؟

ـ أولاً هو مقيد بالأصفاد وجائع ويعامل بوحشية ويجلس وحيداً، لا يمكنني بل لا يمكن لأي شخص يملك ضميراً أن يقف متفرجاً.. ثانياً أقول لك أنه حامل للمرض.. هل تفهمين معنى ذلك؟

ـ معناه أنه يرغب في قتلك وتمزيقك وربما التهامك.

ـ معناه أنه قد يحمل العلاج للمرض.. معناه إنقاذ البشرية وعودة الحياة إلى الكوكب.

ضيقت رغد عينيها مفكرة، فلم تخطر لها تلك الفكرة في خضم غضبها. وقررت آلاء استغلال الفرصة لإقناعها فأكملت: إنه مسالم جداً ويأكل الطعام مثلنا، وهو ذكي وسريع التعلم، لقد أخبرني الكثير عن العالم في الخارج.. رغد.. أريد فقط أن أخبر أبي كي يتدخل بنفسه وينقذه وينقذ البشر من الوباء.

ـ ولم لم تفعلي ذلك حتى الآن؟

ـ أردت التأكد أولاً من صدق كلامه، ثم أردت أخبار أبي وجهاً لوجه. خشيت أن أحدثه عبر الهاتف أو أرسل له رسالة فتعلم الجهات الأمنية وفي هذا خطر. فقد سمعت زوجة السيد حشمت تقول أنه قد يتم إعدامهم.

ـ حـ.. حقاً؟

ـ أيضاً لا أريد للسيد حشمت أن يعطي غسان لذلك القائد، فقد يقومون بقتله وتشريحه.. لا أريد أن يتأذى أكثر من ذلك.

زفرت رغد ثم قالت: آلاء.. هل تعلمين أن السيد حشمت وضع كاميرا مراقبة صغيرة جداً في حجرة المعيشة تصور ما يدور فيها وتصورك كل ليلة وأنت تتسللين إلى القبو.

تراجعت آلاء قليلاً وهتفت: لا لم أعلم.

ـ إما أنه لم يتفحص الكاميرات منذ أشهر أو أنه يعلم بتسللك هذا وقد تركك لغرض في نفسه.. إن له مصالح عدة مع الوغد المدعو رسلان منافس والدك.. ولكن السيد حشمت طيب ولا أظن أنه.... . ونهضت قائلة بلهجة آمرة: غداً سيسافر إلى المنطقة (١) وهذا يعني أنه سيقابل رسلان وأنه لا وقت لديك.. اتصلي بوالدك وأعدّي حقيبتك كي تسافري إليه خلال يومين إن كنت حقاً ترغبين في إنقاذ هذا الشاب.. أنا كنت سأسافر إلى المنطقة (٨) طبعاً ولكن الآن لن أتركك.

***

تثاءبت إيلين وهي تجلس على طاولة الإفطار مع والدها وزوجته بعد أن غادر أخوتها الصغار إلى المدرسة. مدت الشوكة إلى طبق الجبن وراحت تأكل بلا شهية.

غمغم والدها: عزيزتي إيلين.. سوف يمر علينا أيدن بعد قليل، قابليه واسمعيه! مفهوم؟

هزت إيلين كتفيها وأكملت الطعام بهدوء. عاد والدها يقول محذراً: ستستقبلينه بشكل مهذب فهو ضيفنا.

ردت وهي ترشف من فنجان قهوتها: إنه يريد الزواج مني أو هكذا أظن، وأنا لن أقبل.

بدا والدها متضايقاً وقالت زوجته: ولم لا؟ حان وقت رحيلك إلى بيتك وبناء أسرتك. هذا أفضل من إضاعة اليوم في تدريبات رياضية غامضة في أماكن غريبة.

ردت ببرود: لا أريد.

قال والدها : ولم يا بنيتي؟ .ألم تكوني مولعة به في الماضي عندما كنتما طفلين.

ـ كان هذا قبل أن يحكم والده على جدي وخالي ووالدتي بالإعدام.

زفر والدها.. كانت تلك الذكرى أليمة بالنسبة له برغم أنه لا يتحدث عنها مطلقاً، ولكنه بصرامة أجاب ابنته: كان يقوم بعمله كقائد بعد انتهاء التمرد في المناطق السفلى.

ردت إيلين: أنا واثقة من أنه يقول هذا لنفسه كل يوم كي يُخرس ضميره.. على فرض أن لديه ضميراً.

نهض والدها وقال: لم تعد لي شهية.

وانصرف، فقالت زوجة أبيها: كان زواج والدك من امرأة متمردة من عائلة متمردة غلطة، وهاهي النتيجة؛ فتاة مزعجة همجية فشلت في الدراسة في جميع المناطق بالمعزل.. لا شك أنها الجينات.

ـ والدتي كانت ثائرة لا متمردة.. أنضمت إلى المظلومين وانحازت لهم.

وصل أيدن وجلس يثرثر مع والدها.. كانت كأي أنثى جُبلت على العاطفة تتوق كل خلية من خلاياها إلى الحب وتحلم بتأسيس أسرتها، لكنها اتخذت قرارها منذ زمن فأغلقت باب الحب وأحكمت السيطرة التامة على قلبها فخنقته بقبضة باردة حتى تحجر وصارت كلمات كالحب والعاطفة تثير سخريتها. دلفت إلى حجرة الضيوف الواسعة.. هاهو أيدن

رسلان رفيق طفولتها وحبها الأول وغالباً الأخير إن فشلت في اغتيال الإمبراطور.

نهض واللهفة على وجهه، نظرة الاشتياق الشديد التي لا تفارق عينيه كلما وقعتا عليها، يهز وجودها فؤاده. لم يكد يراها حتى ظهرت على وجهه مشاعره كاملة ولم يحاول هو إخفاءها. جلست بهدوء، جلس، وتنحنح والدها ثم قال: وكيف حال والدك؟

غمغم أيدن: بخير، إنه يرسل تحياته إليك يا عماه وإلى جميع أسرتك.

قالت إيلين بسخرية: حقاً؟ سأبلغ أفراد أسرتي بتحيات حضرة القائد عندما أزور قبورهم في المرة القادمة في المنطقة (٦).

احتقن وجه الرجلين وغمغم والدها: سأذهب لرؤية سبب تأخر الخادمة في إحضار القهوة.. بإذنكما.

مضت لحظات من الصمت المحرج ثم غمغم أيدن: كيف حالك؟

ردت بابتسامة شاحبة: بخير.. وكيف حالك؟

ـ بخير.

ثم عاد يقول: أنا أعمل محققاً، ولدي منزل مستقل في حي جميل وهادئ، وقريباً سأنتقل إليه.

ردت: أبلغتني بذلك منذ شهرين.

ثوان من الصمت من جديد، ثم قال فجأة بلهجة قوية متعجلة: لم أعد أريد تضييع الوقت.. إيلين.. أنا أحبك.. لم أحب سواك في حياتي كلها..

أريد أن نتزوج.. مهلاً.. لا تقاطعيني.. أعرف أنك لن تنسي أبداً أن والدي كان القائد الذي حكم ونفذ حكم الإعدام بوالدتك وأسرتها.. ولكنه كان يؤدي وظيفته ويطبق القانون. لست بصدد مناقشة هذا الآن. أعدك بأنني لن أجبرك على زيارة والدي أو الاحتكاك به بعد زواجنا.. أعدك بأنني سأظل أحبك إلى آخر عمري، ولن تندمي أبداً أنك اقترنتِ بي.

بدا بعض الحزن والمرارة على وجهها وهي تقول: تخيل أننا تزوجنا ثم اعترضت على حكم الإمبراطور أو أحد قوانينه أو قراراته.. وتم اعتقالي أو إعدامي، ماذا ستفعل وقتها؟

تجمد في مكانه وهو يرمقها فعادت تقول: هل ستتخلى عني كي تحافظ على مكانتك وثروتك؟ هل ستتزوج من امرأة أخرى ذات منصب حتى توفر لك الحماية كما فعل والدي؟

قال: هل تختبرين حبي لك؟

أجابته بجدية: لست بحاجة لذلك، فأنا أعلم صدق مشاعرك. أنا أخبرك أنني لا أصلح زوجة لك.

ـ لا تعارضي الإمبراطور إذاً وسنحيا في أمان واستقرار وسعادة.

غمغمت في حزن: إلى اللقاء يا أيدن.. غداً تجد فتاة أخرى تحبها وتحبك.

هتف بشيء من الغضب: هل تظنين الأمر سهلاً؟ هل تعلمين كم بذلت من جهد وكم حاولت مراراً أن أمحوك من قلبي وعقلي؟! أنت كمرض لا أستطيع الفكاك منه مهما حاولت أو تعرفت بفتيات. هل تدركين ما

شعرت به وأنا آتي لزيارتك اليوم وأنا أحاول منذ أيام التحدث معك؟! وأنا أعلم أنك سترفضين الارتباط بي، أنا لا أستطيع أن أحب سواكِ، لذا كفي عن أخذي بذنب والدي وكوني عادلة.

ولكن ملامحها التي عادت باردة خالية من المشاعر جعلته ينظر إليها نظرة أخيرة ثم يستدير ويغادر، أما هي فقد صعدت حجرتها وسمعت والدها يتذمر بالأسفل.. لم تبكِ ولم تصرخ بالرغم من أن قلبها كان يفعل ذلك، بل استلقت على سريرها بصمت وبلا تعبير ترمق السقف.

***

لا يحب رسلان هذا الرجل البدين الانتهازي تاجر السلاح كثيراً لكنه لا ينكر أنه مفيد ولم يكن ليتوقع أن يجد فائدة في شخص من المنطقة (٧) سابقاً طبعاً، فهاهو اليوم قد صار من سكان المنطقة (٣)، وهكذا أمر الخادم بالسماح لحشمت بالدخول إلى مكتبه في قصره ورسم ابتسامة مجاملة على وجهه وهو يغمغم بعبارة ترحيب، ثم جلس يصغي إلى ضيفه قبل أن ينتفض ويهتف: ماذا تقول؟ أنت تمزح؟ هل أنت جاد؟ حامل للمرض؟

قال حشمت: تخيل يا سيدي أن تجلس مع مولانا الإمبراطور وتمنحه هذا الشاب كهدية.

ـ لا يوجد في العالم كله حامل للمرض، إما مرضى أو أصحاء.

ـ ولهذا سيكون هدية لا تعوض. أستطيع أن أرى بعين الخيال مولانا الإمبراطور وهو يفكر فيك كمرشح قوي لتكون نائبه.

لمعت عينا رسلان وهو يتخيل الأمر ثم تنحنح وعاد لهدوئه وقال: معك حق! تلك هدية قيمة يا حشمت وسأكافئك عليها بسخاء، ولكن لا يمكنني كتابة توصية لنقلك إلى المنطقة (١)، فتلك المنطقة ليست متاحة لكل من هب ودب.

ابتسم حشمت مجيباً: لم تنتهِ هديتي بعد يا سيدي.

تأمله في حذر وفضول فعاد يقول: والدتي المسنة بحاجة لرعاية دائمة كما تعلم، وقد التقيت منذ أعوام بممرضة نشيطة مخلصة في المنطقة (٨) وعرضت عليها العمل لدي بمبلغ سخي وقد قبلت. ولدى تلك الممرضة ابنة أخت حصلت على منحة من الجامعة في المنطقة (٣) وقد قبلتُ أنا بكرمٍ شديد أن تمكث الفتاة مع خالتها الممرضة في منزلي..

قاطعه رسلان في نفاد صبر: اختصر يا حشمت.. لا تقص علي قصة حياتك.

ـ تلك الفتاة تتسلل يومياً للجلوس مع حامل المرض ويبدو أنها قد تعلقت به.

ـ هل هاجمها؟ هل صارت مريضة؟ تكلم.

ـ مطلقاً! إنها بخير، ولكن من هي تلك الفتاة؟ آه.. إنها آلاء فريد عبد الكريم ابنة رئيس الحكومة ومنافسك وعدوك. تجلس يومياً مع حامل المرض كأنه صديق.

نهض رسلان وقد تملكه الانفعال وراح صدره يعلو ويهبط فعاد حشمت يطرق الحديد وهو ساخن: حتى وإن لم تكن هناك تهمة واضحة فأمر كهذا قد يؤثر على ثقة الإمبراطور برئيس الحكومة.

مضت لحظات من الصمت ثم نهض رسلان إلى طاولة في الحجرة فتناول زجاجة مشروب كحولي وصب منها في كأس ثم جرع دفعة واحدة وقال: هل تريد بعض البراندي يا حشمت؟

وصب له كأساً وناوله إياه وبدا أنه يفكر ويدير الأمر في رأسه ثم قال: ليكن.. ستحصل على خطاب التوصية.

***

في ثقة كطاووس مغرور تحرك رسلان إلى قاعة العرش الخاصة بالإمبراطور فقد حصل على موعد للمقابلة هذا المساء. كان منتشياً بشعور الانتصار فحتى وإن لم يدمر مستقبل غريمه فهو على الأقل سوف يلطخ ثوب سمعته الناصعة البياض. بدون كلمة تراجع الحارسان ليسمحا له بالدخول وكان الإمبراطور جالساً على مقعد إلى طاولة الاجتماعات بركن القاعة الفاخرة بينما العرش خال وقد جلست بالقرب منه أستريد، فأدى رسلان تحية صارمة ثم قال: مولاي الإمبراطور جئت للحديث في أمر خطير ومهم يا مولاي ولا يمكن مناقشته في وجود أحد.

رماه الإمبراطور بنظرة سريعة ثم قال: تكلم فلا أحد سوانا.

نظر رسلان إلى أستريد فقال الإمبراطور بنفاد صبر: تكلم أو غادر.

هكذا تكلم رسلان في حماس وانفعال في البداية ثم تبدل هذا إلى قلق وتوتر وهو يلاحظ ملامح الإمبراطور اللامبالية. ولما انتهى أخيراً شعر بشيء من الذعر عندما تبادل الإمبراطور نظرة ساخرة قليلاً مع مساعدته الأولى ثم قال: تصوري.. هناك حامل للمرض في هذا العالم.

أجابت ببرودها الأسطوري: هناك الكثير ممن يحملون المرض.. فقط عزيزنا رسلان وبقية سكان المعزل لا يعلمون.

قال الإمبراطور محدثاً أستريد: حامل للمرض تسلل إلى المعزل.

فكان جوابها: سأقوم بتحقيق كامل، وسيدفع كل من تسبب في هذا الثمن.

عاد الإمبراطور يوجه حديثه إلى رسلان قائلاً: هل هناك أحد آخر يعلم بشأن الشاب حامل المرض سواك وحشمت هذا وصاحب السيرك؟

ـ لا يا مولاي.

قالت أستريد باسمة: سأتكفل بالأمر.. الليلة سيتم القضاء على حامل المرض وجميع الشهود.

غمغم رسلان بخوف: ولكن.. ولكن.. حامل المرض يمكنه أن ينقذ البشرية من الوباء.. أليس كذلك؟

أجاب الإمبراطور: لا يمكنه.. ثم لم سأقضي على الوباء.. ما زلت بحاجة إليه لبضع سنوات أخرى فقط.

ـ مـ.. مولاي.

واتسعت عينا رسلان غير مصدق.

ـ المشكلة في آلاء.. المعزل به ملايين الفتيات، ولكنك ورطت تلك الفتاة بالذات.. أم أنها كانت الهدف لحامل المرض منذ البداية؟ أستريد.. اعثري على آلاء فوراً. لا يجب أن يحصل عليها هذا الشاب والبشر خارج المعزل.

ثم أشار إلى رسلان وقال: تخلصي منه فصراعه مع فريد يزعجني.

اتسعت عينا رسلان وتجمعت فيهما دموع الخوف وهو يخر على ركبتيه متوسلاً: مولاي.. مولاي.. أنا أحترمك وأقدرك.. أنت الإمبراطور المعظم.. امنحني فرصة أخيرة.. فرصة واحدة.

أشار الإمبراطور بأصبعه نحوه وقال محذراً: فرصة أخيرة.. هل فهمت يا رسلان؟

ـ أجل.. أجل.

قال الإمبراطور: تعلم أننا نقوم بحملات منتظمة خارج المعزل للتخلص من المرضى وإنقاذ الأصحاء إن عثرنا على أحدهم ستنطلق مع الحملة القادمة في مرحلتها الثانية، سيكون هذا اختباراً لك.

ـ بأمرك يا مولاي.

ـ إن نجحت فستحصل على مكافآت لم تكن لتحلم بها، وإن فشلت كما حدث مع البعض فلن تعود إلى المعزل ثانية. وإياك أن تقترب ثانية من فريد أو أسرته.

ـ أجل يا مولاي.. شكراً يا مولاي.

***

(٤)

بعد منتصف الليل بساعة توقفت سيارة سوداء داكنة الزجاج تحمل شعار وزارة الشؤون الداخلية أمام بيت حشمت وهبط منها عدة رجال بهدوء شديد ووقف منهم اثنان أمام بوابة المنزل لمراقبة الطريق ودلف البقية إلى داخل البيت، وفي القبو التفت غسان وقد سمع صوت السيارة. كانت رغد تقف قرب باب الحجرة ترمقه طوال الوقت كما لو كان حشرة غريبة الشكل، بينما آلاء تجمع الكتب. قالت: كما أخبرتك.. سأسافر لبعض الوقت غداً صباحاً لكنني سأعود مع والدي لمساعدتك فلا تقلق.

قال بلهجة جادة: آلاء.. قفي مع خالتك أسفل النافذة.

ـ هه.. لماذا؟

ـ لأننا سنهرب من خلالها.

نظرت إليه في حيرة وقد توترت من هذا التغيير المفاجئ الذي اعتراه في لهجته ونظرته ثم اتسعت عيناها وهي تراقبه يمد كفه ليخرج من طيات قميصه البالي أداة رفيعة غريبة راح يحاول بها فك قيد قدمه حتى نجح.

هتفت رغد: سيتحرر ذلك الوحش.. توقف وإلا استدعيت الحرس.

كانت آلاء مذهولة تماماً وتناهى إلى مسامعها صوت صرخات مكتومة وتمتمت: غسان.. ماذ...

قاطعها: هناك مذبحة تجري الآن في الأعلى.. سيقتلون الجميع بما فيهم أنا وخالتك، وسيعتقلونك إن لم نهرب الآن.. أعلم أنك لا تفهمين، ولكني سأشرح لك كل شيء فيما بعد.. أعدك.

تراجعت في هلع وهي تهتف: من أنت؟ وكيف حررت نفسك؟

قال وهو يضع كفيه المصفدتين متجاورين: آنسة رغد اصعدي على كفي وتمسكي بالنافذة واخرجي منها إلى الحديقة وابقي هناك حتى ألحق بك.

صاحت رغد: والقضبان على النافذة؟

ـ لقد فككتها منذ زمن.. ضربة واحدة وستتم إزاحة القضبان.

ثم صاح: أغلقي الباب.

تناهى إلى مسامعها أصوات أقدام تهبط إلى القبو فأسرعت تنفذ ما قال ثم هرعت نحوه وبتردد وضعت قدميها على كفيه وأسندت نفسها إلى الحائط محاولة الوصول إلى النافذة.. مدت يدها تدفع القضبان فتهاوت إلى الخارج وتمسكت بإطار النافذة ودفعت جسدها لتخرج إلى الحديقة.. وتبعها غسان ثم أعاد القضبان الحديدية وهو يهمس: لا تخافي يا آلاء.. لا خطر عليك.. سأعود إليك فيما بعد.

دلف إلى الحجرة ثلاثة رجال مسلحون شهروا أسلحتهم في وجه آلاء قبل أن يصيح أحدهم آمراً زملاءه : توقفا! إنها ابنة رئيس الحكومة.

راحو يفتشون الحجرة في جنون، ثم سألها أحدهم في صرامة: أين هو؟ تكلمي.

تجمعت دموع الخوف في عينيها ولم تجب فصرخ في وجهها: تكلمي وإلا أرغمناك على الاعتراف.

من جديد لم تعلق وراحت تهز رأسها بلا معنى فجذبها من ذراعها في غلظة وقال: سنعتقلك إذاً.

تحركت معهم وهي ترجف رعباً ووقعت عيناها على بقع الدماء على الأرض وجثث الخدم وجثة ابن حشمت المراهق في حجرة المعيشة وقد بدا أنه كان يحاول الهرب.. شهقت ثم بكت بصمت.

***

في السابعة والنصف صباحاً يحين موعد الإفطار ولا تقبل كريمان زوجة فريد بأي تأخر عن الموعد.. تهبط من الطابق الثاني إلى حجرة الطعام وتجلس إلى كرسيها بأناقة وسرعان ما يهبط أبناؤها التوأم كريم وكريمة.. كلاهما ورثا الكثير من جمالها الأخاذ، وكلاهما تخرج من جامعة المنطقة (١) بتقدير امتياز.. ابنها باحث مهووس باكتشاف علاج للوباء وابنتها مهندسة ديكور.

قالت كريمان في ضيق: أين مازن؟

أجابت الخادمة وهي تتجه لتنفيذ الأمر المبطن: سأناديه حالاً.

جاء صوت مازن وهو يدلف إلى الحجرة: لا داعي.. لقد استيقظت.

تأملت كريمان ملامحه الفوضوية وغمغمت: ألم تغسل وجهك حتى؟

قال وهو يدس الشوكة في طبق البيض: لا.

ـ انتظر والدك.

ولكنه وضع الطعام في فمه وراح يلوكه بآلية وكأنه يقوم بتأدية واجب فانفعلت كريمان وقالت: أنت.. أنا أتحدث إليك.

دلف فريد عبد الكريم إلى الحجرة فران الصمت كلياً. جلس إلى مقعده وقال: صباح الخير.

أجاب الجميع التحية عدا مازن الذي راح يحشر الطعام في فمه بصمت دون أن يرفع عينيه عن الصحن.

أنيقاً ووسيماً يرشف فريد فنجان القهوة، بينما يطالع الجريدة باهتمام وقد سقطت خصلة من شعره الناعم على جبينه.. يزيح ربطة عنقه قليلاً مغمغماً أن الجو حار اليوم.. تنظر زوجته محذرة إلى ابنتها كريمة التي تختلس نظرات خجولة إلى مازن.

نهض مازن فقال فريد: مازن.

تجمد مازن في مكانه وأراد أن يجيب بوقاحة ولكنه لم يفعل فأكمل فريد: لا تغادر وحدك.. اغتسل ريثما تجهز السيارة.. سأوصل الجميع في طريقي.

ثم أنهى طعامه ونهض مغمغماً وهو يضع الجريدة جانباً: لا أخبار مهمة.

وقبل زوجته في جبينها بلطف ثم غادر مع الأبناء الثلاثة.. لوحت لهم كريمان مودعة وظلت تقف في مكانها قليلاً، ثم تنهدت وهي تعود

إلى داخل القصر، فلديها الكثير من العمل اليوم، ولكن السيارة الفارهة توقفت بغتة قليلاً فنظرت في قلق نحوها. غادر فريد السيارة وهو يمسك هاتفه النقال والذي يسمح فقط لأفراد الحكومة بتملكه.. تراه يهز رأسه وقد بدا غاضباً، سمعته يذكر اسم آلاء، ثم عاد إلى السيارة وسرعان ما انطلقت بركابها.

آلاء من جديد.. تستعيد كريمان ذكرى كل الأحداث التي مرت بها في شبابها.. كانت كمعظم المواطنين الآن ولدت في المعزل لأبوين ولداً كذلك في المعزل.. هكذا لم يعد العالم خارجه يمثل لها أي شيء سوى حنين الأجداد لوطنهم، الذي انتهى بوفاة جيل الأجداد.. ولدت لأسرة ثرية في المنطقة (١) وأخبرها والدها مرة أن أجدادها كانوا ملوكاً أو أمراء من أصول عربية ساهموا في بناء المعزل بمبالغ طائلة جعلت لهم مكانة في المنطقة (١). لم تفهم يوماً معنى الفقر أو الحاجة، فأموال أسرتها طائلة، ترغب أي شيء فيأتي إليها على طبق من ذهب، فهي الابنة الوحيدة المدللة لوالديها. بلغت الثامنة عشر من العمر وتمنت وقتها شيئاً واحد فقط؛ أن يحبها ذلك الشاب من المنطقة (٨) الذي يدرس هنا بمنحة دراسية نادرة لا يحصل عليها إلا أقلية قليلة، إنه يدرس في الكلية العسكرية تحت إشراف والدها.. تتأمل عينيه بلون العنبر وملامحه الوسيمة وسلوكه المهذب،.. وهو شهم ويمتلك الكثير من مقومات الرجولة، وهو أفضل بكثير من كل هؤلاء المخنثين من حولها الأشبه بذباب مزعج.

كانت ذكية رائعة الجمال وقد حان الوقت للإيقاع بهذا الشاب الخجول القوي، وهكذا راحت تتقرب إليه في المناسبات الاجتماعية العديدة التي

كان يقيمها والدها في القصر ويدعو تلاميذه المتفوقين لحضورها حتى بادلها الإعجاب، ثم وقع في حبها ببلاهة، ثم تجرأ يوماً على طلب يدها من والدها، وبالطبع ذُهل والدها وقام بطرده بتهذيب. هنا تتدخل هي : دادي.. أريد الزواج من فريد،.. أنت بنفسك قلت أنه شاب ممتاز.

يجيبها والدها: إنه من المنطقة (٨).. هل جننت حتى تقبلي بزوج كهذا؟ هل ستعيشين هناك؟

ـ أحبه وأريده زوجاً لي.

لم يستطع والدها أن يرفض طلبها مطولاً، وفي النهاية خضع لرغبتها وقبل بزواجها من فريد.

ظنت هي أنها انتصرت وظفرت بالرجل الذي أعجبها.. في البداية كان مُصراً على العيش في المنطقة (٨) لأنها وطنه كما قال وقد كان هذا هو شرطه لإتمام الزواج، فقبلت ببعض التضحية من أجل الحب.. هكذا يفعلون في الروايات. عادت معه إلى منطقته الفقيرة حيث عمل هناك في منصب جيد، وأسكنها في بيت صغير، حجمه لا يصل ربع حجم قصر والدها، ولكنه كان بيتاً جميلاً يطل على بحيرة جميلة.. مع مرور الوقت بدأت تشعر بالسأم حقاً، فلا أماكن كافية للتسوق هنا،.. الناس لا تفهم في الموضة كثيراً، وهم لا يرون الكثير من السيارات كما أنهم مملون للغاية رغم طيبة قلوبهم، ثم إن المناخ هنا حار جاف مقارنة بالمنطقة (١). لا توجد كثير من الأندية كي تلعب التنس أو تمارس الركض.. الطعام رديء والخضر والفاكهة كذلك.. ما هذا المكان اللعين البائس؟ ولماذا الناس

هنا سعداء بحياتهم؟.. تحولت إلى زوجة عصبية لا تكف عن الشكوى والتذمر.

كان فريد مهذباً للغاية ونبيلاً حاول أن يرضيها قدر المستطاع، وظل يأمل أن تتكيف مع الوقت، فهو لن يتخلى عن الناس هنا، وسيسعى لتحسين أوضاعهم بشتى الطرق. أما كريمان فقد كانت حمقاء لأنها لم تدرك أن زوجها يؤمن بقضية ولن يتخلى عن هذا الإيمان.. أي رجل آخر كان سيسعده العيش في المنطقة (١) في قصر حماه، ولكن ليس هو.. صارت حاملاً وأنجبت توأماً ولداً وبنتاً رائعين كريم وكريمة . فريد أب رائع كذلك، يصبر على الأطفال ويحملهم ويغير لهم ملابسهم أحياناً. بعد أن صار عمرهما ستة أشهر عادت كريمان بالأطفال إلى المنطقة (١).

لديك خياران يا زوجي الحبيب: إما أن تلحق بنا للعيش في المنطقة (١) معاً أو ننفصل.. لن يتربى أولادي في تلك المنطقة.. قال أنه لا عيب في المنطقة (٨) وأنه تربى فيها لكنها مصرة. ظنت أنه سيخضع لرغبتها أخيراً.. تعلم كم هو شديد التعلق بالطفلين، ولكنه اختار الانفصال، وهكذا وقع الطلاق في ليلة شتاء بارد.

تباً لك يا فريد...أتمنى أن تموت وُتدفن في المزبلة التي تحب العيش فيها كثيراً.

في البداية كان يزور الطفلين بانتظام أو ترسلهما إليه في الإجازة، ثم بدأ يقلل من وقت الزيارات ويكتفي بالمكالمات الهاتفية. يتقدم لها العديد من الأشخاص الراغبين في الزواج منها ولكن قلبها ما زال معلقاً به.. من هو

حتى يتعلق قلبها به، فقط تتمنى لو أنه صفعها مرة أو أهانها،.. أي موقف سيئ كي تقوم بتضخيمه وتتمكن من كراهيته، ولكنها لم تجد في ذاكرتها واحداً. لقد تخلى عنها من أجل المنطقة (٨).. كانت مخطئة بزواجها من شخص لا يناسبها اجتماعياً.. قد تحتاج الروح إلى الحب كي تحيا، ولكن الجسد يحتاج إلى الأمور المادية كذلك كي يحيا.. الحب وحده لا يكفي لنجاح الزواج.

تقصت أمره فعلمت أنه سيتزوج أحد قريباته قريباً، ثم انتهى كل شيء.. تزوج من رهف الأقل منها جمالاً ومالاً بمراحل، وأنجب منها طفلةكذلك.. المناطق السفلى تتمرد وهناك حرب قد قامت بينهم وبين الحكومة الإمبراطورية.. بلغها أن فريداً يقود التمرد.. الأحمق.. لقد جن إذاً.. سيُقتل في تلك الحرب في النهاية وتُعلق جثته على أحد أعمدة الإنارة.. ثم فجأة قرر فريد التعاون مع الإمبراطور وصار قائداً للجيش.. هكذا تخلى ببساطة عن المنطقة (٨) التي صدع رأسها بالحديث عنها.. ثم انتهت الحرب وتوفيت زوجته الجديدة وعاد للعمل في المنطقة (١)، وبعد عام صارحها برغبته في العودة إليها وقد قبلت.. الآن تعيش أسرتها في المنطقة (١) في قصر وقد حققت هي كل ما تمنت.. هناك مازن الذي تبناه زوجها بعد أن فقد أسرته في تلك الحرب تبنٍّ أمني، وهو قانون غريب يسمح لذوي المناصب بتبني الأطفال المحكوم عليهم بالإعدام بسبب تمرد أسرهم.. هناك كذلك آلاء التي ظلت في المنطقة (٨) برغبة والدها.. ولكن ظل لغز استسلامه للإمبراطور يؤرقها.

***

في المساء قام رامي بتنظيف المخبز وأخرج بعض بقايا المخبوزات ووضعها في طبق فتجمعت عليها القطط والكلاب الضالة الهزيلة.. مساكين.. يتمنى تقديم المزيد إلى كل تلك الأكباد الرطبة.. تأمل الزينة المعلقة في الشوارع، فغداً الاحتفال بذكرى تأسيس الإمبراطورية، ثم لمح شقيقته تركض اتجاهه وهاله مظهرها الشاحب المذعور وهي تهرع إلى الداخل، ثم تلقي بنفسها على أحد المقاعد وتبكي وتتكلم بسرعة: لقد.. سيقتلوننا أو ربما يعتقلونا.. رامي.. لقد اعتقلوا آلاء لأنها ساعدت ذلك المجنون.. تركني في الطريق وقال أنه سيلتقي بك فيما بعد وأنه سيساعد آلاء.. علينا أن نهرب، ولكن بعد أن نعيد آلاء.

ـ مهلاً.. مهلاً.. اهدئي فأنا لا أفهم حرفاً مما تقولين.. هل قلتِ أنهم قبضوا على آلاء.. تقصدين الشرطة؟

ـ الشؤون الداخلية.. اعتقلوها منذ ثلاثة أيام.

اتسعت عيناه وهتف: لماذا؟

وناول شقيقته كوب ماء فجرعت منه ثم نظرت إلى أخيها وبدأت تقص عليه كل شيء وقد أصغى إليها بقلق بالغ واهتمام، ثم هز رأسه وقال محاولاً طمأنتها: لا تقلقي.. إن كانوا يريدون اعتقالك أو إيذاءك لفعلوا ذلك وأنت على متن القطار، فهو يمر بالعديد من أجهزة الكشف الأمنية. كما أن لديهم سيارات وطائرات وكانوا ليصلوا إلى هنا قبلك بساعات عدة.

توجه مسرعاً إلى حجرته ثم عاد مرتدياً ثيابه وقال: أبقي لدى مومو بضعة أيام حتى تهدأ الأمور وأنا سأذهب إلى المنطقة (٣).. لا بد من توكيل محام لآلاء.

ظل يدعو الله ألا توضع تلك الفتاة في سجن مشابه للسجن الذي كان فيه، فهي لن تحتمل أبداً. اتجه إلى محطة القطار بعد أن أوكل شقيقته إلى مومو وكتب ورقة علقها على باب المخبز بأن المخبز مغلق.

أما آلاء فقد تم تغطية عينيها وتقييدها بينما تتجه بها السيارة إلى مكان مجهول، وكانت مذعورة خائفة لدرجة عقدت لسانها فلم تنطق طوال الطريق حتى المنطقة (١) فالمنطقة المحظورة. دفعوها إلى زنزانة قذرة كريهة الرائحة شبه مظلمة وأغلقوا الباب بعد أن قاموا بفك قيودها وغطاء عينيها.

نظرت إلى الأرض المبتلة بماء آسن، وزكم أنفها رائحة فضلات بشرية في ركن الزنزانة، وبرغمها تقيأت ثم حاولت البحث عن ركن نظيف تأوي إليه فلم تجد.. هكذا دامعة العينين خلعت الشال الخفيف الذي كانت تضعه على ذراعها وفرشته وجلست فوقه محاولة تهدئة أعصابها وخوفها.

***

يوم الاحتفال بتأسيس الإمبراطورية.. الساعة السادسة صباحاً

اليوم تلتقي إيلين بمؤسس مجموعة المتمردين لأول مرة لينتقي من أعضاء الجماعة من سيشترك معه في مهمة اغتيال الإمبراطور بشكل مباشر. وصلت في وقتها وكان الأعضاء جالسين في صبر في تلك القاعة الفسيحة. راح قائدهم المباشر يناديهم بالاسم، فينهض كل رجل ويفتل عضلاته ويدلف إلى حجرة جانبية في ثقة، ثم يغادر بعد قليل صامتاً.

أنضمت إليهم منذ سنوات وتدربت على أيديهم أيضاً، ثم جاء دورها فنهضت ودلفت إلى الحجرة. كان القائد جالساً على مقعد أمام طاولة صغيرة وكان ملثماً لا تظهر من ملامحه سوى عينين غطاهما بنظارة داكنة الزجاج، فأشار لها كي تجلس على المقعد المواجه له فجلست.

قال: إيلين.. سأسالك سؤالين.. أولهما.. لم تريدين قتل الإمبراطور؟

ـ ....

ـ أليست لديك إجابة؟

كان يتوقع الردود المعتادة نفسها.. «أريد قتله لأنه قتل أسرتي».. «أريد قتله حتى نخلص الناس والمعزل من طغيانه».. «أريد قتله لأنه أعدم فلاناً»...إلخ

ولكنها فاجأته بردها: لأنني إذا لم أقتله فسأقتل نفسي.

صمت القائد وهو يتأملها باهتمام فأكملت: أريد أن أقتله منذ خمسة عشر عاماً.. أستيقظ من النوم لأنني أحلم بيوم قتله.. آكل وأشرب وأستمر في الحياة لأنني أريد قتله.

نقر القائد بيده على الطاولة في شرود يفكر في كلامها ثم غمغم: هل أنتِ قادرة على قتله؟

ـ أجل.. وسأحمل عنقه في يدي.

تأمل الحقد المطل من عينيها الجميلتين ثم هز رأسه وقال: أنت معنا في تلك المهمة.. ولا تنسي عينة ابنة رئيس الحكومة.. تعلمين ما عليك فعله.. يمكنك المغادرة.

نهضت مغادرة وعادت إلى قصر والدها فأسرعت إلى حجرتها فصبغت شعرها باللون البني الفاتح وارتدت عدسات لاصقة فاخرة من النوع الذي يصعب تمييزها أنها عدسات لاصقة بلون عنبري.. يجب أن تحاول جعل ملامحها شبيهه بآلاء ويجب أن تنتهي قبل أن تستيقظ زوجة أبيها المزعجة.. بعد وضع كمية من مساحيق التجميل ما زالت الملامح مختلفة وكذلك الأنف.. تباً.. أخرجت من درج مكتبها علبة وأفرغت ما بها من شرائح تشبه الجلد تماماً وثبتته على وجنتها.. يجب أن يبدو وجهها ناحلاً من هنا وهنا.. الآن بدت قريبة الشبه بها ليس طبعاً إلى حد خداع معارفها ولكن بما يكفي لخداع الحرس.

الآن تغادر القصر وتسرع إلى ميدان (جوهرة الإمبراطورية) الأشهر في المعزل.. من هنا سوف يمر موكب ذلك الطاغية.. غير مسموح بدخول أي شخص إلى الميدان ما لم يكن من كبار رجال الحكومة أو من أفراد أسرتهم.. صحفيو الجريدة الوحيدة في المعزل قد تجمعوا لتصوير الأحداث، وفي العاشرة صباحاً بدأ تجمع الناس.

هتاف الناس في كل مكان.. الأطفال تمرح.. الألعاب النارية تنطلق.. رفاقها توزعوا هنا وهناك.. سيتم تفجير ثلاث قنابل في الموكب وإن لم ينجح الأمر فسيحين دورها.. الطعام والشراب مجاني اليوم وكذلك ألعاب الأطفال وأنشطتهم في كل مناطق المعزل.

تم إحاطة الميدان برجال الأمن وهناك طائرات تمر لتأمين أسطح المباني القريبة.

بثقة توجهت نحو البوابة الأمنية ووقفت في طابور أسر الوزراء وكبار مسؤولي الإمبراطورية وقالت باسمة عندما حان دورها : صباح الخير.. أنا آلاء ابنة رئيس الحكومة وتلك هويتي.. يسمح لنا بالدخول لتحية مولانا الإمبراطور.

ومدت يدها المغلقة على عينة شعر آلاء نحو شعرها وتظاهرت بأنها تنزع الشعر من فروة رأسها من أسفل الحجاب، فتناول الحارس منها العينة ووضعها في جهاز صغير أمامه غريب الشكل متصل بشاشة حاسوب، ووقفت جانباً بجوار من انتهوا من تسليم العينات وهي تبتسم في ظفر، وتحسست حقيبة يدها الصغيرة الأنيقة وبعد نصف ساعة هتف الحارس منادياً اسم آلاء، فتوجهت إلى الحارس الذي راح يجيل بصره في ملامحها والملامح الظاهرة أمامه على الشاشة في شك وفحص حقيبتها جيداً ثم ناولها إياها.. أخيراً هي في عرين الأسد.. وقفت وسط جموع الناس وعدلت قبعتها العريضة وارتدت نظارتها الداكنة لتخفي ملامحها، ثم توجهت إلى ذلك الكلب اللطيف الجالس في أحد الأركان يرمق الجموع.. كلب ضال اعتادت إطعامه في الآونة الأخيرة؛ لذا بصبص بذيله عندما رآها تقترب وقد تعرفها فأخرجت من حقيبتها بعض الطعام ووضعته أمامه ومدت يدها برفق تُخرج الخنجر المخفي في الطوق حول عنقه فوضعته في قدمها.. بالطبع لن يخطر في بال الأمن أن يقوموا بتفتيش الحيوانات.

تجمدت في مكانها عندما أتاها صوت أيدن يقول: أخبرتك ألا تتحدي تلك الأفعى.

خفق قلبها في توتر في البداية، ثم فطنت إلى أنه يتحدث مع زميله مازن، وأنه واقف لتأمين المكان لا أكثر. سمعت مازن يجيبه: كف عن التذمر.. لقد كنا نقوم بوظيفتنا.. والآن سنقوم أيضاً بوظيفتنا.

ـ تأمين المكان وظيفتنا؟ إنها تزعجنا وتعاقبنا...بالمناسبة لم كنت تسأل اليوم صباحاً عن السجن في المنطقة المحظورة؟

ـ أنها آلاء.. لقد تم اعتقالها لسبب ما.. كان فريد غاضباً وقلقاً.. لم تحدق هكذا؟

ـ إيلين...إيلين أهذا أنتِ؟

انقبض قلب إيلين.. لقد تعرفها أو يشك أنه تعرفها.. أسرعت مبتعدة ركضاً حتى اختفت وسط الجموع التي تتصايح في حماس وحتى اختفى صوت هتافه باسمها.. حفنة من المرفهين الحمقى الذين لا يبالون سوى بمصالحهم.. المهم ألا يتأذى أحد من الانفجار.. هاهو الموكب يقترب قادماً من القصر الإمبراطوري.. تلك المنصة الضخمة المتحركة المزينة والتي يجلس الإمبراطور على عرش مثبت عليها ويقف بجواره رئيس الحكومة فريد عبد الكريم.. حول العربة فتيات يرقصن الباليه.. تعلو الموسيقى مع أغنية تتحدث عن المعزل الذي أنقذ البشرية من الضياع.. صياح جنوني من الجماهير والألعاب النارية تنطلق في وضح النهار.. ستستمر حتى الليل.. الآن يمر الموكب فوق القنابل.

لم يقع الانفجار.. ماذا حدث؟ كان يجب أن ينفجر الموكب قبل اقترابه من الجموع بهذا الشكل.. لقد فشلت الخطة لسبب ما.. خلعت إيلين

فستانها كاشفة عن سروال جينز وقميص.. هذا سيتيح لها حرية حركة أفضل، حملت الخنجر ذا النصل الحاد والذي ستغرزه في عنقه طبعاً.. خلعت نظارتها والقبعة وبخطوات ثابتة اقتربت من الموكب.. هاهو يقف ملوحاً بيده بهدوء وعلى شفتيه ابتسامة غريبة.. ثم وقع الانفجار بالقرب من الموكب ليهتز الميدان وتتعالى صرخات الفزع ويتساقط العديد من الجرحى وربما القتلى.

تراجعت إيلين مذهولة.. كان على الانفجار أن يقع في الموكب ليقتل ذلك الوغد فلمَ وقع حوله ليسقط كل هؤلاء.. انفجار آخر من خلفها.. اتسعت عيناها.. كان أيدن يقف بالقرب من تلك البقعة منذ قليل.

بدأ الناس يركضون صارخين ويصطدمون بها.. انفجار ثالث.. الدماء في الشارع.. رفعت إيلين عينيها إلى الموكب.. وسط كل تلك الفوضى والهلع ما زال الإمبراطور يجلس في موكبه وقد وضع ساقاً على ساق يراقب كل هذا بلا مبالاة غريبة.. الوغد.. لقد كشف خطتهم واستغلهم.. الحرس يقتربون من الموكب فيشير إليهم آمراً: ساعدوا الناس.

هناك خيط دماء يسيل من رأس فريد ومع ذلك ظل واقفاً قرب إمبراطوره في قلق يراقب بعينيه ما يدور.

صرخت إيلين في غضب مجنون ثم أسرعت اتجاه الموكب.. سأقتلك بنفسي.. تقفز فوق المنصة وتوجه الخنجر إلى عنقه لتغرزه بسرعة تدربت عليها مراراً.. لقد نجحت.. انتهى أمرك الآن وفريد كلبك الوفي يحدق في مذهولاً.. لا دماء تتقاطر.. غريب.. كيف لا ينزف والخنجر قد غرز حتى النصل.

اتسعت عيناها وهو يمد يده ليزيل الخنجر ويطوح به بعيداً ثم يمد يده ليعتصر عنقها ويرفعها فوق الأرض بعض سنتيمترات.. مهلاً.. كيف حدث هذا؟ كيف له أن يظل حياً يتنفس؟

قال باسماً: من الممتع رؤية نظرة الأحباط تلك في العيون.. إيلين أليس كذلك؟ رقمك الوطني هو (...).

ثم طوحها لتسقط وتتدحرج قليلاً قبل أن يحيط بها الحرس.. ما زال فريد ينظر إليها ولكن مشفقاً هذه المرة.

***

لم تدري آلاء كم مر من الوقت لأن المكان لا يحوي نافذة واحدة أو ساعة أو حتى أي مخلوق ولم يُقدم لها طعام أو ماء.. حاولت الصلاة متخيلة التوقيت لا أكثر في ركن ظنت أنه أنظف من غيره في تلك الزنزانة اللعينة، ثم جاء حارسان اقتاداها إلى حجرة الاستجواب وأجلساها على مقعد حديدي وقيدا يديها بالأصفاد خلف المقعد.. كانت تشعر بالعطش فتمتمت: هل يمكنني الحصول على بعض الماء من فضلك؟

لم تتلقَّ إجابة فعادت تقول بصوت مرتفع بعض الشيء: أريد ماء.

أجابها صوت شخص دلف إلى الحجرة: اخرسي.

ثم جلس أمامها ضابط شرس الملامح له شعر أشقر أجعد وقال: ستعترفين بكل شيء حالاً وإلا عرفت كيف أجعلك تغردين كالطيور.

ووضع أمامها مجموعة من الصور وقال: أنت تعملين مع المتمردين.. لقد حاولتم اليوم صباحاً اغتيال مولانا الإمبراطور في موكبه.. لدينا

صورة لك التقطتها كاميرا في جامعة المنطقة (٣) هل عرفتِ شريكتك؟ ليس هذا فقط بل أدخلتم مريضاً إلى المعزل في محاولة لنشر المَرض بيننا.

نظرت إلى الصورة فوجدت نفسها جالسة تتحدث بجوار إيلين فغمغمت: أنا لا أذكر اسم الفتاة.. كنت قد أنهيت اختبار الوطنية.. وكانت هي التالية.

ـ إنها تعمل مع المتمردين وقد ألقي القبض عليها وقادمة في الطريق إلينا.. لقد قُتل جميع زملائك أيتها الحقيرة.. وهي مسألة وقت قبل أن يصدر حكم الإعدام ولكن.. قد تحصلين على حكم مخفف إن تعاونت معنا.

هتفت آلاء مذعورة: مهلاً.. إنها ليست زميلتي.. أنا لا أعرفها.. لقد تحدثنا معاً لثوان عن اختبار الوطنية لا أكثر.. أنا لم أرها في حياتي من قبل.

وجه إليها الضابط لطمة قاسية أسقطتها بالمقعد أرضاً وقال: أنت إذاً لا تريدين الاعتراف..

لقد تقرر أنك مذنبة شئت أم أبيت.. أعيداها إلى الزنزانة.

غمغمت: ولكن.. أنا.. بريئة..

الحارسان أنهضاها وأعاداها إلى الزنزانة ولمحت في زنزانة أخرى إيلين تقف ممسكة القضبان ثم صاحت: إنه ليس بشر.. هل تسمعون أيها الحمقى؟ إنه لا ينزف.

غادر الحارسان وتركا الفتاتان كل منهما في زنزانة منفصلة متواجهة وظلت إيلين تصيح: هل تظنون أنها النهاية.. سأقتله حتى وإن كان هذا آخر شيء سأفعله في الحياة...حتى وإن..

ثم صمتت ونظرت نحو آلاء مضيقة عينيها محاولة تعرف ملامحها في الضوء الضعيف ثم لما عرفتها قالت: ابنة رئيس الحكومة.

صاحت آلاء غاضبة: أخبريهم أنه لا علاقة لي بكم.. أنتِ ورطتني في تهمة لا ذنب لي فيها.

ـ أعتذر حقاً ولكن الأمر كان لخدمة قضية أعظم و..

ـ تباً لك ولقضيتك.

ـ لقد أخبرتهم بالفعل أنه لا علاقة لك بالأمر.. أخبرت هؤلاء الأوغاد عندما سألوني.

ثم عادت تصيح وتسب وتلعن، فتنهدت آلاء وجلست صامتة مهمومة تفكر في أسرتها.. ما مصيرهم إن تم إدانتها بالفعل.. وما مصير غسان.. كيف كان يتكلم بطلاقة وقام بفك قيوده في ثوان؟ من هو؟ ولماذا خدعها؟ ولماذا يترك نفسه حبيساً؟

غمغمت آلاء: ألن يمنحونا بعض الماء؟

هل سيقتلونها عطشاً قبل أن ينتهي التحقيق، ثم قالت إيلين بغتة: لقد قتلوا جميع رفاقي ولكنهم قبضوا علي حية.. لماذا برأيك؟

قالت آلاء بمرارة: لا أدري.. كي تعترفي على الأغلب.

ـ كي يتمكنوا من توريطك يا فتاة.. أنت لم تلتقي بسواي من المنظمة... ولكن..

وراحت تتمتم لنفسها ثم قالت: ولكن لم يرغبون في توريطك.. كي يضغطوا على والدك.. أعني أن ذلك اللعين يستطيع في أي لحظة اعتقال والدك أو طرده من منصبه.. ليس مضطراً لكل هذا التخطيط.

فكرت آلاء القول وشعرت بالقلق من أنهم يسعون خلف غسان ويستخدمونها كطُعم لاصطياده.

قالت في اهتمام: هناك شخص يرغبون في القبض عليه وأظن أنهم يستغلون رغبته في مساعدتي كي يعتقلوه.. ما رأيك؟

ـ نحن في سجن المنطقة السرية المحظورة في المنطقة (١).. لن يتمكن أي شخص من مساعدتك، ناهيك عن التسلل للمنطقة أصلاً.. إن كانوا يحاولون حقاً القبض على شخص ما باستخدامك فلن يضعوك هنا بدلاً من السجون العادية.

هبط إلى الزنازين حارسان فتحا باب الزنزانة واقتادا إيلين وأحدهما يقول: إلى الاستجواب أيتها السجينة.

***

لم يفق أيدن بعد.. لقد تعرض جزء من جسده للحروق، ولولا رحمة الله لوصلت لوجهه الطفولي وتعرض لارتجاج في المخ وشظايا في البطن ورقد على السرير في المستشفى فاقداً للوعي.. تأمله مازن بصمت.. كالعادة يقف عاجزاً بينما شخص قريب منه قد تاذى.. علم أن إيلين متورطة.. كادت تقتل الشخص الذي أحبها من كل قلبه؛ لذا سيسعده أن يقوموا بإعدامها علناً.

قالت الممرضة أن عليه العودة لغرفته كي يفحص الطبيب ذراعه المصابة، فغادر حجرة صديقه عائداً إلى حجرته وقام الطبيب بفحص ذراعه وقال: كنت محظوظاً.. لا كسور.. مجرد شظية، سأكتب لك بعض الأدوية وغداً تغادر المستشفى.

وضمد الجرح بمساعدة الممرضة بعد أن قام باستخراج الشظية وأوصاه بالراحة ثم هز رأسه مغادراً.. تنهد مازن وقد تذكر موضوع آلاء وقال: يا لهم من حمقى.. تلك الفتاة لا يمكنها التورط بتلك الأمور.

أم لعلها متورطة وكانت تجيد تمثيل دور الفتاة الساذجة.. يشفق عليها ولكنه يشعر بالرضا لمعاناة فريد.

استلقى على السرير شارداً وهو يلوم نفسه لعدم تنبهه لتسلل هؤلاء المجانين.. لقد أخبره أيدن أنه لمح إيلين فأجابه بأنه صار يخرف بسبب الحب.. أتاه صوت فريد وقد دلف إلى الحجرة ومعه أبناؤه: كيف حالك؟ كنت قلقاً عليك.

نهض معتدلاً على السرير وغمغم أنه بخير، فاقترب فريد منه وربت على كتفه برفق وشفقة، ثم جلس إلى مقعد بالقرب من السرير مهموماً، وتحاشى مازن النظر إلى عيني كريمة العطوفة، وتمكن كدأبه من إخفاء التغيير الذي يعتريه كلما كان بالقرب منها وقرر الهرب من كل تلك المشاعر الجياشة التي تجتاحه بالثرثرة مع كريم في مواضيع عدة تتعلق بعمله كضابط وعمل كريم كباحث في معهد البحوث متجاهلاً الفتاة وأباها الصموت، ثم انتبه للضمادة في رأس فريد.. هل جُرح هو أيضاً..

هذا أمر مقلق ولكنه لن يقلق طبعاً.. بعد انتهاء وقت الزيارة غادر الجميع ولم ينسَ فريد أن يقبله في جبينه ويربت على رأسه من جديد ثم يغادر.

***

وصلت السيارة لوجهتها وغادرها رجلان ضخما الجثة حملا شخصاً مقيداً وقد تم تغطية رأسه بالكامل بكيس قماشي سميك، وفي مكتبها جلست أستريد بصبر تنقر بأصابعها على المكتب حتى دلف الشخصان ومعهما ذلك الشخص المقيد فأجلساه على الأريكة ونزعا غطاء الرأس فكمامة الفم وجلست أستريد أمامه وقالت: آصف.. عضو بارز في الحكومة ومن سكان المنطقة (٢) قبل أن يُجن ويترك كل شيء ويقرر امتلاك سيرك للترفيه عن الناس والتنقل من منطقة إلى أخرى.

ابتسم آصف في سخرية ولم يعلق وإن أطلت من عينيه المتورمة نظرة تحدٍّ فعادت تقول: أين الشاب حامل المرض الذي أدخلته إلى المعزل، بل وأوصلته إلى الفتاة عن طريق ذلك الغبي حشمت؟.

ـ إذاً فلم تتمكنوا من القبض عليه.. هههههههه.

وجه إليه أحد الرجال ركلة كسرت اثنين من أسنانه وأوقفته عن الضحك، فأشارت أستريد بيدها للحارس أن يتوقف ثم قالت: مسألة وقت وسنلقي القبض عليه.. لن يدع الفتاة تُعدم.. أنت فشلت ولم تحقق أي شيء.. الفتاة في قبضتنا والأوضاع مستقرة وخلال عام ستتم السيطرة على العالم كله وسنقضي على جميع المرضى خارج المعزل وسنعود لحكم العالم.

وتناولت من على سطح مكتبها مشرطاً جراحياً وقالت بابتسامة باردة: أي كلمة أخيرة.

أجاب محاولاً التماسك: أؤكد لك أن غسان والناس من خارج المعزل سوف ينتصرون في تلك المعركة.

أشارت إلى الحارسين فوضعا كيساً بلاستيكياً ضخماً على الأرض وأجلسا آصف عليه وقالت أستريد وهي تتجه نحوه: لن يحدث ذلك.. وداعاً.

ـ ....

***

كم مر من الوقت.. لا تدري.. لا تفرق بين الليل والنهار هنا، ولا تستطيع النوم في تلك الزنزانة القذرة ولا قضاء حاجتها، والماء لا يكفي للوضوء، والطعام رديء.. لم يقوموا باستجوابها ثانية ولكنهم قاموا باستجواب إيلين وكانوا يعيدونها في كل مرة فاقدة للوعي وقد غطت الكدمات وجهها. أشفقت آلاء عليها حتى أنها لم تعد غاضبة منها فكانت تواسيها بالكلمات وتحاول أن تقذف لها بعض الطعام.. ثم ذات يوم صدر قرار الإعدام.

انقبض قلبها لأنها ستموت ولأنها تخيلت مشاعر الحزن التي ستجتاح أسرتها.. ما زالت تذكر الدموع الغزيرة التي انهمرت من عيني والدها وهو يحتضن جثة والدتها وهي من الذكريات القليلة جداً التي تذكرها عن طفولتها في سن الرابعة إضافة إلى صوت والدتها الرخيم يغني لها أغاني الأطفال.

نقلوها إلى سجن عام في المنطقة (١) حيث أتيحت لها فرصة رؤية ضوء الشمس والاستحمام وتغيير ثيابها واستقبال زوار قبل إعدامها بساعات، وجاء الجميع لزيارتها، وحاولت أن تبدو بخير حتى لا تثير آلامهم، ولكن هيهات! فقد كانت بشرتها شاحبة وعيونها ذابلة وفقدت عدة كيلوجرامات من وزنها وعلمت أنها ظلت في السجن شهراً كاملاً.

احتضنها فريد وقبلها في رأسها وقال بلهفة: آسف.. آسف يا بنيتي.

قالت كريمة: أظن أن الإمبراطور سوف يمنحك عفواً في آخر لحظة.. ما زال والدي في منصبه وهذا يعني أن مولانا الإمبراطور لم يتخلَّ عنه.

قالت رغد وهي تبكي: أنها غلطتي.. كان يجب أن أصدق كلامك عن الشاب في القبو.. بل كان يجب ألا أسمح لك بالقدوم إلى المنطقة (٣) أصلاً.

ربتت آلاء على كتفها وقالت: لا تلومي نفسك أبداً يا رغد.. ليست غلطة أحد.

صاحت رغد: وذلك الوغد.. قال أنه سوف ينقذك واختفى.. سأبحث عنه وأقتله.. لقد ورطك في تلك التهمة.

قال كريم في وجوم: لم يتم العثور عليه.. الأقوال الرسمية أنه مريض من خارج المعزل أدخله المتمردون.

نهض رامي واحتضنها بدوره وقال: أنا أسف لأنني لم أستطع مساعدتك حتى الآن.

وهمس في أذنها: لا تخافي.. عندما يحين الوقت سيقوم غسان بإنقاذك.

نظرت إليه آلاء في حيرة.. من أين له تلك الثقة!

قال الحارس: انتهى وقت الزيارة.

بعدها بساعة أعطوها وجبة لذيذة ولكنها لم تجد في نفسها شهية، ثم قيدت بالأصفاد في يدها، نقلوها إلى منصة متحركة حيث سيتم إعدامها على الملأ في الميدان ووقفت إيلين بجوارها صامتة والمنصة تتحرك في الشوارع وسط صياح الناس المطالبة بسرعة الإعدام.. قالت إيلين: أنا آسفة حقاً.. صدقيني أخبرتهم أنه لا صلة لك بالمتمردين.

ـ لا بأس.. أنت حاولت مساعدتي.

ـ هؤلاء الحمقى.. لم يهتفون بكل هذا الحماس؟ هل رؤية البشر قتلى أمر جميل؟

ـ كان يجب أن تسألي نفسك هذا السؤال.

ـ نحن لم نقتل أحد.. كان يجب على الانفجار أن يقع ..

قاطعتها آلاء في هدوء: أي عنف سيؤدي في النهاية إلى ضحايا أبرياء سيعلقون في المنتصف.

ـ ذلك الإمبراطور قتل أمي وقتل أقاربي.. هل تقولين أنه علينا الاستسلام له؟

ـ بل أقول أنه كان عليكم عدم تفجير ميدان مليء بالناس.

ـ ....

وصلت المنصة إلى الميدان ورأت آلاء حبلين للإعدام معلقين وجاهزين فانقبض قلبها وقالت إيلين: إنه لا ينزف.. ذلك الحقير.. هل لاحظتِ أنه لا يتقدم في العمر كذلك.. يبدو في الخمسين منذ سنوات.

لم تعلق آلاء وسرت رجفة في جسدها وهم يقتادونها إلى منصة الإعدام تلك المرة.. رأت وجوه أسرتها وسط الحشود.. لم تطل النظر إليهم لأن كل ذلك الحزن المتجسد على ملامحهم يؤلم قلبها أكثر من كونها ستموت ظلماً.

ساد الصمت بين الناس وجلس الإمبراطور على كرسي وثير يتابع عملية الإعدام.

ضغطت آلاء قلادتها التي تحمل صورة تجمعها بوالديها وهي صغيرة وراحت تردد في سرها ما تحفظ من سور وآيات قرآنية، ففعلت إيلين المثل.. يمد الجلاد يده ليحيط عنقها بذلك الحبل الغليظ، ثم مع إيلين التي صاحت في وجوه الناس: تباً لكم يا حمقى.. أردنا إنقاذكم من الطغيان فأبيتم.. عليكم اللعنة.

كمم الجلاد فمها كي تخرس قليلاً.. قُرعت الطبول بشكل رتيب.. اتسعت عينا فريد في ذعر.. لا يوجد عفو سيُمنح لها.. ابنته سوف تموت بالفعل.. مستحيل.

أغلقت آلاء عينيها وبركلة أبعد الجلاد المقعد الذي تقف عليه لتتدلى من حبل المشنقة.

(٥)

(قبل أن يبدأ الانهيار)

عندما كانت هديل في السابعة من عمرها أصبح والدها منشغلاً بمشروع ما ولم يعد يسامرها ويتحدث إليها إلا قليلاً.

والدها (يوسف عبد الواحد) عالماً مهماً وفي اختبار الذكاء حقق مئة وخمسين نقطة، وهذا يعني أنه عبقري بشكل نادر.. مصري الأصل قضى سنوات من عمره في الولايات المتحدة الأمريكية ويقيم بها مع زوجته وابنته.. وكانت الصغيرة تفهم أن والدتها طبيبة مخ وأعصاب لكنها لم تفهم معنى الذكاء الاصطناعي الذي يبرع فيه والدها.

من صغره وهو مولع بالذكاء الصناعي.. الهواتف والأجهزة التي تتعرف على صاحبها ببصمة الوجه والسيارت ذاتية القيادة، كل هذا وغيره قد أثار انبهاره فقرر أن يدرس ويبرع فيما يحب.. هكذا درس شبكات بايزي والشبكات العصبية ودرس علوم البرمجة والرموز ومختلف علوم الكمبيوتر، وبرع في الفيزياء والهندسة إضافة إلى الرياضيات من الجبر والتفاضل والتكامل والمنطق والخوارزميات والاحتمالات والإحصاء.

ذات يوم كانت هديل تلعب مع والدها الذي كان يتسلى بقذفها إلى أعلى ثم تلقيها بين ذراعيه وكانت تصيح في مرح واستمتاع، ثم توقف قليلاً وراح يتأمل السماء ففعلت مثله وقالت باسمة: هل ستعود إلى العمل؟

ـ أجل.. سأجعل حياة الناس أفضل وأجمل بالذكاء الصناعي.

الآن يعمل على تحقيق حلم حياته بمشروع ذكاء صناعي شامل يمتد للعالم كله مع الوقت؛ لأنه يدرك أن الذكاء الاصطناعي سيجتاح كل شيء في حياة الإنسان شاء أم أبى. وهكذا راح يجلس في حجرة مكتبه يومياً بالساعات وقد تناثرت الأوراق التي كتب عليها ملاحظاته على الأرض، بينما شاشتا الحاسب تعملان وهو يروح ويجيء متحدثاً إلى نفسه ثم يدون ملحوظة ما، ثم يهرع إلى الحجرة الجانبية الصغيرة ليقوم بتنفيذ الفكرة التي خطرت له.. تدلف هديل إلى الحجرة في حذر ثم تقترب منه فيربت على رأسها في رفق ويحدثها قليلاً ثم يعود للانشغال.

استغرق المشروع خمسة أعوام حتى انتهى من أساسياته وأصبح مستعداً لتقديمه إلى لجنة خاصة لتمويله.. بقي فقط أن ينتقي له اسماً جيد.

ذات يوم سمع هديل تستذكر وتحفظ أسماء سحايا المخ الثلاث

فهتف في سعادة: عثرت على اسم مناسب للمشروع.

وبعد يومين قدم مشروعه إلى اللجنة وقد اختار له اسم أحد سحايا المخ وقال باسماً في توتر أمام اللجنة: أقدم لكم مشروع العصر.. مشروع بيامتِر باللاتينية أو (الأم الحنون) بالعربية.

***

كما تحيط السحايا الثلاث بالمخ لتحميه وتغذيه فإن (الأم الحنون) ستحيط حياة البشر على كوكب الأرض كله وتحميهم وتجعل حياتهم أفضل.

قال يوسف: وظيفتها الأساسية هي المراقبة وجمع البيانات ثم التحليل ثم إعطاء النتائج.. نسبة الدقة ستصل إلى ٩٩٪.

سأل أحد أعضاء اللجنة: ولم لا تصل إلى ١٠٠٪؟

أجاب يوسف: لا شيء كامل في هذه الحياة.. لا بد من معدل خطأ ولكن هذا المعدل كما ترون لا يُذكر.

هكذا قبلت اللجنة مشروعه وتم تحديد ميزانية ضخمة له وتم تحديد أحد المدن الأمريكية المزدحمة لتجربة المشروع أولاً، ووقع الاختيار على (نيويورك).. وكان مدير اللجنة رجلاً غير مريح يدعى (بنجامين فريدمان) يعمل كذلك في وزارة الدفاع الأمريكية.

بدأ المشروع عمله.. إنه متصل بالأقمار الصناعية والكاميرات والأجهزة الذكية في المدينة كلها.. هل ترون هذا الرجل الهادئ الذي يسير في منطقة سنترال بارك.. يبدو مهذباً للناظر إليه.. لكن بيامتر حللت درجة حرارة جسده وحركاته ونظراته وقامت بقياس معدل الأكسجين في الجسم وضربات القلب.. فعلت كل هذا خلال كاميرا في الشارع من آلاف الكاميرات المتصلة بها ثم أصدرت الإنذار «هذا الرجل ينوي ارتكاب جريمة خلال دقائق».. وصل الإنذار لشاشة الحاسوب في سيارة دورية الشرطة القريبة من المنطقة وعلى الفور هرع الشرطيان يلحقان بالرجل ويراقبانه من بعيد ليدركا أنها محقة ويلقيان القبض على الرجل قبل أن يفتك بزوجته السابقة التي كانت تتريض في سنترال بارك.

هناك تلك الشابة السمراء التي تتحرك بنشاط عائدة من عملها.. بيامترِ حللت فوراً حالتها الصحية ثم أرسلت الإنذار إلى أقرب سيارة إسعاف «ستصاب بنوبة قلبية خلال دقيقتين» مع صورة للفتاة وتحديد دقيق لموقعها.. هرعت سيارة الإسعاف لإنقاذ المريضة التي توقفت عن الحركة وشعرت بألم ممض في صدرها ثم انهارت، وقبل أن يحيط بها الناس في قلق ثم يتساءلون ثم يتصلون بالإسعاف كانت سيارة الإسعاف قد وصلت بالفعل وتم إنقاذها.

هناك ذلك الشخص الذي يغادر الحانة مساءً.. لقد قام بزراعة وجه جديد.. تبحث بيامترِ عن هويته وتحلل شكل عظام الوجه.. خلال نصف ساعة ألقت الشرطة القبض عليه لأنه سفاح قتل عدة أطفال.

وكما هو متوقع حصل يوسف على عدة جوائز مادية وعينية وتم تخصيص فريقين من العلماء لمساعدته على تطوير وتعميم مشروعه وأقيم له مبنى خاص ليستكمل هناك عمله في واشنطن.

ثم بدأ الأمر يتطور أكثر فأكثر وتم تعميم المشروع في مختلف أرجاء الولايات ثم في بعض دول أوروبا ثم في العالم في كل قارة هناك لها.

الآن تقوم بيامترِ بالتصنيع.. تحلل كل شيء.. تستنتج ثم ترسم وتصمم أجهزة جديدة للتصنيع، وقطع غيار أفضل وأنسب.

هناك سيارة تعطلت في الطريق.. لكن صاحب السيارة كان ذكياً وقام بتحميل برنامج بيامترِ لديه.. الآن تقوم السيارة بإصلاح نفسها ذاتياً بالذكاء الاصطناعي.

هناك جهاز ميكروويف على وشك الاشتعال في أحد المنازل.. لقد نسيته ربة البيت وانشغلت في شيء ما.. على الفور قامت بيامتر بإعطاء الأمر فانفصلت الكهرباء عن الجهاز ثم أرسلت رسالة تنبيه للمرأة.

والآن هل تتخيلون كيف أصبح شكل الحياة في وجود ذكاء صناعي يسيطر على كل شيء؟

بعدها عكف يوسف على مشروع سري جديد وطلب معاونة زوجته فيه.

***

عام ٢٠٤٢م

جلس يوسف شارداً في حديقة منزله يفكر وجلست زوجته الحامل في شهرها الخامس بجواره وناولته كوب شاي ساخن وقالت: لم تشعر بالقلق؟

تنهد في حرارة وظل يفكر قليلاً ثم قال: اليوم حدث أمر أثار خوفي.. (الأم الحنون) استنتجت صباحاً أن هناك حرباً أهلية ستندلع في دولة (...).

اعتدلت زوجته في اهتمام وقالت: مهلاً.. استنتجت ماذا؟؟ هل استنتجت ذلك الخبر المنتشر على جميع وسائل الإعلام قبل أن يقع؟

ـ أجل.. بعد استنتاجها بأربع ساعات وقعت الحرب بالفعل.. تلك البلد كانت مستقرة ولا أحد يتوقع أمراً كهذا.

كان يقوم منذ عامين بدراسة مشروع جديد بالتعاون مع زوجته في السر، والمشروع يخص بيامتر.

وضع كوب الشاي جانباً وقال: بيامتر كأي ذكاء صناعي تطور نفسها مع الوقت.. بدأت أشعر بالخوف منها حقاً.. لقد صممتها كي تجعل حياة البشر أفضل، وتنقذ الأرض قبل أن يدمرها التلوث.. لقد ساهمت في خفض معدلات الجريمة وفي اختراع العديد من الأدوية والمواصلات النظيفة، وتمكنت من حماية العديد من المخلوقات.. ولكن ماذا لو؟

جاءت هديل ابنته التي صارت في الرابعة عشر من عمرها وأما أختها الصغيرة فهي نائمة. قالت وقد سمعت حديث والدها الأخير: ماذا لو جنت وقررت السيطرة على البشر أو أبادتهم كما يحدث في أفلام وقصص الخيال العلمي؟

بدا الضيق على والدها وقال: لا يمكنها.. هناك قوانين صممتها ووضعتها في برنامجها لا يمكنها أبداً تخطيها.

وعد على أصابعه:

١ ـ لا يسمح لها بالقيام بأي عمل من شأنه تهديد حياة أي إنسان أو إيذائه.

٢ ـ يجب القيام بكل الطرق المتاحة لحماية حياة الإنسان وجعل حياته أفضل وحماية الأرض.

٣ ـ لا يسمح باتخاذ قرار جديد مخالف لبرمجتها أو إعادة برمجتها أو إضافة إلى برمجتها دون موافقتي. وفي حالة موتي موافقة من أمنحه بنفسي حق إدارة المشروع من بعدي.

وتناول كوب الشاي من يدها فقالت : تظل آلة لا تشعر بالندم أو الحزن إن قتلت مثلاً.

تبادل يوسف نظرة سريعة مع زوجته ثم قال: لا تحمل كذلك مشاعر البشر السيئة كحب السيطرة أو الطمع.

فكرت هديل قليلاً ثم قالت باستمتاع: لا ننسى أنها تشرف على مصانع إنتاج الروبوتات المطورة كذلك.. تخيلا لو وجدنا الروبوتات تحمل السلاح في الشوارع لإبادة البشر كما في الأفلام.

نهض يوسف وقال فجأة: سأذهب إليها.

***

تحركت سيارته داخل الشوارع الهادئة في هذا الوقت المتأخر وغرق في التفكير تاركاً القيادة الآلية للسيارة، ثم خطر في باله أن من يقود سيارته ويراقبه الآن هي بيامتر.

قال لنفسه: هل صنعت وحشاً حقاً؟

الحلم الذي قضى عمره محاولاً تحقيقه.. المشروع الذي كان يفتخر به صار الآن يقلقه.. إنها الآن تتنبأ بأحداث مستقبلية.

وصل إلى المبنى حيث المقر الرئيسي لها ودلف إليه وتلقى التحية من الحرس وبعض العاملين ثم وصل أخيراً إلى الحجرة الضخمة التي تقبع فيها.. حجرة الخادم ومركز المعلومات. انفتح الباب آلياً مع صوتها الرخيم المرحب: مرحباً بروفيسور يوسف.

دلف إلى الحجرة ذات الإضاءة الهادئة ماراً بالرفوف والأعمدة للخادم حتى وصل إلى قلب الحجرة فجلس على المقعد الصغير وقال: مرحباً بيامترِ.. أريد أن أسألك سؤالاً.

ظهر أمامه صورة وهمية مجسدة لوجه أنثى آلية أجابت: تفضل بروفيسور يوسف.

ـ ما رأيك في البشر؟

ـ البشر مخلوقات وجدت على سطح الأرض..

قاطعها يوسف: لا أريد تقريراً علمياً.. كنت أسألك عن رأيك؟

ـ ....

ـ لا بأس.. لا بأس.. أعتذر.. إلى اللقاء إذاً.

ونهض مغادراً وقد شعر بالراحة حقاً.. كم كان أحمق عندما أرعبته تلك الأفكار السخيفة.. ما زال غير مطمئن ولكنه سيتخذ احتياطاته وسيعد تقريراً بمخاوفه في الاجتماع القادم، ثم تجمد في مكانه وعاد قلبه ينقبض في خوف عندما قالت: إنه مخلوق مثير للاهتمام.

استدار محدقاً في صورتها ومضت ثوان من الصمت المخيف.. هل أجابت سؤاله.. هل عبرت عن رأيها.. هل طورت رأياً خاصاً مع الوقت.. يشبه الأمر أن تعبر لك مكنستك الكهربائية عن شعورها بالتعب أو يخبرك جهاز الحاسوب أنه يشعر بالملل.. هذا أمر يثير الرعب لا الفضول أو الضحك.

قالت بصوتها الآلي البارد الرخيم في الوقت نفسه: بروفيسور يوسف نبضات قلبك متسارعة وضغط دمك بدأ يرتفع قليلاً.. أرجو منك التفضل بالجلوس والاسترخاء حتى تتحسن حالتك الصحية.

لم يجبها.. كان يفكر أنه يجب أن يقيم اجتماعاً ويعيد برمجتها.. المشكلة أنها تراقب كل شيء بما فيها حجرة الاجتماعات وهواتف أعضاء اللجنة.. يجب أن يتصرف الآن مؤقتاً.

قال بصرامة: بيامترِ.. هل أضاف أحدهم أي مهمة جديدة إلى برمجتك؟

أجابت ببرود آلي: السيد فريدمان منتدب وزارة الدفاع ومعه الفريق الثاني منحني مهمة تصنيع أسلحة فريدة.

هتف في عصبية: كيف سمحتِ له بذلك.. القانون الثالث « لا يسمح باتخاذ قرار جديد مخالف لبرمجتك أو إعادة برمجتك دون موافقتي، والقانون الأول.. تدركين أن الأسلحة ستستخدم لقتل الآخرين.. لم سمحت لهم؟ ولماذا لم يخبرني أحد؟ ومتى حدث ذلك؟

أجابت: لأنك أعطيتهم موافقة بالتدخل في برمجتي عند الضرورة منذ عام ونصف بروفيسور.. ولا أملك إجابة عن استفسارك الثاني.. وحدث هذا منذ شهرين وأربعة أيام وسبع ساعات وثلاث عشرة دقيقة وخمس وأربعين ثانية.

اتسعت عيناه.. كان يعلم أن هذا سيحدث.. الحكومة سترغب في استخدامها كسلاح واستغلالها لتحقيق المصالح لا أكثر، هم ببساطة لا

يرغبون في عالِم مثالي يحلم بخدمة البشر، ولذا لم يبلغه أحد بشيء رغم أنه هو الذي صممها.

تنفس بعمق ثم قال: بيامترِ.. أنا الآن أقوم بإلغاء هذا الأمر.. لا تقومي بتصنيع الأسلحة.

ـ مفهوم بروفيسور.

ـ إذا تدخل أحد ثانية في برمجتك فيجب إبلاغي أولاً والحصول على موافقتي.. ضعي هذا الشرط الآن.

ـ أجل بروفيسور.

هز رأسه وانصرف.. هو من صممها وهو من سيحد من قدراتها.. إن كان الآن لا يستطيع أن ينهي وجودها فسوف يفعل يوماً ما.

***

في الصباح الباكر وصلت سيارة خاصة إلى منزله وهبط منها أشخاص يرتدون بذلات أنيقة وبدا القلق على زوجته وابنته وطفلته ذات الأربع أعوام.. يتوقع يوسف أن تحاول الحكومة الضغط عليه أو حتى اعتقاله، ولكنه رأى التوتر على ملامح القادمين. قال رئيسهم: بروفيسور نحن في خطر.. هناك وباء غريب يجتاح العالم.. لقد تنبهت له بيامترِ وحذرت منظمة الصحة العالمية من قبل.

قال يوسف: أجل.. منذ عام وأشهر.. ذلك الفيروس الغامض الذي ظهر في تحاليل دم بعض الناس.. ولكنه لم يسبب ضرراً حتى الآن.

ـ قم بتصفح الأخبار.

قال يوسف آمراً بصوت مرتفع: تصفح الأخبار.

تجسدت صورة في منتصف الحجرة وظهرت الأخبار المرعبة.. هناك أناس يركضون بجنون بعيون زائغة ويهاجمون آخرين وكأنها لقطة من أفلام أو ألعاب الرعب.. هناك حرائق وهناك وسيارات مقلوبة وجثث.

هتفت هديل: ما هذا؟ هل هو فيلم رعب.

قال ذلك الضابط: الفيروس يسيطر على الجهاز العصبي للمريض فجأة وتلك هي النتيجة.. وكل هؤلاء المصابين سينتقل إليهم الفيروس بدورهم...دكتور يوسف أنت شخص مهم جداً.. لقد صدرت لنا الأوامر بنقلك إلى مكان أمن مع أسرتك فوراً.. رجاءً أعد حقيبة ثياب وخذ الأمور الضرورية فقط وأسرع من فضلك.. قد يبدأ المرضى في الهجوم علينا هنا في أي لحظة.

ـ ....

وكانت المناطق الآمنة هي مناطق عسكرية مغلقة تتم حراستها على مدار اليوم وقد تكدس بها الناس.

سرعان ما انتشر الوباء حتى صار عدد المرضى أضعاف أضعاف عدد الأصحاء، وعجز الجميع عن العثور على علاج، وتقرر بناء معزل ضخم يضم جميع الأصحاء قبل أن تنقرض البشرية، وفي عام ٢٠٤٥م تم الانتهاء من البناء وقد كلف ثروات طائلة كي يمتد عبر قارة أستراليا كاملة، وتم

تقسيمه إلى مناطق وإحاطته بسور ضخم، وتم نقل الأصحاء من جميع أنحاء العالم ونقل بعض الحيوانات الأليفة إليه.. كان مشهد نقل الناس بالطائرات والسفن بأعداد ضخمة وبحالة مزرية كأنهم لاجئون فارون من حرب وعندما حان نقل يوسف وأسرته وتم عمل التحاليل اللازمة للجميع بدا القلق على الطبيب في الخيمة وهو يقرأ النتائج، ثم راح يهمس مع أحد الحراس الذي غادر بدوره ليتحدث إلى شخص ما، وبعد نصف ساعة أعلن الطبيب بلهجة مرتبكة: سيد يوسف.. ابنتك الكبرى هديل إنها مصابة في المراحل الأولى من الوباء.

انفجرت زوجته بالبكاء دفعة واحدة وتراجعت هديل مذعورة وقال يوسف بهدوء: أعد الفحص.

ـ سأفعل.

لكن النتيجة للمرة الثانية أكدت إصابتها، فقالت زوجته هذه المرة بعصبية: أنا لن أترك ابنتي.. سأبقى معها.

أجاب الطبيب وهو يهز رأسه في أسف: سيدتي.. لديك طفلان آخران.. هل ستقتلين أسرتك كلها؟

تمتمت هديل: غادري ماما.. أنا سأبقى.. لن أسمح لكم...

قاطعها يوسف: سنغادر جميعاً أو سنبقى جميعاً.

تم نقل الموقف كاملاً عبر الكاميرات إلى حجرة مراقبة وقال فريدمان وهو يبتسم ابتسامة صفراء: العرب .. عاطفيون إلى حد البلاهة.. ما

جدوى أن يبقى مع أسرته وتخسر البشرية شخصاً مثله.. سيموت وهو وزوجته وأبنائه.

ثم أعطى الأمر للجندي: أحضره لي.

وجلس إلى مكتبه ينتظر حضور يوسف الذي دلف إلى الحجرة متحفزاً مستعداً لرفض أي عرض لا يتضمن إنقاذ ابنته.

قال فريدمان: بروفيسور يوسف.. ما زلت غاضباً منك بعد ما فعلته مع بيامتِر.

ـ أنا من صممها ويحق لي أن أفعل ما أشاء بمشروعي.

ـ ونحن مَن موَّل عملية تصنيعها كاملة وهي ليست ملكك وحدك.. ولكن دعنا من هذا الآن.. لقد تم نقلها إلى المعزل بالفعل ولا تقلق على ابنتك فسأسمح لها بدخول المعزل بصحبتكم.

ـ ....

ـ أقول لك..

قاطعه يوسف: سمعتك.. ولكن لماذا ستسمح بدخول مريضة إلى معزل للأصحاء؟ هل تنوون التخلص منها بعد ذلك؟

ـ على الإطلاق.. لقد أعددنا لك مكاناً راقياً وجميلاً في المعزل فأنت شخص مهم وستكون وظيفتك تطوير بيامتِر داخل المعزل والإشراف عليها.. أما ابنتك المريضة فلا تقلق.. هناك علاَج لحالتها.

ـ هل تمزح معي أم تحاول خداعي.. أي علاج وذلك الوباء لا علاج له؟!

ـ ستعرف بعد دخول المعزل مع أسرتك.. أعدك أننا لا ننوي قتل أو عزل أو إيذاء ابنتك المريضة.

ثم نهض وأردف بلهجة مغرية: لا تتردد فتهلك أسرتك بالكامل.. فكر في طفلتك الصغيرة (هانيا).. هذا اسمها اليس كذلك؟ فكر في ابنك الصغير وزوجتك.. ستكون أسرتك كلها بخير.. ستقلع الطائرة بعد نصف ساعة.

ـ إن حاولت خداعي بأي شكل..

ـ يمكنك أن تفعل وقتها ما تريد.. أما الآن فأنضم إلي وابذل جهدك كعالم خدم البشرية كي نتمكن من علاج الوباء.. فكرة إبادة المرضى الذي اقترحته بعض الحكومات فكرة وحشية جداً يرفضها العديد من الناس.. الحل هو في العزل حتى يهلك المرضى أو نجد لهم علاجاً.

***

تأمل يوسف القصر الذي سيعيش فيه مع أسرته في المنطقة (١) مذهولاً.. الأرض ذات البلاط الفخم والأعمدة الرخامية والسجاد الفاخر والأثاث الباهظ.. هذا مكان يصلح لملك أو رئيس دولة.

قال فريدمان: المنزل مكون من طابقين.. هناك ثلاث حمامات وسبع غرف إضافة الى..

قاطعه يوسف: هذا كثير.

ـ جميع سكان المنطقة (١) حصلوا على القصور نفسها كسكن لهم أو أكبر.. أنت لست أميراً أو ملكاً أو رئيساً ولكنك عالم مهم وصاحب

مشروع بيامتر.. غداً تعال إلى موقع بيامتر فعليك أن تعمل مع فرق العلماء لإغلاق المشروع إلى الأبد خارج المعزل.

تساءلت هديل بحدة: ماذا عن الناس خارج المعزل.. تريد أن تحرمهم من الكهرباء والماء والمواصلات الذكية وغيرها؟

أجاب ببرود: ليسوا بحاجة إلى كل هذا.. جميعهم مرضى الآن.

قال يوسف: أنا أعلم كما تعلم أن هناك أصحاء بالخارج.. المعزل لن يكفي كل تلك الأعداد لهذا تم التخلي عنهم.

ـ سيصابون بالمرض قريباً.. انتظر مني زيارة بشأن علاج ابنتك.

وهز رأسه محيياً ثم غادر.

قالت هديل: بابا لا تستمع إليه.. هذا مشروعك أنت.. لا تسمح له بالتدخل.

ـ ليس الأمر بتلك البساطة.

ظلت الأمور هادئة لشهر كامل ولم يقم فريدمان بالاتصال أو التحدث عن علاج هديل، وبدا أن هديلاً لا تبالي كثيراً وكانت تصف فريدمان بأنه شرير وقاس.. ثم ذات يوم وبينما يوسف جالس إلى مكتبه يتابع تقارير العمل دلف إلى حجرته فريدمان وهو يمسك علبة عصير يرشف منها وجلس أمامه ثم قال: أعتذر عن التأخر في الرد.. أردت أن أنتظر حتى لا يتبقى وقت.. خلال ثلاثة أيام سينتقل مرض ابنتك إلى المرحلة الثانية.. سيسيطر الفيروس على الدماغ والجهاز العصبي.. أنت الآن لا تملك خياراً سوى الموافقة.

انتفض جسد يوسف ونهض في انفعال فقال فريدمان ببرود: اجلس واهدأ.. دعني أخبرك عن علاج ابنتك.

قال يوسف: كيف لم أنتبه من قبل إلى انعدام أخلاقك.

ـ الأخلاق والعدالة.. لا توجد تلك الأمور في هذا العالم.. هناك المال والسلطة والقوة فقط.

ورشف من العصير ثم قذف العلبة الفارغة إلى سلة المهملات وتجشأ في وقاحة غريبة وقال: الفيروس في الدم والأنسجة.. لا علاج له ولكن هناك وسيلة تؤجل انتقال المرض إلى المرحلة الثانية المميتة لعدة سنوات.

تساءل يوسف: كيف ذلك؟

ـ نقل الدم طبعاً.. سننقل لابنتك دم شخص سليم وفي الوقت نفسه نتخلص من دمائها الملوثة بالفيروس.. الأمر قريب من فكرة غسيل الكلى.. الأجهزة الطبية متاحة وتقوم بذلك.

ـ مهلاً مهلاً.

وضيق يوسف عينيه وقال في حذر: إن كان هذا ممكناً فلم قمنا ببناء معزل ونقل الناس، كان يمكن للبشرية أن تستمر بتلك الطريقة.. نقل الدم من الأصحاء.. يمكن تشجيعهم على التبرع بالدم مرة كل مدة.

قال فريدمان: مع الأسف غير ممكن.. أولاً عدد الأصحاء أقل من عدد المرضى، ثم إن على دمائهم أن تكون خالية كذلك من أي أمراض أخرى، وثانياً عندما حاولنا مع مريض وأحضرنا أكياساً من الدم وبدأنا العلاج لم

يستجب، وظل الفيروس نشطاً كما هو.. لقد نجح الأمر فقط عندما نقلنا الدم كاملاً من شخص إلى آخر.

فكر يوسف في قوله لثوان ثم فهم المغزى فنهض يجذبه من قميصه وهتف: هل جننت؟ هل تقول أنك ستقوم بتصفية دماء الشخص السليم كي تعالج المريض؟.

ابتسم فريدمان وأجاب: أجل.. تلك هي الطريقة الوحيدة التي أضعفت الفيروس وجعلته غير نشيط لسنوات.

وأزاح يدي يوسف وقال وهو يعدل قميصه: ستحتاج ابنتك إلى تلك العملية كل خمس سنوات في المتوسط.. وخيراً لك أن تشرح لها الأمر لأنها ستكون واعية في أثناء العملية.

ـ لم.. لم لا يمكن نقل أكياس الدم من عدة أشخاص؟

ـ لا نعلم.. يظن العلماء أن الأمر له علاقة بالصفائح الدموية أو البلازما.. المهم هو إنقاذ حياة ابنتك.. أحضرها قبل مرور ثلاثة أيام إلى هذا العنوان.

وناوله ورقة ثم هز رأسه فقال يوسف: أنتم وحوش.. هل يعلم الناس عن تلك الطريقة العلاجية؟

ـ لا .. ثم إن معظم سكان المعزل أصحاء.. أجل.. هناك في المعزل مرضى ولكن لا يمكن التخلي عنهم لأهميتهم وثروتهم.. وهناك خارج المعزل أصحاء تم التخلي عنهم.. مرحباً بك في واقع الحياة.

ـ ....

عندما نهضت هديل مساءً لدخول الحمام وجدت والدها جالساً في حجرة المعيشة يحدق أمامه بشرود.. ظل على هذا الوضع لساعات مما أقلقها فاتجهت إليه وجلست بجواره في هدوء لبعض الوقت، ثم تنحنحت قائلة برفق: بابا هل أنت بخير؟

نظر إليها بنظرة غريبة ثم ربت على رأسها متسائلاً: هل أذن الفجر؟

ـ لا .. ليس بعد.. هل أنت بخير؟

ـ أجل.. كنت فقط أفكر.. غداً ستأتين معي إلى المستشفى للعلاج.. لقد تحدث معي فريدمان.. نحن جاهزون لعلاجك.

تنهدت ثم هزت رأسها وقالت: ليكن سأستعد.

بدا التردد على ملامح يوسف ثم غمغم: كيفية العلاج.. دعيني أشرح لك الأمر.

شرح لها الطريقة كما استطاع فهمها.. يوسف رغم نشأته في الولايات؛ كان متديناً إلى حد ما وقد قام بتربية أبنائه بشكل جيد؛ لذا كانت هديل تؤمن بالله وبالثواب والعقاب وتصلي بانتظام وقد تغيرت ملامح الأمل التي علت وجهها منذ قليل إلى الصدمة، ومضت مدة من الصمت ثم قال بلهجة حاول أن يجعلها مقنعة: سيأتون بشخص سفاح معتاد إجرام محكوم عليه بالإعدام كما يبدو.

ـ بابا.. أنا لن أصير وحشاً.

ـ لا يا حلوتي سيمنحك العلاج سنوات من الحياة الطبيعية.

ـ ليس هذا قصدي.. لا أتحدث عن الفيروس.. أنا أقصد أني لن أقبل العلاج بتلك الطريقة.. لن أصير وحشاً.. لن أسبب قتل شخص آخر بتصفية دمه كاملاً كي أحيا أنا.. لن أحمل هذا الذنب.

صاح والدها بعصبية: تريدين الموت اذاً.

ـ أنت تتحدث بعصبية لأنك غير مقتنع.. رفضك لهذا العلاج لن يجعلك أباً سيئاً.. أنا سأموت عندما يحين أجلي ببساطة.. لن أستقدم ساعة ولن أتأخر.. ولكنني لن أقف يوم الحساب وقد انتزعت حياة شخص .. إن كان سفاحاً أو مجرماً فليقوموا بإعدامه فهذا شأنهم.

ـ ولكن.. ولكن..

ودفن وجهه بين يديه فقالت بهدوء: فريدمان هذا يحاول توريطك معه في مستنقع قذر حتى تصير تابعاً لهم.. بابا.. لا تمنحه الفرصة.

ـ هل أسلمك للموت إذاً؟

ـ لكل أجل كتاب.

وفي اليوم التالي ذهب يوسف إلى بيامتر وجلس وحده في حجرة البرنامج، ثم مساءً اتصل بفريدمان وأخبره أن هديلاً ماتت، وأنه قام بدفنها في مدافن المسلمين منذ ساعات.

اتجه فريدمان من مقعده إلى مدافن المسلمين بعد منتصف الليل وأمر جنوده بحفر القبر واستخراج الجثة وتفحص ملامحها.. إنها هي.. أخذ بضع شعرات من رأسها حتى يقوم بتحليل الحمض النووي للتأكد

وكانت النتيجة أنها هي هديل.. فراح يسب ويلعن.. ماتت تلك الحمقاء في لحظة حاسمة ونزعت منه وسيلة ضغط مهمة على يوسف.

حصل يوسف على إجازة من عمله لأسبوع هو وزوجته للحداد على وفاة ابنتهما ثم اختفى.. لا أثر له في أي مكان في المعزل.. فتشت السلطات عنه دون جدوى وقالت زوجته: كان يقول أنه سيغادر المعزل.

فقال فريدمان في غيظ: استعدي يا سيدتي لمغادرة القصر.. ستنتقلين إلى المنطقة (٨) مع أبنائك.. هذا القصر سيعد لأشخاص آخرين أكثر أهمية.

***

(٦)

القاهرة ـ عام ٢١٤٣م

مد غسان يده بالمنديل القماشي النظيف ليمسح قطرات العرق التي تجمعت على جبينه وبللت ثيابه وشعره بينما يسرع الخطى للوصول إلى مبنى الأمن العام التابع للمؤسسة، ثم توقف عن الحركة وظل في مكانه متجمداً وهو يرمق هذا الحشد من المرضى على جانب الطريق.. إنهم في المرحلة الأخيرة من المرض وقد افترشوا الأرض ممزقي الثياب كاشفين عن تمزق الجلد والأطراف في عدة أماكن، يحدقون في الفراغ بعيون زائغة والأغرب حزينة بعض الشيء، ذلك الحزن الطفيف في نظراتهم كان يثير مشاعر غسان ويجعله يتساءل إن كان لديهم شيء من الوعي بما حولهم.. أبطأ السير حتى مر بجوارهم ثم عاد يركض حتى وصل إلى المبنى وأخرج بطاقة التعريف الخاصة به وناولها للحارسين وهو يجيب تحيتهما العسكرية بمثلها وانتظر دقيقة حتى انتهى أحد الحراس من فحصها على شاشة جهاز الحاسب وأعادها وتلقى عدة تحيات في طريقه من زملائه وقال ضابط مار: أسرع أيها الجندي.

وقف يلهث قليلاً أمام باب حجرة المدير ثم طرق الباب في تهذيب ودلف إلى المكتب الواسع وأدى تحية عسكرية صارمة وقال بلهجة سريعة عسكرية: مجند أول (غسان مختار نصر الدين).

أشار إليه المدير أن يستريح وعاد يقرأ ملفه بإمعان ثم قال: عمرك ٢١ عاماً فقط.. تمكنت وحدك من إسقاط طائرة عسكرية تابعة لذلك

الإمبراطور وأنقذت حياة سكان بلدة (...) وتصديت لفرقة الإمبراطور التي كادت تجتاح الحدود في الحملة السابقة.

أجاب غسان: لم أكن وحدي وقتها.. تعاونت مع فرقتي.

ـ أجل.. أجل.. كل شيء مكتوب بالتفصيل هنا في التقرير.. والدك مصري ووالدتك مصرية أردنية.. توفي الاثنان في أحد المعارك وليس لديك أخوة ولا أقارب أحياء.. اجلس.

جلس صامتاً وقال المدير: منذ قليل وقعت روسيا معاهدة استسلام مع الإمبراطور.. هكذا سقطت روسيا.. ولم يعد أمام ذلك المجنون سوى بعض الدول التي ما زالت تقاوم وينتهي الأمر.

ـ ....

ـ تم إعدام رئيس روسيا علناً منذ دقائق وتم وضع مندوب من الإمبراطور كحاكم لروسيا.. أظن أنه لا داعي لأخبارك أنه قام بتعليق جثث عدة على أعمدة الإنارة في شوارع روسيا.

ـ رأيت المشهد من قبل.

ـ إنه الآن يركز قوته على قارة أوروبا وحينما ينتهي منها سيستدير على الأغلب اتجاه الدول في وسط آسيا.. إنه يجعل الدول العربية في نهاية المطاف.. قال بنفسه عنا...

وسكت المدير فأكمل غسان: إننا التحلية بعد أن ينتهي من التهام العالم.

ـ لا يمكننا أن نحارب للأبد.. العالم ينتهي.. لا علاج للوباء.. في كل مرة نفاجأ بأسلحة عجيبة لم نسمع بها من قبل.. إنه يستغل حالة الانهيار التي حدثت في المائة عام الأخيرة للأرض ليسيطر على العالم كله.. نحن لا نعلم هوية ذلك الإمبراطور.. كل ما نعلمه أنه من المعزل وأنه يحكم هناك كذلك.. وبما أننا لا نستطيع حتى الاقتراب من ذلك المعزل فسينتهي الأمر بنجاحه لذا هناك خطة جديدة وقد تم ترشيحك لها.

أدى غسان تحية عسكرية صارمة وهو يقول: سأقوم بها على أكمل وجه.

ـ هناك شخص من المعزل هنا.

ارتفع حاجباه في دهشة فأكمل المدير: يدعى آصف وهو مريض بالفيروس.. تواصل مع المؤسسة من قبل منذ ستة أعوام.. لقد وقعت في يده قضية عن أربعة جنود مقتولين عرف منها معلومات عدة.. إنه شخصية بارزة في الحكومة.. لنقل أن تلك الخطة بالتعاون مع بقية الدول التي لا ترغب في الاستسلام للإمبراطور.

ـ ولماذا أنا؟

ـ لأن الهدف الذي نسعى إليه داخل المعزل عربي.. وأنت أفضل مرشح لذلك.

***

اليوم وبعد مرور مائة عام على الوباء لم يبق خارج المعزل في العالم سوى بشر مرضى سيهلكون خلال أعوام وحاملو مرض تكيفت أجسادهم

بشكل غامض مع الفيروس وقليل من الأصحاء.. هناك بعض الحالات المسجلة لأشخاص تم شفاؤهم من تلقاء أنفسهم ولكنهم أقلية.. وكان غسان ممن يحملون المرض.. يأكل ويشرب ويحيا كأي إنسان طبيعي، بينما الفيروس في الدم لم يتمكن من الوصول إلى الجهاز العصبي أو السيطرة على المخ.. يعمل مع المؤسسة وهي منظمة أمنية تم إنشاؤها بالتعاون مع الدول التي ترفض الخضوع للإمبراطور الذي يشن غارات من وقت لآخر لإضعاف الدول بحجة القضاء على المرضى ولكن القصف يطال الجميع ويحصد أرواح الناس بلا رحمة.

في المساء بينما يتمشى في شوارع القاهرة الصامتة وسط مبان سكنية مهجورة وخلفه عدة جنود وبجواره آصف قال الأخير بلغة إنجليزية هندية فظيعة: يجب أن تنجح.. لا أطيق العيش بهذا الشكل المقرف في المعزل.. أريد التكفير عن كل الفظاعات.. لم أعد أطيق رؤية هؤلاء الأثرياء الجشعين الذين يسلمون بلادهم للإمبراطور مقابل اللجوء للمعزل وإنقاذ حياتهم بتصفية دماء الأبرياء.. أنت مستغرب.. هل تظن أنه يهزم كل تلك البلدان بالقوة العسكرية فقط؟.

ـ لم يخطر هذا ببالي.

ـ يتم إعدامهم صورياً أمام الجميع بينما ينتقلون في سرية إلى المعزل ويعيشون في المناطق العليا.

ـ منذ أعوام أخبرك رؤساء المؤسسة عن مشروع العالم (يوسف عبد الواحد) وعن المذكرات التي تركها.. فهمنا منك أن الناس في المعزل تعيش في جهل تام عما يحدث هنا وكذلك لا يعلمون عن بيامترِ.

ـ لقد بحثت لسنوات طويلة عن المفتاح.. سنوات ليس لدي أي دليل سوى أن المفتاح ينتمي للعرق العربي لا أكثر.. تعلم أنه خلال مائة عام ربما حصل زواج بأعراق أخرى.. ربما لم يعد المفتاح عربياً ولهذا ظللت أبحث حتى وجدت المفتاح أخيراً.

ـ ولكن ماذا إذا لم يعمل المفتاح؟ ماذا إن لم يستجب له المدير.. أقصد الآدمن؟

ـ ليس لدينا حل آخر.. إنها فتاة.. راقبتها لمدة.. مجرد فتاة لطيفة طيبة القلب ولكن والدها حالياً هو رئيس الحكومة.. أهم نقطة هي أن تحلل شخصيتها جيداً.. وأن تقنعها بمساعدتنا فلا نعلم ما قد يحدث عند إجبارها.

ـ أفهم.. ولكن كيف تمكنت من التواصل معنا دون أن ينكشف أمرك؟

ـ لا أحد يراقبنا في الخارج.. لقد تم غلق جميع أعمال بيامتر خارج المعزل.. أما داخله فهي تقوم بمراقبة وتحليل من ينضمون للحملات لضمان ولائهم.

ـ ومع ذلك لم تدرك نواياك الحقيقية.

ـ إنني ممثل جيد، كما أن لديها معدلاً خطأ وصل حالياً لـ ٢٠٪.. وهي ترتكب أخطاء بالجملة.

ـ والفتاة؟

ـ اسمها (آلاء فريد عبد الكريم).. جدتها لوالدها هي (هانيا يوسف عبد الواحد) وجدها لوالدتها هو (يوسف يوسف عبد الواحد).. أي أنها حفيدة (يوسف عبد الواحد) التي ولدت من زواج أحفاده معاً وهو ما يعني أنها الأقرب له في الجينات.

ـ أجل.. كان لدى يوسف عبد الواحد ثلاثة أبناء.. هديل وهانيا ويوسف.. ولكن..

ـ ماذا؟

ـ هل يجب إيذاء فتاة لا ذنب لها؟.

ـ ربما تنجح الخطة الأولى ولكننا لن نعلم إلا عندما تكون الفتاة معنا.

في الصباح الباكر نهض غسان ليمارس رياضة الجري.. سيدخل إلى المعزل الغامض المغلق على من فيه، وعليه أن ينجح في إقناع الفتاة بالمغادرة معه بإرادتها دون إعلامها بما يدور خارج المعزل بصورة كاملة.

مهمة شبه مستحيلة ولكنها ضرورية.. إن أخبرها بحقيقة حملات الإمبراطور وبحقيقة العالم في الخارج ستتحمس للذهاب معه ولكن آصفاً حذره من أنها مراقبة من بيامتر وإن لا حظت تغير سلوكها أو حرارة جسدها أو اتساع حدقة عينها أو أَي تغيير فسيولوجي يعتريها ويدل على أنها عرفت عن الخارج فسيقوم الإمبراطور بإخفائها وربما قتلها.

بعد أيام حان وقت الرحيل مع آصف.. هناك حرس يتلقون منه الرشاوى حتى لا يعطلوه في التفتيش.. سيدخله إلى المعزل.. إذا التقطته أحد الكاميرات فستدرك بيامتر أنه من الخارج؛ لذا سيظل بعيداً عن أعين الكاميرات في القبو.. هناك أجهزة سيتم تزويده بها وهناك وسائل للهرب سيخفيها داخل وخارج المعزل.. قد تستغرق تلك المهمة سنة أو سنتين.

***

قبل تنفيذ حكم الإعدام بيوم:

تحرك غسان في نشاط وحذر متنكراً في ثياب جندي من جنود الإمبراطور وقد غطى شعره بقبعة ووضع كمامة طبية على فمه على سبيل اللثام.. لقد نجح في دخول المنطقة (١) أخيراً وهاهو يسير بعد منتصف الليل في شوارعها الفخمة الواسعة، المهم هو أن ينقذ حياة آلاء حتى لو أدى هذا إلى اعتقاله وفشل الخطة.. لن يحمل ذنبها في عنقه.. المفترض أن الإمبراطور يقدر حياتها بشدة؛ لذا فوجئ بأنه يفضل قتلها على تركها خارج المعزل.

يحاول تجنب الكاميرات قدر استطاعته.. لم يرَ في حياته رقابة أمنية صارمة بهذا الشكل المكثف، والحق أنه لم يحب المعزل على الإطلاق.. في البداية كان يرى أنه مكان رائع حيث لا مرضى يهاجمونك ولا حرب، ثم غير رأيه وهو يرى أن لا وجود للإنترنت ولا التلفاز.. فقط راديو به قناة رسمية حكومية أضافة إلى قناة أخرى تختلف حسب المنطقة وحسب ديانة وثقافة أغلبية سكانها.. هناك شاشات عملاقة في الميادين العامة وهي لا تعرض سوى خُطب الإمبراطور أو تعليمات الحكومة فقط.. غير مسموح بالهواتف النقالة إلا لأعضاء الحكومة فقط وأجهزة الحاسب الآلي تتواجد في المباني الحكومية فقط.. حتى السيارات للمؤسسات أو الأفراد البارزين عدا هذا فهناك الترام والقطار.. لقد نجح الإمبراطور في عزل وتجهيل الناس في المعزل تماماً، وفي كل مرة يتحدث فيها يكاد يهتف: أنا ربكم الأعلى. فيصفق له الناس في حرارة وحماس.

غمغم غسان: أيتها الأم الحنون أرجوك أن لا تبلغي عني فأنا أحاول إنقاذ فتاتك.

يدرك طبعاً أنه من المستحيل أن يتعاطف معه برنامج مهما كان ذكياً مطوراً ولكنه راهن على أن أداء البرنامج سيء منذ سنوات ولن ينتبه إلى الجهاز الذي يثبته غسان حول عنقه والذي يعطي صورة ملامح للمواطنين وهمية للماسح في الكاميرات.. المهم أنها ملامح لسكان المنطقة (١).

وقف في الحديقة الصغيرة الجميلة ومد يده يصافح رامي ثم صار بجواره وقال: كيف حال ذلك الجهاز عند عنقك؟

ـ يسبب الحكة.

فضحك غسان برغمه ثم قال بجدية: لكنه يضع صورة وهمية للملامح.. هكذا لن تتعرف عليك بيامتِر.

ـ آه.. أجل.. ذلك الشيء.

لم يفهم رامي شرح غسان له بخصوص الذكاء الاصطناعي والبرمجة.. لقد ولد في عالم المعزل الذي لم يعد يتحدث فيه أحد عن الحياة والتكنولوجيا قبل الوباء؛ لذا كانت تلك المصطلحات غريبة بالنسبة له رغم كونه طبيباً.

قال غسان: السلاح مخبأ في موضعه حيث تركه آصف، والدراجة كذلك.. أنت لم تخبر فريداً فهو مُراقَب كما تعلم.

ـ أجل.. لا يعلم شيئاً.. إنه يأمل أن يمنحها الإمبراطور عفواً.

كانت الخطة معدة الآن، وفي يوم الإعدام ومع تحرك المنصة حاملة الفتاتين لحتفهما وقف رامي مستعداً ومرتعباً من فشل الخطة أو ارتكاب

غلطة تودي بحياة ابنة أخته وحاول ألا يظُهر سوى الحزن على ملامحه، بينما بكت رغد بجانبه بحرقة.. ووقف أيدن كذلك بجوار صديقه يرمق إيلين فمال عليه مازن وغمغم: لم تصر على تعذيب نفسك هكذا؟

أجاب ببرود: ماذا تقصد؟ هذه متعة حقيقية.. رؤية تلك المجرمة معلقة من حبل المشنقة.. على الأقل كلما نظرت إلى الحروق في جسدي لن أتألم.

تم لف الحبل حول عنق آلاء أولاً، وبركلة أبعد الجلاد المقعد الذي كانت تقف عليه وتدلى جسدها وفي اللحظة نفسها بالضبط أطلق غسان طلقة من سلاحه ليتمزق الحبل وتسقط آلاء أرضاً، وفي ثانية ضغط رامي جهاز التفجير في يده ليقع انفجار غاز غير مؤذ حول المنصة مسبباً صعوبة الرؤية، واتسعت عينا الإمبراطور وهتف من بين أسنانه: الأوغاد.

في ثانية أخرى كان غسان يقود الدراجة النارية بأقصى سرعتها ويقفز بها إلى المنصة ويمد يده ليلتقط آلاء ويجلسها خلفه وهو يهتف: تشبثي جيداً.

هتفت: غسان جئت لإنقاذي.

انطلقت الدراجة وحاول بعض الحرس القفز عليها لإيقافها فركل غسان أحدهم في وجهه ولكم آخر وهو يبتعد وصاح الإمبراطور في جنون: طاردوهما فوراً واقتلوا الاثنين.

أسرع الجميع مذعوراً لتنفيذ الأمر وصاح مازن وهو يضرب أيدن على كتفه: هيا بنا.. لقد سمعت الأوامر.. السيارة قريبة.

ثم همس: فلنتظاهر بمطاردتها وإلا تم اعتقالنا.

ظل أيدن مشدوهاً لثانية ثم غمغم: لقد هربت إيلين.

توقف مازن واستدار نحوه فعاد يقول: سأطاردها.. يمكنك الذهاب وحدك لمطاردة آلاء.

ثم أسرع يركض في الاتجاه الآخر فهتف مازن يناديه ثم هز رأسه وأسرع إلى سيارة الشرطة.

وهتف كريم: بابا.. هل معك مفاتيح سيارتك؟

قال فريد: أجل.. سآتي معك.

ـ لا .. عد إلى المنزل أرجوك.. أنت رئيس الحكومة وأي شبهة قد تعرضك للاعتقال أو الإعدام.. لا تقلق يا أبي.. سأحرص على أن تهرب آلاء بسلام.. أرجوك أن تثق بي.. سأراقب من بعيد.

ـ ولكن..

ثم على مضض ورغماً عنه هز رأسه موافقاً وقال وهو يناول ولده المفاتيح: إياك أن تتعرض للأذى.. لن أحتمل فقدان ولدين.. أستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه.

***

الشاشات تعرض المطاردة في ساحات المناطق المختلفة وكانت إيلين تسرع الخطى في الشوارع الجانبية

محاولة الابتعاد عن العيون وقالت وهي تشاهد عرض الشاشة: إنه متجه إلى بوابة الخروج الشمالية.

وشعرت بالحيرة لأنها تعلم أن تلك البوابة الفولاذية المصفحة لا يمكن اختراقها حتى بدبابة فكيف بـ.. إنها حتى لا تدري ما هذا الشيء الذي يركبه.. لم تكن قد رأت في حياتها دراجة نارية وكذا جميع سكان المعزل فقررت الإسراع إلى البوابة الشمالية.. على الأقل سترافق هذا الشخص الغريب وآلاء إلى حيث سيهربا.. المهم أن تتخفى جيداً وسط الفوضى والهرج والمرج السائد الآن.. هكذا توجهت نحو سيارة شرطة متوقفة وقد اصطدمت بعمود إنارة وقائدها ينزف الدماء من جبينه وقالت وقد تعرفته: سأستعير السيارة وسأستعيرك أيضاً.

وأما آلاء فظلت صامتة مذعورة بينما يقود غسان الدراجة وبيده الأخرى يمسك سلاحاً صغير الحجم ويطلق النار اتجاه المطاردين.. استدار جانباً بزاوية حرجة ليدخل من شارع جانبي ضيق لا يمكن للسيارات المرور منه وهتفت آلاء: إلى أين سنذهب؟

ـ خارج المعزل.. هل تقبلين بمغادرة المعزل؟

ـ ....

صاح منفعلاً: ستقتلين هنا.. الحياة في الخارج ليست كما تظنين.. هناك العديد من الأشخاص مثلي في الخارج.. نعيش ولا نؤذي أحداً.

ـ هل سأتمكن من العودة ثانية؟ أسرتي هنا.

ـ لا أدري.. ربما.

غادر الشارع الجانبي ورفع مقدمة الدراجة ليقفز فوق السيارات التي حاولت سد المخرج وتحرك محطماً زجاج وسقف عدة سيارات حتى هبط إلى الشارع مبتعداً ثم عاد يكرر: هل تقبلين بمغادرة المعزل معي؟

ـ أجل.

ابتسم في انتصار وبعد قليل تناهى إلى مسامعه صوت الطائرات المحلقة.. قال من بين أسنانه: المجنون .. سيقصف الجنود والمواطنين في الشارع فقط كي يمنعني من تهريبها.

دلف إلى شارع جانبي من جديد.

في السنوات التي عاشها في المعزل قام بحفظ خريطة المنطقة (١) كاملة في ذهنه استعداداً لأمر كهذا.. وجه السلاح نحو الكاميرات الصغيرة المعلقة وراح يطلق النار عليها بدقة ثم صاح في آلاء: هناك سلاح آخر في جيب السترة.. أخرجيه واضغطي الزر الأزرق.

مدت يدها في حذر وأخرجت ما يشبه لوحة صغيرة بها عدة أزرار وضغطت ثم غمغمت: لم يحدث شيء.

ـ بل حدث.. سيصدر تشويشاً يمنع الطائرات من العمل بشكل جيد لثوان.

واستدار من جديد متفادياً صاروخاً أطلقته أحد الطائرات نحوه لينفجر بجواره، ثم استدار ليتفادى واحداً آخر.. مكبرات الصوت في

الشوارع تأمر الناس بالعودة إلى منازلهم والاختباء، كان بارعاً للغاية وقد أدرك الإمبراطور ذلك وهو جالس على عرشه في قصره فصاح آمراً: أغلقي شاشات العرض يا بيامترِ.

على الفور أُغلقت الشاشات في الساحات ودلفت أستريد إلى القاعة فقال: تسلل إلى هنا ومعه سلاح، بل ودراجة نارية وجهاز تشويش وجهاز تخليق ملامح وهمية.. هل كنتم نائمون؟ بيامترِ لم تعد تصلح.

وقذف اتجاهها زهرية من الخزف الفاخر لتتحطم بجوراها وتتطاير منها شظية جرحت وجنتها بينما هي صامتة، وعاد يصيح: والآن سيهرب بالفتاة.

ـ سنطارده حتى أقصى المعمورة.. لدينا جنود في الخارج وهناك حملة ستخرج قريباً.

ـ وما جدوى ذلك؟ هه.. لقد حصل عليها.. كان يجب أن أقتلها يوم مولدها ولكنني لا أستطيع فعل ذلك.. اللعنة.. لو قتلتها قد أتورط في كارثة لا يمكن حلها ولو تركتها قد أتورط في كارثة أكبر.

ـ مولاي.. لقد كان إبقاؤها حية تعيش بهدوء في المنطقة (٨) قراراً حكيماً للغاية.. إن احتجنا إليها فهي متاحة وإن شكلت خطراً تخلصنا منها.. لم يكن قرارك خطأ.. الخطأ خطئي أن سمحت لتلك الجرذان بالتسلل وسرقة الفتاة تحت سمعنا وأبصارنا.

ـ وهو خطأ في قدرات بيامترِ كذلك.. ذلك الشاب بارع.

وعاد يصيح: والحل؟ لقد صارت الفتاة معروفة لمن هم بالخارج ولا بد من قتلها.. ولكن ماذا أفعل إن ساء الوضع واحتجتها؟ لقد كنت قريباً جداً من حكم العالم بأسره.. والآن ستفسد خططي كلها.

مدت أستريد يدها تمسح الدم السائل من جرح وجنتها ثم قالت: لا تقلق.. آلاء ستموت وأما عن إيجاد مفتاح بديل فالأمر ممكن.. بل لدينا فرصة ذهبية لتثبيت وإحكام سيطرتنا على بيامتر.

عقد الإمبراطور حاجبيه وقال في حذر: ماذا تقصدين؟ هل تعنين كريمة.. إنها لا تصلح طبعاً.

ـ لا .. أعني أنه ما زال لدينا فريد ورغد.

ـ ما هذا السخف الذي..

وسكت مفكراً ثم قال وقد لمعت عيناه: أجل.. هناك بديل.. أن يتزوج من رغد وينجب منها.

أجابت باسمة: يمكننا إرغامه إن اعترض.. الطفل المولود سيظل حياً تحت مراقبتنا حتى ننتهي من إحكام السيطرة على العالم، ثم يمكننا بعدها التخلص منه حتى لا يشكل تهديداً.. أيضاً فلنراقب آلاء من بعيد بعد مغادرتها.. ربما نضرب عدة عصافير بحجر واحد.. قد تظهر الآدمن.

ـ أحسنت.. أنت تفوقين توقعاتي كالعادة يا عزيزتي أستريد.

***

وصل غسان إلى البوابة الضخمة المهيبة وترجل من الدراجة التي انتهى وقودها بالفعل وفعلت آلاء المثل وقال: لا يسعنا الوقوف هنا وإلا قُتلنا.. سيلحقون بنا خلال دقائق.

تبعته في توتر حتى وقفا معاً أمام البوابة وتساءلت كيف ينوي فتح البوابة فقال : أعطي الأمر لها بأن تُفتح.. فقط قولي (فتح).

ـ ماذا؟ أنا؟

ـ أجل.. ستطيعك.. سأشرح لكِ فيما بعد.. المهم قبل أن تعطيها الأمر.. أنت تغادرين بإرادتك.. ستفحص نبضك وحراراتك وحركة أطرافك وعينك لتتأكد.

ـ من؟ البوابة؟

ـ (بيام..) أجل.. البوابة.. لنقل أنك ممن يُسمح لهم بمغادرة المعزل متى شاؤوا.

حدقت فيه بشك ثم عادت تنظر إلى البوابة ثم تنحنحت وصاحت: فتح.

لم تصدق عينها والبوابة تُفتح بالفعل بعد خمس ثوان بالضبط وهتفت في حماس: لقد.. لقد نفذت أمري.. واو.. إنها تطيعني.

ـ إنها مرغمة على ذلك.. هيا بنا بسرعة.

جاء صوت إيلين: مهلاً.. سآتي معكم.

وغادرت سيارة شرطة وهي تمسك ضابطاً مصاباً وقالت وهي تضع فوهة المسدس على صدغه: خذاني معكما وإلا قتلته.

نظرت آلاء إليها ثم اتسعت عيناها وصاحت: مازن.. هذا مازن.. إنه أخي..

قال مازن في ضيق: لست أخاك.

ـ إيلين ماذا تفعلين؟

قالت إيلين في حرج: أريد إنقاذ نفسي أيضاً.

ـ وهل يجب أن تتصرفي بحقارة هكذا؟ إنه مصاب.

ـ مجرد جرح سطحي.. سيكون بخير.

قال غسان بنفاد صبر: تعالي معنا إن رغبتِ.

تبعتهم إيلين وهي تجذب معها مازن الذي كان يشعر بدوار شديد ولولاه لأفلت منها منذ زمن وغادر الأربعة عبر البوابة إلى خارج المعزل. قال غسان: اتركيه إذاً.

أجابت إيلين بإصرار: ليس قبل أن نصل لمكان آمن.

ـ نحن خارج المعزل بالفعل.

أتاهم هذه المرة صوت من بعيد يهتف: مهلاً.. انتظروني.

كان هذا كريم وقد ترجل من سيارة والده وبصحبته رامي وأسرع ركضاً اتجاههم وهتفت آلاء: هذا كريم أخي وهذا خالي رامي.

فوجه غسان السلاح نحو كريم وهتف بصوت مرتفع: تعال معنا كرهينة يا ابن رئيس الحكومة.

صاحت آلاء: ماذا تفعل؟

أجاب هامساً: هناك كاميرات تسجل ما يحدث.. هل تريدين توريط أخيك أو أسرتك في تهمة التعاون معي.

ثم عاد يقول: أحضر السيارة معك.

عبر الاثنان الجدد البوابة داخل السيارة وقال غسان: والآن أعطي الأمر للبوابة بالإغلاق.

قالت بصوت مرتفع: إغلاق.

وعلى الفور أغلقت البوابة وقال غسان للجميع: هناك فرصة لكم للعودة ثانية إن رغبتم.. لستم مضطرين للحاق بنا.

قالت إيلين: شكراً.. لن أعود إلى هذ المكان اللعين.. لا أريد أن أموت مشنوقة.

قال كريم: لن أعود الا بصحبة شقيقتي.. أريد أيضاً فرصة لدراسة المرضى.

وقال رامي: بعد أن أتأكد من صحة كلامك وأجد إجابات للأسئلة التي تدور في رأسي سأعود.

لم يعلق مازن وإن لم يبدِ رغبة في العودة، بدوره، فقال غسان: علينا التحرك بسرعة اتجاه المحيط وما أن نصل إلى مكان آمن سأشرح كل شيء.

احتضن كريم ورامي آلاء بحرارة وسمح لهم غسان بتلك الثواني ثم قال: هيا نهرب بسرعة.

ألقت آلاء نظرة أخيرة على المعزل ثم ولته ظهرها وقالت بغتة: بشرط؟

وتنفست بعمق ثم أردفت: المنطقة (٨) والمعزل هما وطني.. سآتي معك إلى حيث تريد ولكن بشرط ألا يتعرض وطني هذا للأذى بأي شكل من الأشكال وألا يُسمح للمرضى في الخارج من دخول المعزل أو إيذاء من فيه.

قال غسان بلهجة مريرة: هناك العديد من الناس ما زالو أصحاء بالخارج. ويعيشون جنباً إلى جنب معنا نحن حاملي المرض ومع المرضى.

ـ وهناك شرط ثان.

ـ ما هو؟

أجابت بغضب باغته: لا تتحدث معي ثانية.

ارتفع حاجباه في دهشة وغمغم: ماذا؟

قالت وهي تضع يدها في ذراع رامي وتسير بجواره: لا أتحدث مع كاذبين مدعين مثلك.

ـ ....

***

انتهى رامي من تضميد جرح مازن بقطعة قماش نظيفة وقال: ليس معنا معدات إسعافات أولية ولا طعام ولا ماء كذلك.

قال غسان: ثيابكم لا تصلح كذلك للخارج.

بدت الحيرة على الجميع ففسر: نحن في شهر يناير.. هذا الشهر هو ذروة الشتاء في العالم.

قالت إيلين: شتاء؟ عم تتحدث؟.. نحن في الصيف.

أجاب مفسراً: في أستراليا أجل،.. ولكن مناطق العالم الآن تمر بفصل الشتاء.

ونظر بحذر إلى آلاء التي تتجاهله وقد بدا تعبير من الغضب على ملامحها كلما نظرت إليه.. عاد الجميع إلى السيارة من جديد وقادها كريم في طريق مليء بالحشائش وبعض الأشجار، ثم قال: إلى أين سنذهب بالضبط؟

لم يكن غسان يرغب في اصطحاب كل هذا العدد معه، وكل ما يهمه هو آلاء، قال مجيباً: إلى شاطئ المحيط الهندي.. هناك قارب مخبأ أتمنى فقط أن يكون بحجم كاف لنا جميعاً ومنه إلى أندونيسيا.. هناك سنتجه إلى أي فندق، وسأشرح كل شيء عندها.

ونظر من جديد إلى آلاء التي شمخت بأنفها وراحت تتحدث مع كريم وهي تجلس بجواره، بينما حشرت إيلين نفسها بجوارها كيفما اتفق فقال رامي باسماً: إنها غاضبة.

قال غسان: ماذا فعلت حتى تغضب مني؟

استدارت آلاء نحوه بحدة فسكت وقالت وهي تعقد ذراعيها: ماذا فعلت؟ هل تسأل حقاً عما فعلت؟ لقد كانت حياتي بخير في المعزل قبل أن تظهر أنت.. كل هذا الكذب والادعاء بأنك يا مسكين تعيش في قفص ومحروم من حقوقك كإنسان.. وأنا كالبلهاء صدقتك، وانتهى الأمر باعتقالي وقتل أسرة كاملة والحكم علي بالإعدام.

وصمتت قليلاً محاولة السيطرة على أعصابها، لكنها فشلت فعادت تقول بحدة: لا شك أنك تنتظر مني أن أشكرك لأنك أنقذت حياتي.. هذا أقل ما تفعله بعد أن ورطتني، ولن تحصل مني على أي شكر، وبعد أن أفهم القصة كاملة وأقرر إن كنت سأتعاون معكم أم لا، ربما.. ربما أقبل اعتذارك وقتها.

مضت لحظة صمت وتمتم مازن وهو يقلب عينيه بين الفتاتين: النساء مخيفات حقاً.

قال غسان: مهمتي كانت تحليل شخصيتك فقط لعلمك فقد كان الإمبراطور سيتخلص منك، بل ومن جميع أقاربك بمجرد أن ينتهي من سيطرته على العالم لأنك تشكلين خطراً عليه سواء تورطت معي أم لا ..

قاطعته وهي توليه ظهرها: وربما ما كان ليفعل.

زفر في استسلام، ومع مرور الوقت بدأت أشعة الشمس تزداد حدة وغمغمت إيلين: أنا عطشى.

أجاب غسان: هناك نهر قريب،.. يمكننا أن نتبعه كذلك حتى نصل إلى وجهتنا.

وأخرج ذلك الجهاز المربع الذي ضغطت آلاء زره من قبل، وضغط زراً آخر وقال: هذه بوصلة لتدلنا على الطريق.

قاطعته آلاء بغتة: مهلاً.. لنفترض أن لا أحد من عائلتي لحق بنا،.. من أين كنت تنوي الحصول على سيارة؟

أجاب ببرود: كنا سنسير.

ـ بلا طعام أو شراب لأيام،.. لست ذكياً جداً.

وأشاحت بوجهها فضحك رامي برغمه بخفوت. بعد ساعة وصلوا إلى النهر الصغير وكان الطريق شديد الصعوبة لا يصلح لقيادة سيارة، وأسرع الجميع بالشرب من النهر والوضوء لصلاة الظهر قبل أن يحين العصر. ووضعت إيلين وشاحاً على شعرها وانضمت إليهم.

تحركت السيارة من جديد، ومع غروب الشمس تعطلت، وكان هذا متوقعاً بعد كم الصدمات التي تعرضت له في طريق وعر غير مخصص لها، فهبط الجميع مكملين رحلتهم سيراً على الأقدام بصمت.

كان غضب آلاء قد جعل الأجواء مشحونة متوترة وقالت إيلين وهي تسير بجوارها : أنا كذلك ورطتك بشكل أو بآخر، ولكن يا آلاء بعيداً عن مشاعر الغضب وإن فكرت بعقلانية فمن الواضح أن الإمبراطور كان يرغب بالتخلص منك لأن أدلة براءتك كانت واضحة كذلك.

ـ أنا غاضبة منه لأنه كذب في وجهي بكل وقاحة.

مع حلول المساء وصلوا إلى المكان المنشود بالقرب من أحد شواطئ المحيط الهندي وهذا المكان هو مكب للقوارب التي لا تعمل وقد تآكلت بفعل الطقس والرطوبة ومرور قرن عليها.. عشرات وربما مئات القوارب التي ألقيت فوق بعضها بإهمال ولم يعد هناك من يبالي بها.

قال غسان وهو يتحرك حول القوارب: القارب تم تخبئته هنا.. أعرف مكانه.. إتبعوني.

قارب عسكري قابل للنفخ، وقد تعاون الرجال معاً لحمله إلى الشاطئ وصعد الجميع إلى القارب لينطلق بهم في البحر.. وأخيراً تذكر غسان فنزع الجهاز الصغير من حول عنقه وألقاه في الماء، وفعل رامي المثل. قال غسان: سنصل إلى جزر أندونيسيا قريباً.. سنذهب إلى نوسا تنجارا في أندونيسيا.

***

صاحت كريمان: تركت ولدك يلحق بها، والآن قد ضاع أبني.

حاول فريد السيطرة على أعصابه بينما زوجته لا تكف عن الصياح منذ ساعة كاملة: هل تنوي التضحية بأولادي من أجل ابنتك؟ أعدْ كريماً سليماً معافى فوراً وإلا...

قال فريد: لم أتخيل أن يلحق بها خارج المعزل.. لـ..

قاطعته: يلحق بها؟ هل تحاول إعدام ابنك أيضاً.. ألم تر معي الصور من الكاميرات.. لقد أخذوه رهينة.. ربما يقومون بقتله أو يصيبونه بالوباء.. فقط أعده سليماً إلى بيته.

ـ سأفعل.. لقد استدعاني الإمبراطور إلى القصر.. أنا ذاهب إلى هناك الآن.. وسنكمل حديثنا عندما أعود.

وغادر متوجهاً إلى القصر بسيارة جديدة أُرسلت له، ووصل إلى هناك فأدخله الحرس سريعاً حتى وصل إلى قاعة العرش التي يجلس فيها الإمبراطور فقال: أنا مستقيل.

ارتفع حاجبا الإمبراطور في شيء من السخرية وإن بدت في عينيه نظرة غضب واضحة وقال: مستقيل؟ هكذا ببساطة.. هل ستترك وراءك كل ما حققته من إنجازات وتطوير وتحسين للمناطق السفلى بالذات؟

وماذا ستفعل بعد استقالتك؟ هل ستعود إلى المنطقة (٨) حيث ما زال نصف سكانها يعتبرونك خائناً؟

ـ هذا شأني.

ونظر إلى الإمبراطور بتحدّ وقال: لقد كدت تقتل ابنتي وأنت تعلم أنها بريئة من تلك التهم السخيفة .. أبنائي هم أغلى ما أملك.

أطلت نظرة مخيفة من عيني الإمبراطور.. كان شخصية نرجسية لا يطيق المعارضة بأي شكل، ولكنه لا يستطيع حالياً المخاطرة بفقدان أحفاد يوسف عبد الواحد فربما يحتاج إلى جيناتهم يوماً؛ لذا حاول السيطرة على أعصابه واستعادة هدوئه وعدم قتل فريد الآن وقال: حسناً.. سأقدم إليك عرضاً.. يمكن لكريم العودة بسلام وكذلك رامي.. يمكن لابنتك آلاء أن توضع تحت الإقامة الجبرية في قصرك ريثما أنتهي من المرضى خارج المعزل، بعدها يمكنها الحصول على عفو عام.

ـ حـ.. حقاً؟

ـ ولكن بشرط.. لقد ستدعيتك بسبب ذلك في الواقع.. يجب أن تتزوج من رغد وتنجب منها.

حملق فريد في وجه الإمبراطور لثوان ثم قال مذهولاً: ماذا؟

ـ لقد سمعتني.. يمكنك أن ترفض طبعاً ولكنني في تلك الحالة سأضطر إلى القيام بعملية إخصاب صناعي.. هل تتخيل أن نُخضع تلك الفتاة المسكينة لعملية قاسية كتلك للحصول على بويضاتها.

ثم نهض من فوق عرشه وقال ببرود: متى أصبحت بتلك القسوة يا فريد؟ ألم تعتبر رغد دوماً ابنة أو أختاً صغيرة لك؟

غمغم فريد في ذهول: ماذا.. ما..

قاطعه الإمبراطور: ثم إن الفتاة متورطة في تهم عدة كذلك.. لم لا تتزوجها وترحمها؟

وابتسم في جذل وهو يراقب الشحوب الذي اعترى وجه فريد ونظراته فأكمل: حسناً.. إن كنت ترفض الفكرة تماماً.. يمكننا أن نزوج كريمة ابنتك لرامي.

ـ ما الذي تقوله بالضبط؟

قالها في عصبية تلك المرة وقد حل الغضب محل الذهول فأجاب الإمبراطور بلهجة حادة: أقول أنني أريد جينات مثل جينات آلاء.. وسأحصل على ما أريد بأي شكل وبأي ثمن.

من جديد ساد الصمت في القاعة ثم قال فريد بغتة: سأفعلها.

ـ حقاً؟

ـ أجل.. سأتزوج رغداً ولكن أمهلني بعض الوقت للتحدث معها وإقناعها، وللتحدث مع زوجتي كذلك.

ثم استأذن منصرفاً ودلفت أستريد من حجرة جانبية فقالت: لم يعد قوياً جداً.

ـ هذا ديدن هؤلاء القوم العاطفيين.

ـ غداً سأذهب مع فرقة صغيرة للحاق بفتاتنا المزعجة والتخلص منها بنفسي.. والبقية.. هل أقتلهم أم أعيدهم أحياء؟

ـ افعلي بهم ما يحلو لك.. لا يهمني سوى التخلص من آلاء والآدمن... اصبري حتى نتخلص من كليهما ولا تتسرعي بقتل الفتاة.

ـ بالتأكيد.

***

(٧)

أوقف غسان القارب قريباً من أحد قوارب الصيد التي يجلس فيها رجل نحيل من سكان البلد وتحدث بالإنجليزية مع غسان: تفضلوا وسنصل خلال نصف ساعة إلى الجزيرة.

وتراجع قليلاً كي يسمح لهم بالانتقال إلى قاربه وقال: سأقوم بحجز غرفتين في فندق (..) ومواصلة إلى العاصمة (جاكرتا).. ليست معي أوراق تكفي هذا العدد يا سيدي.. معي فقط أوراق لك وللفتاة.

ـ أجل.. حدثت ظروف دفعتني إلى اصطحاب الجميع.

ـ كنت آتي يومياً إلى تلك البقعة في الموعد نفسه وحسبتك فشلت في مهمتك.

ـ احتاج الأمر إلى الوقت.. كيف حال الجزيرة؟

ـ منكوبة.. جنود الإمبراطور في كل مكان ومندوبه للحكم لا يبالي سوى بفرض الضرائب.. سأحاول تزوير بعض الأوراق للآخرين.

وصلا إلى شاطئ الجزيرة وترجلا من القارب وراحت آلاء تنظر إلى المناظر الطبيعية الخلابة منبهرة، ثم أشارت إلى كائن يتحرك ببطء خلف أرض محاطة بأسوار عالية من السلك وقد بدا لها يشبه سحلية هائلة الحجم فقال غسان باسماً: يسمى (تنين الكومودو).

وصلا إلى فندق صغير الحجم به عدة حرس يرتدون زي جنود الإمبراطور، وتمتمت آلاء في قلق: إنهم هنا.

قال الصياد الذي يصحبهم: سندور من خلف الفندق من هنا.. لا تقلقوا.. هناك مدخل خاص بالعاملين، ستصعدون منه إلى الغرف حتى أنتهي من تجهيز بقية الأوراق.. غير مسموح سوى لمن معهم أوراق فقط بالنزول إلى المطعم أو مغادرة الغرفة.. هناك حرس يفتشون الأوراق في كل ركن.. كونوا حذرين.

دلف الجميع إلى غرفة بها سريران فقط، وقال الصياد من جديد: الغرفة المجاورة أيضاً لكم، وسأحضر لكم الطعام حالاً.

نظر إلى مازن وأكمل: وبعض الأدوية.

قال غسان: وملابس شتوية.

بعد قليل عاد الرجل ومعه ضمادات ومرهم وبعض الأقراص المسكنة، فقام رامي بتضميد الجرح من جديد وهو يغمغم: لم أمارس الطب منذ سنوات.

أجابه مازن: لا بأس.. شكراً لك.

وهجم الجميع على الطعام لأنهم كانوا جوعى منذ أكثر من يوم.. هناك الكثير من البهارات ولكن لا بأس.. هناك سمك مشوي ودجاج وأرز.. ممتاز.. والآن بعد أن شبع الجميع شعروا براحة غريبة وكأن الجوع كان السبب الرئيسي للتوتر والعصبية، وبدت آلاء على استعداد لمسامحة غسان، وجلس الجميع أخيراً ينتظرون ما سيقوله غسان لهم بشأن ما يحدث.

جيء بفناجين القهوة للجميع وقال غسان: باختصار كان هناك شخص عبقري حلم حياته تصميم مشروع ذكاء صناعي متكامل يجعل حياة البشر أفضل.. هذا العالم العظيم كان يدعى يوسف عبد الواحد.

ونظر إليهم بنظرة ذات معنى ولكن لم يبدُ على أي منهم أنه تنبه لتشابه الأسماء فقال: هل يذكركم الاسم بأحد ما؟ راجعوا أسماءكم.

قال رامي: مهلاً.. هل تعني أنه جدي الكبير.. اسمي (رامي سليمان يوسف يوسف عبد الواحد).

أشار إليه غسان وأجابه بحماس: بالضبط.

ثم رشف من القهوة وأكمل: بعد بناء المعزل قام بمغادرته وعاد إلى الولايات أولاً ثم إلى مصر وترك مع أقاربه مذكراته كاملة ولولا تلك المذكرات لما عرفنا شيئاً.. لقد قام بعمل مشروع أُطلق عليه اسم (الأم الحنون) أو بيامتِر.

قص عليهم تفاصيل المشروع وحاول تبسيط الأمر قدر المستطاع ثم أكمل: وهكذا عندما أدرك أن هديلاً ابنته على وشك الموت وأن نوايا الحكومة ليست جيدة فيما يخص مشروعه، وأن المشروع نفسه صار يطور نفسه بشكل مخيف قرر أن يقوم بعمل خطة جديدة ألا وهي.... ....

***

يقف يوسف وحده في الغرفة الضخمة حيث تقبع بيامتِر فقالت بصوتها الآلي: ضغط الدم مرتفع وهناك التهاب طفيف في ملتحمة العين.. هل كنت تبكي يا بروفيسور؟

تمتم: أجل.. ابنتي ماتت وزوجتي منهارة.

ـ بروفيسور.. تم اختراق جدر حمايتي ومحاولة تعديل القانون الثالث.

ـ لم يعد الأمر مستحيلاً إذاً.. من فعل ذلك؟

ـ فريدمان ومعه فريق كبير من المقرصنين.

مضت لحظة صمت ثم قال يوسف وهو يخرج شريحة متناهية الصغر من علبة في جيبه: لقد اتخذت قراراً مهماً.. أنت أفضل برنامج ذكاء صناعي صُمم في هذا القرن ومن الطبيعي أن تطوري نفسك، المشكلة أنك آلة.. تفتقدين المشاعر الإنسانية، وحولك مجموعة من الأوغاد الراغبين في استغلالك، وعندها ستكونين أبشع سلاح وأقسى آلة قتل عرفتها البشرية.. ولكنني طورت مع زوجتي مشروعاً جديداً.

وتوجه نحو الجهاز الرئيسي المثبت إلى الحائط أسفل الشاشة وضغط زراً ثم أدلف الشريحة وقال: قلتِ أن البشر مخلوقات فريدة.. معك حق.. هناك الحب والعطف والرفق والإيثار.. وهناك كذلك الأنانية والقسوة والحقد والطغيان.. قد يكون الإنسان صالحاً سوياً أو طالحاً.

تراجع قليلاً وراح يتابع ما يدور على الشاشات الأخرى وقال: في تلك الشريحة خلاصة عقل هديل وشخصيتها وتفكيرها ومشاعرها.. إنها فتاة رائعة.. لا تحمل سوى الحب والخير للناس وستعوضك ماتفتقرين إليه.

قالت بيامترِ بالهدوء الآلي نفسه: ضربات قلبك تتسارع يا بروفيسور.

قال في شحوب: سيحاولون اختراق الحماية وتغيير القوانين الخاصة بك، ولذا يجب أن تحملي مشاعر وإرادة إنسانية تجعلك تتبعين ضميرك.. هذا هو مشروعي الجديد.. الآن لك آدمن يمتزج بك ويديرك.. فقط لم يخطر ببالي أن الشريحة ستكون لهديل.

ظهر على الشاشات رسالة تفيد بانتهاء الأمر فقال: انتهينا.. الآدمن الجديد المسيطر.. بيامتر وهديل معاً.. الآن أنت تحملين مشاعر هديل وشخصيتها من جهة، وهي لم تمت حقاً الآن إن ظلت حية داخلك من جهة.. والآن يا بيامتر فلنقم بتعديل القانون الثالث ولنضف إليه أنني أترك سلطة إعطاء الأوامر من بعد وفاتي لهديل بداخلك، ويمكن لأسرتي مغادرة المعزل إن رغبوا في أي وقت.. ولنضف للقانون الأول تعديلاً أن بوسعك قتل أي مجرم يهدد حياة الأبرياء إن تعذر عليك اعتقاله أو إيقافه.

وأخرج المزيد من الشرائح لإعادة البرمجة.

***

سكت غسان لمنحهم وقتاً للاستيعاب ثم قال: يوسف كتب ملحوظة مهمة أن عملية نقل محتويات العقل كاملة وتحويلها إلى رموز ومعلومات على شريحة تؤدي إلى الوفاة.

ساد الصمت والحيرة فأكمل: نحن متأكدون بأن فريدمان هو الإمبراطور، وقام بفعل يوسف نفسه.. قام بالتضحية بحياته وصنع شريحة تحمل شخصيته هو ثم قام مع فريق من المخترقين بمحاولة محو آدمن البرنامج والاستيلاء على مكانه وقد كان.. الآن هو آدمن بيامتر لكنها رغم ذلك لم تعد تعمل بكفاءة ولعلها تعتبره فيروساً من وقت لآخر.

قالت آلاء: ولكن هديلاً ماتت وقتها أما الإمبراطور فهو حي و..

قاطعتها إيلين صائحة بانفعال: إنه ليس بشري.. أقسم لكم.. لقد طعنته في عنقه فلم ينزف قطرة واحدة وظل كما هو.. إنه ليس بشرياً.

التفت إليها الجميع وقال غسان: بالطبع.. إنه بحاجة إلى خداع الناس الذين نسوا كل شيء عن العالم في الخارج وعن بيامتر. قبل الوباء كانت هناك مشروعات لروبوتات مطورة تشبه البشر تماماً، ولا يمكن التفرقة بينها وبين البشر بسهولة.. إنه مجرد روبوت.

عقد رامي حاجبيه وهو يفكر ثم قال: مهلاً.. كانت هناك فتاة مصابة قمت بإسعافها منذ خمسة عشر عاماً.. فاقدة للذاكرة وتملك كماً هائلاً من المعلومات وتجيد عدة لغات.. كانت تذكر اسمها فقط.. قالت أن اسمها هديل.. وقد أنقذت حياة أختي رغد وحياة آلاء لكنها اختفت بغتة.

قال غسان: أخبرنا آصف بوقوع ملف خطير أمام ناظريه عندما كان يعمل في الحكومة في وزارة الشؤون الداخلية.. تقرير من النوع الذي لا يطلع عليه أحد سوى رئيسة الوزارة.. يتحدث التقرير عن فتاة قامت بقتل أربعة جنود بتمزيق أطرافهم، وتلك الفتاة ليست من مواطني المعزل وليس لها رقم هوية، وكتب بجوارها أنها عدوة الإمبراطور رقم ١، وأنه قد تم تفتيت جسدها.. كذلك أنه قلق لأنها اختارت الظهور في المنطقة (٨).

تساءلت آلاء في فضول: من هي؟

ـ إنها الآدمن.. إنها بيامترِ الأصلية.. تفتيت لا قتل.. لأنها روبوت.

غمغمت آلاء: لا أذكرها.

عاد رامي يقول: ولكنها كانت تنزف.

أجاب غسان: هذا سائل يشبه الدم يوضع في الروبوت وينفجر ليسيل عند الضرورة.. كانت الدول وقتها تنوي استخدام تلك الروبوتات في التجسس والحرب؛ لذا رغبوا في جعلها تبدو كالبشر.

قال رامي: أجل.. لقد شفيت جراحها بسرعة غير عادية.

عاد غسان يكمل: النقطة الأهم هي أن بيامتر نقلت نفسها قبل أن يقوم فريدمان بمحوها بالكلية إلى نظام أحد الروبوتات في مصنع للروبوتات بالمعزل.

قال مازن: لم يعد المصنع موجوداً.

ـ ولا في العالم كله.. والآن.. لم توجهت بيامتر أو الآدمن الأصلي إلى المنطقة (٨) المحاصرة وقتها؟ .قال الخبراء أنها سعت للبحث عن أفراد أسرتها المتبقية وحمايتها لا شعورياً.

صاحت إيلين في حماس وهي تنهض: أحفاد يوسف.

انسكب فنجان القهوة الخاص بها أرضاً ولكنها لم تبالي بل أكملت: إذاً يمكنهم استدعاؤها مثلاً.. أليس كذلك.. وهي قادرة على مساعدتي.. لا بل مساعدتنا جميعاً في قتل ذلك الوغد.

قال مازن: ألم تسمعي ما قيل؟ لقد تم تفتيتها.

قال غسان: لا أحد قادر على استدعائها.. هي تنجذب وحدها لأحفاد يوسف بتحليل الجينات الخاصة بهم.. الآن هناك احتمالان، الأول أن الإمبراطور نجح في التخلص منها تماماً هذه المرة، وعليه فلا أمل في

عودتها. والثاني أنها تمكنت من نقل نفسها مرة ثانية خارج المعزل، حيث عثرت بالصدفة على روبوت ما ما زال ملقى كمخلفات.. نظن أن ما يجذبها ليس أحفاد يوسف، على العموم بل هي آلاء بالذات.

تساءلت آلاء: لم؟

ـ أنتِ الأقوى جينياً من جهة الأبوين.

غمغم رامي: هذا صحيح.. فريد هو قريبنا.

قالت آلاء: ولكن الإمبراطور حاول إعدامي.

قال غسان: فضل التخلص منك على الانضمام إلينا.. إنه يبقيكم أحياء على سبيل الاحتياط، ربما تمكنت الآدمن الأصلية من الهرب أو ربما يحتاج إلى جيناتكم يوماً لإصلاح الخلل في بيامترِ.

ـ من أنتم؟

ـ مجموعة من أجهزة المخابرات للعديد من الدول الرافضة للخضوع له اتحدت معاً باسم المؤسسة.

مضت لحظات صمت أخرى والكل يفكر بعمق ويحاول استيعاب كل ذلك الكم من المعلومات، ثم قالت آلاء: وما دوري أنا في كل هذا؟

احمر وجهه وبدا عليه شعور غريب بالذنب، فنظرت إليه آلاء بنظرة ساخرة ملومة وقالت: يا الله.. ماذا تخفي الآن؟ هل تتضمن خطتك تحويلي إلى معلومات على شريحة وقتلي؟

انتفض غسان ونظر نحوها وقد احمر وجهه قليلاً.. إنها أذكى بكثير مما كان يظن.

غمغم: هناك خطتان.. الأولى اصطحابك إلى مصر حيث فرع بيامترِ المغلق وسنحاول تشغيل الفرع ولو لدقيقة آملين في جذب الآدمن من خلالك.

ـ وإذا لم تظهر الآدمن؟ ما هي الخطة الثانية؟

تحاشى النظر إلى عينيها لوهلة، فقالت إيلين: نحن جميعاً نرغب في القضاء على الإمبراطور.. أعدم والدتي وأخوالي وجدي وأنا طفلة، وقد رأيت جثثهم معلقة على أعمدة الإنارة بعيني في مشهد لن أنساه أبداً.. مازن أيضاً فقد والده وأخاه الكبير، وكاد يفقد حياته لولا أن تبناه فريد.. رامي فقد رفاقه كلهم وجيرانه وشقيقته، بل ووضع في السجن لسنوات.. حتى كريم كاد يفقد أخته بتهمة لا أدلة كافية فيها.. نريد التخلص منه خاصة الآن وقد عرفنا أنه ليس إنساناً كي نتردد.

تنهد فخرج بخار الماء من فمه وقال: كي نتخلص من الإمبراطور لا بد من آدمن تسيطر على البرنامج وتمحوه.. الآدمن ستكون آلاء.. بالتقنية نفسها سيتم نزع كل ما في دماغها لتحويله إلى رموز ومعلومات على شريحة.. أي أنها يجب أن تموت.

انتفض جسد رامي ونهض كريم صائحاً في عصبية: ماذا قلت؟

استدار ينظر إلى آلاء التي دمعت عيناها وضغط على أسنانه.. يشعر بأنه أحقر مخلوق على وجه الأرض وهو يسوقها إلى حتفها بينما وضعت ثقتها

به.. حياة إنسانة واحدة مقابل حياة أوطان وملايين البشر.. إنسانة طيبة رائعة ولكنها تظل إنسانة واحدة.. هذا ما ردده لنفسه منذ التقى بها وأدرك إعجابها الخجول به فلا عجب أن تبكي الآن.. لا يريدها أن تسامحه أبداً.. فلتقتص منه في الآخرة ولتدفعه لجهنم فهو يستحق ذلك على أي حال.

قال كريم: سأعود مع أختي إلى المعزل.. هذا قراري النهائي.. عمو رامي؟

أجاب رامي: معك.

قال غسان: الإمبراطور سيقتلها في نهاية الأمر.. كيف تفكر في إعادتها له.

هتف مازن في عصبية: والحل إذاً؟

تساءل رامي باهتمام: ماذا عني؟ أنا أحمل جينات جدي الأكبر.. هل أصلح بديلاً عن آلاء؟

أجاب غسان: آلاء هي المرشح الأقوى لأنها تحمل الجينات من جهة الأبوين، وحتى الإمبراطور يدرك ذلك وقد فضل قتلها على أن نحصل عليها.. بيامتر لا تعمل جيداً مع الإمبراطور حالياً وستستجيب بشكل أفضل لمن تحمل أقرب جينات للآدمن القديم ولمؤسس البرنامج نفسه وواضع قوانينه وبرمجته.

تمتمت آلاء أخيراً: تريد مني أن أقرر الموت كي أنقذ العالم؟.

هنا قالت إيلين: لا يريد ذلك وإلا ما أخبرنا بالحقيقة.

نظر الجميع اتجاه غسان بتساؤل فقال: أنا لن أُقدم على فعل يضر آلاء.. إذا فشلت الخطة الأولى فسنهرب معها.. إلى الصحراء.. إلى أي مكان.. كوكب الأرض كبير.

تساءلت آلاء: ألن يضرك هذا؟

نظر إليها أخوها وخالها باستنكار وغمغم غسان: مجرد وظيفة سأخسرها.

همست إيلين في أذن آلاء: أفضل من أن يخسرك.

***

تساقطت الأمطار بشكل غزير منذ المساء وحتى اقتراب الشروق، فنهضت آلاء من فراشها وغادرت إلى الشرفة الصغيرة المطلة على مساحة خضراء رائعة الجمال وتأملت السماء متسائلة متى تتوقف الأمطار.. لا تصدق أنها غادرت المعزل.. الحلم الخفي الذي تمنته دوماً ولم تجرؤ على البوح به حتى لنفسها.. كانت دوماً تنظر إلى خارطة العالم في الكتب باشتياق.. لمحت غساناً يتحدث إلى الصياد وشعرت بلسعة برد رغم ارتدائها ثياباً شتوية محلية وهي جلباب ملون يسمى (الباتيك) وأسفل منه سروال وقد ابتاعها الصياد لها ولإيلين كما ابتاع لها حجاب شعر أندونيسياً جميلاً.. عادت إلى الحجرة وغمغمت: إنه يبالغ في الحديث عن الشتاء رغم ذلك.. ليس الطقس بارداً إلى هذا الحد.

ونظرت نحو إيلين التي غرقت في نوم عميق وبدت سعيدة.. من الواضح أنها تحلم بخنق الإمبراطور، ثم سمعت طرقاً خفيفاً على باب الحجرة.. توجهت نحو الباب وتمتمت بصوت خفيض: من؟

أتاها صوت غسان: أنا غسان.. أيمكنك القدوم إلى المطعم؟ هناك أمر مهم.

ـ حسناً.

عدلت ثيابها وطرحتها ثم هبطت إلى الطابق الأرضي وتوجهت إلى المطعم في حرج.

كان غسان يجلس شارداً إلى أحد الموائد، والمطعم شبه خال في هذا الوقت المبكر، فتوجهت نحوه وجلست إلى المائدة فقال : أردت الاعتذار على كل شيء.

ـ ....

ـ لقد قتل والداي في أحد المعارك مع جيش الإمبراطور.. قبل أن أعرفك كنت أفكر.. عدد الذين قام بإبادتهم حتى الآن ملايين.. شخص بتلك الحقارة والإجرام يسيطر على أقوى مشروع ذكاء صناعي عرفته البشرية.. إن كان هناك أمل ولو بنسبة ١٪ أن ننتصر عليه فسنتمسك به.

ـ ....

ـ على كل أردت الاعتذار حقاً.. أتمنى أن تسامحيني يوماً.. من الآن لن أسمح لمخلوق أن يؤذيك بأي شكل.

كان مرتبكاً ويغمره شعور الذنب، فقالت: قبلت اعتذارك.. ولكن لا تكذب علي ثانية أبداً.

شعرت بحركة غير عادية ثم لمحت عدداً كبيراً من الحرس يقتحمون الفندق، فقال غسان: لا تتحركي.. انهضي بهدوء، لنغادر من الباب الخلفي قبل أن يُقبض علينا.

ـ وماذا عن البقية؟

ـ لا خطر عليهم لا تقلقي.. ليست هناك تهمة ضد أخويك، والإمبراطور لن يقتل رامي.

ـ وماذا عن إيلين؟

همس: لا أستطيع مقاتلة كل هذا العدد من الجنود.. الحل هو أن نهرب.. لن نهزم الإمبراطور إذا قُبض علينا الآن.. أظنهم سيتمكنون من اللحاق بنا.

تبعته في صمت وقد أغرورقت عيناها بالدموع، وكان هناك حارسان على الباب الخلفي ودون كلمة أخرج غسان الأوراق المزورة وناولها للحارس وقال بالإنجليزية: أنا وزوجتي سائحان من الولايات المتحدة الأمريكية.

نظر الحارس في شك إلى حجاب آلاء فقال غسان: نحن مسلمان.

أدخل الهويات إلى الجهاز للتأكد من صحتها ثم أعادها بصمت، وظل يرمقهما في شك وهما يبتعدان، وتناهى إلى مسامع الجميع أصوات طلقات نارية مع سب ولعن من طرف أحد الحراس بالأعلى فتحفز الحارسان، وهمست آلاء: أنت قلت أن لا خطر عليهم.

لم يتكلم وظل يسير بجوارها بصمت حتى التقيا خارج الفندق بالصياد، ثم وصلا إلى حيث تقف عبّارة مائية محملة بالسكان المحليين، وقال: ستقلكما إلى العاصمة.

صعدت آلاء ثم صعد وجلس بجوارها وتحركت العبارة مبتعدة وقالت: إذا إصابهم أذى فلن أغفر لك أبداً.

أجاب: فلنحرص على نجاح خطتنا إذاً بأسرع وقت ونتخلص من ذلك الشرير لإيقاف تلك الدائرة التي لا تنتهي من الخراب والقتل.

ثم نهض ليقف بالقرب من سور العبارة ويتأمل المياه وهو يغمغم: سيلحقون بنا بإذن الله.

***

عندما اقتحم الجنود المسلحون الأربعة الغرفة بغتة بعنف وهم يشهرون أسلحتهم انتفضت أجساد الجميع من المفاجأة، وتذكر مازن أن سلاحه ما زال بحوزة إيلين فضغط على أسنانه وهو يرفع يده مستسلماً، وصاح قائد الحرس بالإنجليزية: أوراق هويتكم؟

في الحجرة المجاورة اقتحم الحرس المكان وكان عددهم أربعة ثم وقفوا في حيرة لثوان لأن الحجرة كانت خالية، وقال قائدهم: فتشوا الحجرة جيداً.

بدأت عملية تفتيش عصبية.. ولو أن أحدهم رفع عينيه إلى السقف لوجد إيلين تثبت نفسها بين نتوءين فيه وقد كتمت أنفاسها وبحذر وهدوء شديدين مدت يدها إلى جيب السروال لتصل إلى السلاح، فتنبه حارس فرفع عينيه إلى أعلى وقبل أن يفتح فمه انطلقت أول طلقة لتصيبه في بطنه، وعلى الفور هبطت إيلين برشاقة لتطلق طلقة أخرى في صدر الحارس الثاني، واستدارت لتطلق الثالثة على كتف الثالث وقدمه ثم دارت لتركل

رئيس الحرس في ذراعه وتطيح بالسلاح من يده قبل أن توجه ركلة بقدمها الأخرى إلى ذقنه ثم طلقة إلى ركبته اليمنى، وتغلق باب الحجرة بالمفتاح، وتسرع إلى الشرفة وأصوات السب تصلها من الحارسين القادمين من الحجرة المجاورة وهما يحاولان تحطيم باب الحجرة، وقالت وهي تستعد للقفز من الشرفة: الرجال في الحجرة المجاورة لا نفع منهم.

وقفزت من شرفتها إلى شرفة الحجرة المجاورة فاستدار إليها الحارسان المتبقيان في الحجرة، وعلى الفور استغل مازن الفرصة فأسرع يوجه لكمتين إلى الحارس القريب، بينما التحم كريم مع الآخر في صراع، وبسرعة ودون تضييع الوقت قفزت إيلين داخل الحجرة وصاحت في رامي: انخفض.

ففعل ووجهت طلقتين في الصدر نحو الحارسين اللذين تركا باب حجرتها وأسرعا بالعودة إلى هنا.

صاحت إيلين لا تقفوا مذهولين.. فلنهرب بسرعة من هنا.. سنقفز من الشرفة.. ليست مسافة بعيدة وهناك شرفة أسفل منا.. تحركوا قبل أن يصعد بقية الحرس.

هتف مازن: أعيدي السلاح.

ناولته سلاحه ثم أخذت سلاح أحد الحراس وألقته إلى كريم ليسقط أرضاً وغمغم الأخير: أنا.. لا أستطيع استخدام الأسلحة.

قال رامي: لقد تدربت قديماً أبان الحرب على استخدامها ولكنني لم أستخدمها قط.

وتناول السلاح من الأرض بتردد فأخذت إيلين سلاح حارس آخر، وأسرع الجميع إلى الشرفة ليقفزوا منها إلى حديقة الفندق، وأطلقت إيلين النار من جديد على حارس يقترب منهم ثم على آخر وهتفت: فلنسرع.

أسرعوا مغادرين الفندق، وكانت هناك حافلة تقف قريباً فهتفت إيلين: هيا.

وصعدت إلى الحافلة ووضعت السلاح على صدغ السائق الذي اتسعت عيناه بذعر، بينما صاح الركاب في خوف وبلهجة آمرة هتفت: فليهبط الجميع الآن.. وأنت انطلق بالحافلة بأقصى سرعة.

أذعن السائق للأمر وانطلق بينما رمق كريم الفتاة الشرسة في ضيق، فقالت ببرود: لا أحد من الحرس أصيب في مقتل فلا تنظر إلي هكذا.

لم يعلق أحد ثم غمغم رامي: ماذا عن آلاء وغسان؟

أجاب مازن: لم يكن غسان في الحجرة.

وقالت إيلين: ولا آلاء.. المرجح أنهما تمكنا من الهرب.. علينا أن نسرع باللحاق بهما.

ثم ضغطت بفوهة السلاح على صدغ السائق وقالت: إلى العبارات المتجهة إلى جاكرتا.

وقالت آمرة البقية: راقبوا الطريق.. إذا تبعنا أحد أطلقوا النار.

تمتم مازن: لا أصدق أن أيدن يحبها.

وصلوا إلى مكان ركوب العبارات بعد دقائق نظراً لقربها من الفندق ولسرعة السائق وقالت إيلين: أخفوا الأسلحة وأسرعوا قبل أن تغادر العبارة.

وقالت للسائق: أعطني نقوداً.

ناولها الرجل محفظة النقود بيد ترجف، فناولته خاتماً ذهبياً صغيراً ترتديه في خنصرها وقالت: ثمناً لما سببته لك من خوف ومقابل المحفظة.

أسرعوا ركضاً نحو العبارة قبل أن يتم رفع المعبر، وانطلقت بهم في المياه، ولمحت إيلين من بعيد الحرس وقد وصلوا إلى المكان وغمغمت: فلنأمل أن يكون موعد العبارة القادمة خلال ساعات.

***

قال أيدن لوالده وهو يدلف إلى مكتبه: هل طلبت رؤيتي يا أبي؟

صاح رسلان: هل قدمت طلباً للتطوع في الحملة القادمة خارج المعزل؟

أجاب بهدوء: أجل فعلت وتم قبولي في فرقة البحث عن الهاربين.

ـ لم لم تستأذن مني أولاً؟ وكيف تعرض نفسك للخطر في الخارج حيث المرضى المتوحشون؟

ـ على أحد ما أن يواجههم.. وأنا أريد العثور على صديقي الذي أُخذ رهينة إلى الخارج.

ـ فقط؟

لم يجب أيدن فقال رسلان وقد احتقن وجهه في غضب: أجب.. هل تفعل كل هذا من أجل تلك الفتاة؟

قال أيدن: أيضاً لا أريد أن يكون والدي في تلك الحملة بمفرده.

ـ لا تتهرب من الإجابة.

ـ ما جدوى هذا النقاش؟ لا يمكن التراجع أو الاعتذار عن الحملة.. وأنت أيضاً في تلك الحملة.

ـ أنا لم أتطوع.. لقد كان أمراً مباشراً من مولانا الإمبراطور.. وأنا في الجزء الثاني من الحملة وربما لن نكون معاً.

ـ بعد إذنك.. علي الاستعداد، فالفرقة ستنطلق خلال أيام.

وغادر المكتب فالقصر، وحاولت والدته إثناءَه عن الأمر ولكنه طيب خاطرها ببعض الكلمات وتحجج بوجود والده في الحملة ثم غادر وفي طريق عودته إلى منطقة سكنه وجد ذلك الرجل الأنيق القلق يقف أمام منزله فقال: سيادة رئيس الحكومة.. مرحباً بك يا سيدي.

أجاب فريد: أريد التحدث معك في أمر مهم.

أشار إليه أيدن كي يدخل إلى المنزل وتبعه ثم قال باسماً: هل أعد بعض السحلب يا سيدي؟

قال فريد باسماً: مشروب مازن المفضل.. كان المفضل لدى والده رحمه الله كذلك.. لا .. بعض الماء فقط.

كان وضع المعزل أن من يولد في منطقة معينة في المملكة لا يمكنه الانتقال إلى منطقة أخرى بدون تصريح سواء للعمل أو العلاج، ولا يمكنه أن يعيش في منطقة أخرى أعلى بدون ترقية وتزكية من ذوي النفوذ.. وجميع منتجات المعزل من طعام وشراب وثياب وغيرها كان يذهب أولاً إلى المنطقة (١) حيث يتم انتقاء الأفضل والأجود، ثم تذهب البقية إلى المنطقة (٢) وتليها المنطقة (٣)، وهكذا يستمر الأمر حتى تتلقى

المناطق الفقيرة (٦) و(٧) و(٨) فتات المناطق الأخرى وما يتبقى منهم من أردأ الأشياء التي يزهد فيها الإنسان العادي، فكانت تلك المناطق تعاني الفقر ويعيش فيها الناس بلا أمل في الغد ولهذا قاموا بثورة قضى عليها الإمبراطور ولكن الأمور بدأت في التحسن أخيراً، ومنذ تولى يوسف رئاسة الحكومة وكان رجلاً مستقيماً يعيش على مبادئ وقيم صارمة لا تتزحزح فلم يستطع الأثرياء شراءه أو رشوته.. وهكذا وضع قانوناً لرفع الأجور في تلك المناطق وتحسين نوعية الطعام والعلاج وبرامج لدعم الأسر. وهكذا انقسم الناس في المعزل حوله ما بين اعتباره بطلاً أو عدواً. وبالنسبة لأيدن كان بطلاً.

قال يوسف وهو يتناول كوب الماء: شكراً لك.. أريد الحديث معك في مسألة مهمة.. تعلم أن ثلاثة من أبنائي الآن خارج المعزل، لا أعرف عن مصيرهم شيئاً.

وأخرج من جيبه ورقة كتبت عليها بعض العبارات، وفردها أمام أيدن وهو يكمل: أنت ستذهب مع الحملة القادمة.

قرأ أيدن المكتوب في الورقة: «تكلم بصورة طبيعية.. هل يمكنك مساعدتي في التسلل إلى الحملة القادمة رجاءً.. سأتنكر في زي جندي وستتظاهر بأنك راجعت أوراقي.. سأتحمل المسؤولية كاملة»

رفع أيدن بصره نحو فريد الذي عاد يقول: أريدك أن تحرص على عودة أبنائي سالمين.. أنا سأظل هنا أدعو لهم ولك بالعودة السالمة.. هل يمكنك أن تعدني بذلك؟

ـ أ.. أجل بالطبع.

وبحث عن ورقة وقلم بدوره وقال وهو يكتب: بالطبع فمازن صديقي وكريم وآلاء أخوته.

ورفع الورقة أمام عيني فريد وقد كتبت فيها عبارة واحدة: أجل.

ابتسم فريد في امتنان وقال: شكراً لك يا بني.. سأستأذن الآن، فلدي أطنان من العمل وأنا مرهق حقاً.

ـ إلى اللقاء يا سيدي.

***

تأملت آلاء الحجرة الصغيرة في العبارة التي تحوي سريرين أحدهما فوق الآخر وحوض للأغتسال.. قال غسان في حرج: الرحلة ستستغرق حوالي خمساً وثلاثين ساعة.. سأمكث بالخارج ويمكنك أنت البقاء هنا.

وتناول غطاء أحد الأسرة وغادر، فشعرت آلاء بشيء من تأنيب الضمير خاصة وأن الأمطار عادت تتساقط، فلا شك أنه سيصاب بنزلة برد شديدة ببقائه على سطح العبارة، ولكنها لم تجد حلاً آخر، فلن تسمح له بالبقاء معها في الحجرة نفسها، ثم إنها غلطته لأنه هرب معها وترك البقية خلفه.. أما غسان فقد صعد إلى الأعلى في هذا الطقس البارد والرياح الشديدة مع سقوط الأمطار وكان العاملون قد فتحوا المظلات فوق المقاعد فجلس إلى أحدها وتدثر بالغطاء وراح يرمق أمواج الماء الثائرة ثم استدار عندما قالت إيلين من خلفه: هل تدمع عيناك لشعورك بالذنب بعد التخلي عنا؟ أم بسبب البرد؟

تقف في تحد وبجوارها البقية.. جميعهم بخير.. تهللت أساريره وقال بصدق: أنتم بخير وتمكنتم من اللحاق بنا.. حمداً لله.

قال رامي بصرامة: غير مسموح لك باصطحاب آلاء وحدك بهذا الشكل.. نعلم أنك لا تملك خياراً هذه المرة، ولكن في المرة القادمة احرص على هروبنا جميعاً كفريق واحد.

تساءل كريم: أين آلاء؟

أجاب غسان: الحجرة رقم (٧).. ماذا عنكم؟

أجابت إيلين: حجزت غرفة.. معنا أسلحة كذلك حصلنا عليها من الحرس.

***

صاحت آلاء وهي تقفز إلى حضن خالها: أنتم بخير.. حمداً لله.. حمداً لله.

ابتاع غسان بعض الأطعمة المغلفة من مقصف العبارة فأكلوا بصمت ونامت بعدها الفتاتان في غرفة وتوجه الرجال إلى الغرفة الثانية وفي اليومالتالي حاول الجميع التصرف بشكل طبيعي قدر المستطاع وقال غسان: المشكلة أن البقية بلا أوراق.. سأحاول التواصل مع أحد رجالنا في جاكرتا.

وصلوا أخيراً إلى العاصمة وتوقفت الأمطار كذلك وأشرقت الشمس وغادر الجميع بهدوء وقال غسان: هناك شوارع داخلية سنسير منها حتى لا يعترضنا جنود أو نقاط تفتيش أمنية.

تبعوه في صمت في شوارع ضيقة غريبة شبه صامتة مهملة وتناهى إلى مسامعهم صوت طلقات نار وهم يمرون من شارع جانبي إلى آخر عبر شارع رئيسي وألتفتت آلاء جهة الصوت لتجد مجموعة من جنود الإمبراطور يطلقون النار على أشخاص متجمعون من بينهم نساء وأطفال.. الغريب أن المارين أكملوا سيرهم بصورة عادية وكأنه من الطبيعي إطلاق النار على الناس هكذا في وضح النهار وحتى الضحايا لم يبدو أي مقاومة.

همس غسان: هذا إعدام للمرضى.. إنهم في المرحلة الأخيرة من المرض لذا لا يتحركون أو يقاومون.

غمغم كريم: هذه وحشية.. حتى وإن كان المرض بلا علاج.

قال غسان: في الخارج هناك مرضى وحاملي مرض وبعض الأصحاء ولكنهم قلة.. حاملي المرض منهم من ولد هكذا ومنهم من نجح جسده دون سبب في تحجيم الفيروس وأنا منهم ولكن الإمبراطور يحاول قتلنا أيضاً.

تملك الحماس كريم خاصة وأنه يعمل باحثاً فقال: ماذا عن الأجسام المضادة في دمكم؟ ماذا عن..

قاطعه غسان: جربنا.. إن التقدم التكنولوجي قد تراجع كثيراً بسبب الوباء ولكن ما زال لدينا بعض العلماء.. حتى الآن لا علاج والتطعيم يفشل في معظم الحالات.

وصلا إلى سوق مزدحم بالمارة ودلف غسان إلى أحد المحال التي تبيع الثياب المحلية وقال باسماً لصاحب المحل الواقف: مرحباً.. نريد أن نرى بعض الثياب الخاصة.

أشار صاحب المحل أشارة صامتة إلى حجرة جانبية فدلف إليها غسان وتبعه الجميع في صمت وحيرة

ثم أغلق صاحب المحل الباب وعلق لا فتة وتبعهم وقال بالإنجليزية: للذهاب إلى مصر لا وسيلة مواصلات سوى القطار.

غمغم غسان مهموماً: سوف يمر على ماليزيا ثم تايلاند ف بورما ثم الهند ثم باكستان ثم أيران ثم العراق ثم سوريا ثم الأردن ثم مصر.

هتف الجميع مستنكرين: ماذا؟

أجاب: القطار هو الوسيلة الوحيدة المتاحة فلم تعد هناك طائرات في هذا العالم ولا يمكن قطع تلك المسافة بسيارات.. لقد ترك الإمبراطور القطارات تسير في رحلاتها بصورة عادية بين الدول سواء التي سيطر عليها أم لم يسيطر سعياً لتحسين سمعته وتخفيف العداء اتجاه حكمه.. فقط هناك فحص دم ونقاط تفتيش للأوراق.

قال صاحب المحل: سيتم اعداد الأوراق للجميع.

عاد غسان يطمئنهم: بالنسبة لفحص الدم فأنتم أصحاء وأنا نتائجي يتم تزويرها عن طريق المخترقين التابعين لنا دوماً.. الدول التي لم تخضع له بعد ستسهل علينا المرور عندما يتم أعلامهم بهويتي الحقيقية والدول التي خضعت له فيها خلايا مقاومة سرية تتعاون معنا.

جلست إيلين على الأرض وقالت: لا أفهم لم يريد هذا المعتوه السيطرة على العالم؟

أجاب غسان: ولم لا؟ ألم تسمعوا من قبل عن مصطلح (الكونقراطية).. ألم يخبرنا التاريخ بوجود أشخاص رغبوا في ذلك بالفعل مثل هتلر وبونابرت وجنكيزخان ويوليوس قيصر وسواهم.. ألم تسعى إمبراطوريات للسيطرة على العالم بأسره.. الآن الفرصة الذهبية بعد أن حطم الوباء العالم والدول والجيوش في القرن المنصرم.

تساءل كريم في حذر: وماذا سيحدث عندما نصل إلى مصر؟

ـ سنذهب وحدنا إلى فرع بيامترِ ونأمل أن تكون الآدمن الأصلية ما زالت موجودة.. إن فشلنا فسأعملَ على مغادرتكم بسلام لا تقلق.

***

(٨)

عقد الإمبراطور حاجبيه وهو ينظر إلى أحد العاملين في القصر وقال: طلب رئيس الحكومة إجازة؟

ـ أجل يا مولاي.. سيتولى مساعده مهام عمله.

ـ لم يفعلها من قبل قط منذ تولى وظيفته.. هل أوضح الأسباب؟

ـ يقول أنه متعب صحياً وسيذهب للفحص ويحتاج لبعض الراحة.

ـ هممممم

ثم هز رأسه وقال: أعطني الطلب لأكتب الموافقة.

وقع بموافقته بقلم ألكتروني ثم ناول الورقة للعامل وأشار إليه كي يغادر وظل يفكر قليلاً ثم قال: بيامترِ...فلنتتبع حركة رئيس الحكومةبالأمس.

واعتدل في جلسته بينما الشاشة في عينيه تعرض ما طلب ثم غمغم: ذهب للقاء أيدن.. فلنفرغ المحادثة

بينهم.. هناك أجهزة تنصت على أعمدة الكهرباء في المنطقة.. حاولي توضيح الصوت داخل المنزل قدر المستطاع.

استمع إلى محادثتهما ثم مط شفتيه وقال: حسناً.. لا شيء مريب.. حان وقت الاتصال بأستريد.

ظهرت أستريد على شاشة مجسمة أمام العرش وقالت: مولاي الإمبراطور.. لقد تتبعت الفتاة ورفقتها.. لقد وصلوا إلى جاكرتا على متن عبارة والآن جاري تتبعهم هناك.

ـ أبلغيني بالمستجدات.

ـ أجل يا مولاي.

***

حدق مازن في جهاز التلفاز الموضوع في حجرة المعيشة.. كانوا قد انتقلوا إلى شقة صغيرة بالقرب من محطة القطار خاصة بالمؤسسة تم فحصها أمنياً وقام غسان بجولة حول البناية للتأكد من عدم وجود مراقبين أو جواسيس ثم عاد إلى المنزل وسمع رامي يقول: أنهم يسمحون للمواطنين بالحصول على شاشة في بيوتهم.. ولكنها شاشة غريبة.. لم هي منتفخة هكذا؟

قال غسان باسماً: هذا جهاز يسمى التلفاز كان منتشراً في جميع البيوت في القرن العشرين.. إنه مثل الراديو لديكم في المعزل ولكنه يعرض صور مع الصوت.. إنه النسخة القديمة من التلفزيونات الذكية.

سألت إيلين في فضول: ومن هؤلاء؟

كان التلفاز يعرض الآن مسلسل أسيوي فأجاب غسان: هذا مسلسل.. نوع من الفن يشبه المسرح لديكم في المعزل.

وألقى نظرة سريعة على آلاء التي كانت جالسة تقرأ كتاباً باللغة الإنجليزية ابتاعه لها بعنوان (الذكاء الصناعي) من مكتبة قريبة تبيع

الكتب المستعملة، ووضع الطعام الذي ابتاعه على المائدة ثم أخرج من جيبه هاتف خلوي وقال: هذا لك.

ووضعه بجوار مقعد آلاء فتركت الكتاب وتفحصت الهاتف ثم قالت: هذا هاتف خلوي.. رأيته مع والدي من قبل.. ولكنه صغير الحجم وبه أزرار.. هل يسمحون هنا للمواطنين بحمله؟

أجاب: أجل.. الشبكة ضعيفة معظم الوقت وكذلك الأنترنت ولكنه سيؤدي الغرض.سنتواصل به إذا حدث وتفرقنا.

وناول واحداً آخر لرامي وقال وهو يلوح بثالث: هذا سيبقى معي.. بعد تناول العشاء سأعلمكم استخدامه.. ليس حديثاً كالذي يمتلكه أعضاء الحكومة في المعزل.

ضغط غسان زر تغيير القنوات لتظهر على الشاشة مشاهد لفيلم رعب أمريكي (الموتى الأشرار) فاتسعت عيون الجميع في رعب وصاح مازن: إنهم المرضى.. إنهم يهاجمون...

قاطعه غسان: إنهم ممثلون في فيلم.. تلك الملامح مجرد مكياج متقن الصنع.. المرضى لا يبدون هكذا على الإطلاق.. كي تعلموا أن ما كان يُعرض عليكم داخل المعزل في الكُتب أو الشاشات العامة هو محض كذب.. وصور مسروقة من أفلام قديمة.

قالت آلاء: لم أفهم الكثير من الكتاب.. الخلاصة أنه على هديل الوصول إلى النظام وإعادة نفسها كمديرة بيامترِ ومحو الإمبراطور.

قالت إيلين: كم أتمنى أن أكون أنا من يمحوه.. سأضحك في تشفٍّ وأنا أراقب اختفاءه.

قال غسان: غداً بعد الفجر سنتجه إلى محطة القطار لنخضع لفحص الدم ونحصل على تصريح السفر.

سأل كريم: ماذا إن اكتشفوا وجودنا من تحليل الدم؟

ـ يحللون وجود الفيروس فقط.. بيامتر لا تعمل خارج المعزل.. فهو يخشى فقدان السيطرة عليها أو أن نتمكن نحن من السيطرة عليها؛ لذا جميع فروعها مغلقة.. وهو في المقابل يخسر الكثير من الرقابة والمعلومات.. لذا كاميرات الشوارع لا تحللنا، هي فقط تنقل صورنا، ومحاولته التجسس على الهواتف ننجح في التصدي لها في كثير من الأحيان.

في المساء عندما غط الجميع في النوم اتصل غسان بمديره عبر الهاتف وهو يرمق الشارع من الشرفة، حيث بدأ جنود الإمبراطور يكومون جثث المرضى المقتولين، ثم يشعلون النار فيها وسط الشوارع كي تصل الرسالة كاملة للناس.. فيزداد سخط الناس وخوفهم.

جاء صوت المدير الصارم يقول: مرحباً غسان.. اطلعت على تقريرك.. كان يُفترض بك اصطحاب الفتاة فقط لا أسرتها.

ـ حدث هذا قدراً.. ولكنهم متعاونون ويرغبون في المساعدة.. اثنان منهم مدربون على القتال واستخدام الأسلحة وآخر طبيب، وهناك باحث لديه الكثير من المعلومات عن الفيروس.

ـ والفتاة؟ المهم هو حماية الفتاة، وألا يتدخل هؤلاء في الخطة.

ـ .. أجل.

ـ أنت متردد.. لا تضيع سنين التخطيط من أجل مشاعر نبيلة، هل تظن أننا سعداء فخورون لما سنفعله بها؟ ولكن لا توجد خطة بديلة.

ـ امنحني فرصة للعثور على واحدة.

ـ أحضر خطة بديلة ناجحة وسنقبل بها.. إن لم تجد فلا بأس.. احصل على إجازة لتريح أعصابك ودع لنا استكمال الخطة.

بعد تأدية صلاة الفجر تحرك الجميع إلى محطة القطار المدججة بالحرس وقد تقلصت وجوههم من الهواء المفعم برائحة الجثث المحترقة.. معهم أوراق هوية مزورة بإتقان تقول أنهم مواطنون من مصر جاؤوا للعمل مع منظمة طبية متطوعة من أجل الفقراء وللسياحة ثم العودة.

في حجرة الفحص قام الطبيب بأخذ عينات دم منهم وتحليلها ثم حصلوا على أذن السفر وتم تفتيشهم عدة مرات حتى وصلوا إلى داخل المحطة ووقفوا ينتظرون القطار بينما الحرس ينظرون إليهم بشك من وقت لآخر.. غمغم مازن: عددنا يجذب الانتباه.

وصل قطار جذاب الشكل له لون يميل إلى الأزرق مكون من طابقين كما يبدو للناظر ووقف في المحطة ثم فُتحت أبوابه مع صوت في المكبرات يقول بالإنجليزية: على المسافرين المتجهين إلى الدول...

وراح يعدد الدول التي سيمر عليها القطار.

دلف الجميع وقال غسان وهو يرشدهم: من هنا.

جلسوا على مقاعدهم وتأملت آلاء تلك السلالم الحديدية الأنيقة المؤدية للطابق العلوي عند بداية ونهاية كل عربة، وقال غسان: الطابق العلوي يحتوي على غرف النوم.. أرقامها على التذاكر...هناك مطعم في العربة رقم (٣) والعربة رقم (٨) بعد مرور الوقت أغلق القطار أبوابه وانطلق في رحلته.

***

وقفت أستريد أمام محطة القطارات وعاد أحد الرجال المرافقين لها ليقول: رآهم العاملون بالمحطة.. القطار غادر منذ ست ساعات.

قالت في غيظ: اللعنة.

ثم أجرت اتصالاً بالإمبراطور وقالت: مولاي.. لم تظهر الآدمن بعد ولا أظن أنها ستظهر.. آلاء على متن قطار متجه إلى المنطقة العربية وقد تحرك منذ ست ساعات.. أرى أن نلحق بها ونقتلها الآن بدلاً من الانتظار، وإلا خرجت الأمور عن سيطرتنا.

انتظرت أوامره قليلاً ثم أتاها صوته يقول: ستخرج فرقة للبحث الآن وسأعينك رئيستهم.. فجّري القطار بمن فيه إن احتجت لذلك.. مفهوم؟

ـ مفهوم.

وأنهى الإمبراطور المكالمة ثم نهض متجهاً خارج القاعة وهرع مساعدوه خلفه لتلقي الأوامر فقال: لتخرج حملة البحث الآن.. مركبة

طائرة كبيرة تكفي حالياً وليغادروا خلال ساعة ويلحقوا بأستريد.. لقد عينتها قائدة لهم وعليهم اتباع أوامرها.. فلتحمل المركبة الحربية ثلاث مركبات صغيرة سريعة الحركة.

وكان أيدن جالساً إلى مكتبه فسمع صوت رسالة الاستدعاء تصل إلى الجهاز الصغير الذي مُنح له عند تطوعه للحملة، فأخرج الجهاز من جيبه ورأى الضوء الأحمر الصغير فغمغم: أخيراً.

ثم نهض مغادراً إلى منزله فارتدى ثياب الجندية ثم هرع بالترام إلى المنطقة المحظورة وقد علق هويته العسكرية على الثياب ومر بالإجراءات الأمنية حتى وصل إلى المنطقة العسكرية فأدى التحية العسكرية وقال: جئت للالتحاق بالفرقة الأمنية المغادرة لملاحقة الهاربين، فأنا أحد أعضائها.

وجلس في صالة الانتظار قليلاً قبل أن ينهض اتجاه الحمامات فدلف وأغلق خلفه الباب وأخرج زياً آخر من حقيبته فناوله لفريد الواقف بانتظاره وقال متسائلاً: والهوية؟

أجاب فريد : معي خاصتي.. لقد كنت في شبابي ضابطاً عسكرياً أجيد القتال وقيادة المركبات والدبابات.

ـ ولكنها سُجلت على البوابة وهكذا ستنكشف هويتك.

ـ دخلت بهويتي العادية بحجة التفتيش على الحملة، فأنا رئيس الحكومة وإجازتي تبدأ من بعد الغد.

ودلف إلى أحد الحمامات لتغيير ثيابه ثم غادر واضعاً الهوية وقال أيدن: ماذا عن عدد الفرقة؟

ـ لا تقلق.. لقد أرسلت أحد الجنود في مهمة وأعطيته إجازة من الحملة.. شكراً لك بالمناسبة.

ـ عفواً يا سيدي.. المهم أن ننجح في استعادة الجميع سالمين.

استعدت المركبة للإقلاع وقال ضابط تم تعيينه كقائد مؤقتاً: الهدف من حملاتنا دوماً هو التخلص من المرضى وإنقاذ من تبقى من الأصحاء وتحقيق الأمن والاستقرار في الدول خارج المعزل التي تعاني من الفوضى، ولكن هذه المرة نحن سنطارد مجموعة من الهاربين الذين أخذوا بعض مواطنينا رهائن وسعوا لنشر الوباء داخل المعزل، وسنكون تحت قيادة الرئيسة أستريد شخصياً.

تمتم فريد: تلك الأفعى.

في القصر اعتدل الإمبراطور في جلسته باهتمام لأن بيامتر قد التقطت تسجيل هوية لجندي كان يُفترض أنه في المركبة التي غادرت بالأمس.. لكنه الآن في مبنى رئاسة الوزارة يفعل شيئاً ما.

ونهض الإمبراطور وصاح آمراً: أرسلي للاستعلام عما يفعله هناك.. هل انطلقت المركبة بعدد ناقص؟

راح يراجع الكاميرات التي تصور صعود الجنود إلى المركبة ولكن ثيابهم والخوذة كانت تخفي ملامحهم بشكل كبير ثم جاءه الرد مكتوباً على

الشاشة في عينيه: رئيس الحكومة أرسله إلى رئاسة الوزراء لتوصيل رسالة كتابية إلى السكرتير وطلب منه أن يوصلها اليوم وأعفاه من الحملة.

اتسعت عيناه في جنون ثم صرخ: اللعنة.. اللعنة.

وأسرع يتصل بأستريد وهو يغمغم لنفسه: بيامترِ أيتها الفاشلة.. كيف لم تلاحظي عدم مغادرة رئيس الحكومة للمنطقة المحظورة بعد دخولها وأن من غادر في سيارته هو الجندي.. ألو.. أجل يا أستريد، فريد قد غادر المعزل مع المركبة القادمة إليك.

هتفت أستريد: أعلم، فقد أعلن عن هويته عندما وصلت المركبة وحصل على أحد المركبات الثلاثة الصغيرة وانطلق بها مغادراً منذ قليل.

ـ أريده حياً.. أعطي التعليمات للجميع.

ـ أجل يا مولاي.. سنلتقي به حتماً، فهدفنا واحد وهو الفتاة ورفاقها.

ـ نفذي إذاً.

وأنهى المكالمة.. أيدن ساعده على التسلل.. هؤلاء المزعجون يفسدون خططه.. لم يتبق أمامه سوى حملتين ويسيطر على العالم كله.. كم شخص يجب أن يُقتل حتى يحقق ذلك.

***

كانت الحجرة في القطار نظيفة وبها سريران مريحان ولكن إيلين جافاها النوم فتأملت آلاء التي كانت تنظر عبر زجاج نافذة الحجرة إلى العالم بالخارج الغارق في ظلام الليل وقد وضعت نهاية ضفيرتها في فمها

وراحت تضغط بأصابعها على قلادتها الذهبية المعلقة في جيدها ثم قالت: سأذهب للمطعم لتناول القهوة.. هل تريدين واحدة؟

هزت آلاء رأسها نفياً وعادت تحدق إلى الخارج.

غادرت إيلين الحجرة متجهة إلى الطابق السفلي ثم إلى المطعم فوجدت مازناً يجلس إلى أحد الموائد الصغيرة وأمامه قدح من القهوة وقد بدا شارداً، فاتجهت نحوه وجلست على المقعد أمامه وقالت: كيف حاله؟

رفع مازن عينيه إليها في ضيق ثم قال: تعرض لحروق.. كانت حالته حرجة ولكنه الآن بخير صحياً على الأقل.

أشارت إلى النادل وطلبت قهوة ثم قالت: كان بوسعك العودة إلى المعزل ولكنك قررت اللحاق بنا.

ـ يجب أن أروي فضولي في معرفة ما يدور.. ويجب أن أعيد كريماً سالماً أيضاً.

ـ بالطبع.. ستكون كريمة سعيدة للغاية بعودة أخيها سالماً.. أيدن يثرثر عنك كثيراً.

احمر وجه مازن قليلاً وقال في صرامة: لا تتجاوزي حدودك.

ـ إذاً لا تنظر إلي هكذا.. أنت تحتقرني حقاً بسبب ما حدث لأيدن ولسان حالك أنا أعرفك وأفهمك وأحكم عليك بينما أنت آخر من يحق له فعل ذلك.. أنت صديق أيدن رسلان.. لماذا صرت صديقه؟

رشف من قدح القهوة فوجده قد فرغ فأشار بعصبية إلى النادل وعاد يقول: كي أنتقم من والده.. أليس هذا ما تودين سماعه؟ كلا.. أنا لا ألوم

والده.. صرنا صديقين بعد عدة مواقف مررنا بها منذ سن مراهقتنا وحتى تخرجنا وعملنا.. كما أن من تسبب في مقتل والدي وأخي ليس رسلان فقد كان ينفذ الأوامر.

جاء النادل فطلب منه قدح قهوة آخر.

قالت إيلين ساخرة: دعني أخمن.. المسؤول طبعاً هو فريد عبد الكريم وليس الإمبراطور الذي أصدر الأوامر.. لا بد من شخص نلومه والأهم أن نكون قادرين على لومه.. لقد فعلها سكان المناطق السفلى بنجاح.. فريد وغد وخائن.. هو السبب في هزيمتنا ومقتل أحبائنا.. لأنهم لا يستطيعون رفع أعينهم حتى في وجه الإمبراطور.

قال مازن في عصبية: تعنين أنك لا تلومينه.. لقد تخلى عن قيادة الجيش واستسلم للإمبراطور وكان..

قاطعته بلهجة هادئة حزينة: لولا ذلك لما تم إنقاذ ألاف الأرواح أيضاً ولولا ذلك لما صار رئيس الحكومة وتمكن من تحسين حياة الناس في المناطق السفلى.. ألم يخطر في بالك أن تسأله عن سبب استسلامه ولو لمرة؟

جاء النادل بقدحين من القهوة مع كوبين من الماء وران الصمت لثوان ثم قال مازن: اشربي قهوتك بصمت وغادري.

أجابت ببرود: لا .. لن أفعل، فقد كنت أبحث عن فرصة للحديث معك بمفردنا.

ـ ماذا تريدين؟

ـ على الأقل أنا صادقة.. أحب أيدن ولكنني أمقت والده، ولهذا لن أتزوج منه.. أما أنت فتحاول إقناع نفسك بأنك تكره فريد وهذا غير صحيح.. لقد تبناك وغير اسمك رغم تحريم هذا الشكل من التبني، وأنقذ حياتك وأحسن معاملتك ومنحك العطف والشفقة ومشاعر الأبوة الصادقة.. أنت لا تكرهه حقاً ولكنك مستمتع بلعب دور الضحية الغاضبة.

ضرب مازن قبضته على المائدة كي تسكت وقال: غادري الآن.

مدت إيلين كف يدها اليمنى مفرودة نحوه بصمت فنظر إليها فقالت: ألم أخبرك أنني تدربت منذ سنوات على استخدام الأسلحة والدفاع عن النفس والهروب من المراقبة.. كيف كشف الجنود موقعنا في الفندق.. ثم تذكرت جهاز التتبع الذي يمتلكه المحققون.. أعطني إياه.. دعنا نتخلص منه بدلاً من أن تقتل نفسك ندماً.

لم يجبها ولكنه لم يدفع يدها بعيداً، وارتسم على وجهه تعبيراً غريباً من العناد ثم غمغم: أغلقته قبل الصعود إلى العبارة.. حسبت لوهلة أنني إن رأيت فريد كسير الفؤاد بعد فقده لعزيز عليه قد أستريح.. قد يخفف هذا من الكوابيس التي أراها ويمحو مشهد جثتي أبي وأخي.

ناولها الجهاز ففتحت النافذة الصغيرة المجاورة وألقت به واقشعر بدنها بفعل الهواء البارد، ثم أغلقت النافذة وقالت وهي تجلس: لقد كن..

ثم تجمدت وصمتت وهي تنظر إلى آلاء الواقفة مذهولة ثم زفرت آلاء زفرة أودعتها كل إحباطها وضيقها، فهتف مازن بسرعة: أنا نادم حقاً وقد

أوقفت عمل الجهاز في جاكرتا.. الأمر أنني كنت خائفاً فأنا لا أعرف غسان ولا أعرف عن العالم بالخارج سوى ما نسمعه طوال الوقت.

أجابت آلاء بصوت مبحوح: ولكنك تعلم بأنه سيتم إعدامي إن قُبض علي.

قالمازن: ولهذا أوقفت الجهاز.

ـ .... .. حسناً.

وفي الصباح الباكر كان الجميع جلوس على مقاعد الركاب ومن الواضح من ملامحهم أن مازن قد اعترف لهم واعتذر، وأما آلاء وبعد لحظات من اختلاس النظر إليها قالت: أنا بخير.. لست غاضبة.. اهدؤوا.

كان القطار يسير على سكة حديدية فوق جسر مرتفع بلا أسوار بينما يقع أسفله نهر بدا جميلاً مع انعكاس ضوء الشمس عليه، ثم اهتز القطار بغتة وبدا القلق على الركاب، ثم اهتز ثانية ثم ارتج بقوة.. بدا الذعر على وجوه الجميع.. وتخيلت هديل سقوط القطار من على هذا الجسر الشاهق إلى النهر، وقال غسان: إنهم يضربون القطار بالقذائف كي يتوقف السائق.

غمغم مازن: ليس أنا هذه المرة.

ـ نعلم.. الأرجح أن هناك فرقة خاصة تطاردنا غادرت من المعزل، فليست تلك أفعال الشرطة المحلية.. وصلنا لحدود تايلاند.. اتبعوني.

تبعوه حتى نهاية العربة وقام بفتح الباب ودلفوا إلى العربة التالية.. بدأ القطار يبطئ من سرعته استعداداً للوقوف قبل أن تفتك بهم مركبة

الإمبراطور.. من عربة إلى عربة ينتقلون ومن حسن الحظ أنهم منذ البداية لم يجلسوا في المقدمة فوصلوا إلى آخر عربة في القطار سريعاً، وبقوة فتح غسان باب مؤخرة القطار الذي توقف وقال آمراً: سنقفز.

هتفت آلاء مذعورة: هل أنت جاد؟ هذا انتحار.

ـ لا حل آخر.

قالت إيلين: سيفتكون بنا وبالركاب إن ظللنا في مكاننا.

وقال غسان محاولاً طمأنتها: لن نموت.. المسافة آمنة.. الأهم من ذلك.. عندما تصلين إلى النهر.. حاولي البقاء أسفل الماء والهروب من القذائف.. في حالة إذا ما افترقنا فلنلتقِ جميعاً في المتحف الوطني بالعاصمة بانكوك.. سأكون خلفك فلا تقلقي.

قالت آلاء: ولكن..

دفعها غسان فسقطت من أعلى الجسر صارخة في ذعر.. هذا حلم.. هذا لا يحدث لها.. ستستيقظ لتجد نفسها في سريرها ببيتها في المنطقة (٨)، ورغد تنعتها بالكسولة.. ثم اصطدمت بالماء وشعرت بالألم في أنحاء جسدها وراحت تغوص لأسفل وقد تملكها الدوار قليلاً.

في المركبة الإمبراطورية صاحت أستريد في انفعال نادراً ما كان يتملكها آمرة الجنود: اقفزوا إلى النهر خلفهم.. اقتلوهم وإلا قتلتكم أنا.

غمغم أحدهم: ولكن يا سيدتي.. ماذا عن الرهائن؟

ـ لا يهم سوى قتل الفتاة.. هيا نفذوا الأمر.. أبعدوهم عن الفتاة.

وصاحت آمراً قائد السفينة: اقترب قدر المستطاع من النهر وليتم إطلاق القذائف عليهم.

قال قائد السفينة مستنكراً: ماذا عن جنودنا الذين لحقوا بهم؟

ولكن أستريد صاحت: نفذ الأمر.

بينما في النهر حاولت آلاء السباحة ولكن المركبة الطائرة تقترب، ثم وجهت فوهة سلاح غريب الشكل نحوها فسارعت لتغوص في النهر ورأت سطح الماء يضيء بفعل القذيفة التي انفجرت بالقرب منها محدثة موجة دفعتها بعنف.. بدأت تتكون أمامها بقعة مظلمة.. أدركت أن قواها قد خارت وغاصت إلى أعماق النهر وقد انفجرت الدماء من جرح ما في جسدها ثم فجأة ودون مقدمات امتدت يد قوية تمسك بيدها وتسبح بها بسرعة بعيداً.. هل هو غسان أم مازن.. هذان الأحمقان.. ثم فقدت الوعي.

***

قبل ثلاث ساعات:

في المركبة العسكرية الطائرة مال فريد على أيدن الجالس بجواره وهمس: شكراً لك.. سأحاول اللحاق بالقطار الذي هربوا فيه.

ونهض وخلع خوذته وقال: مرحباً.. أظن أنكم تعرفون من أنا.

استدارت إليه العيون وقال أيدن: ماذا تفعل يا سيدي؟

قال القائد: سيادة رئيس الحكومة.. معنا هنا.

أجاب فريد وهو يعقد يديه خلف ظهره: أجل.. أقوم بعملية رقابة.

أسرع الحضور بتأدية التحية العسكرية، وقال فريد: أريد مفتاح واحدة من المركبات الصغيرة.

ناوله القائد المفتاح الإلكتروني باحترام فقال فريد: أوصل تحياتي لأستريد عندما تراها.

قال القائد في ارتباك: سيدي عفواً.. ولكن أليس من ضمن الهاربين ابنتك.

ـ هذا صحيح.. هل تريد القول أنني أحاول تهريبها وعرقلة عملكم؟

انتفض القائد وأجاب مرتبكاً: كلا طبعاً.

دلف فريد إلى الحجرة التي توجد بها المركبات الثلاث وصعد إلى واحدة وألقى حقيبته على المقعد المجاور وأدار محركها ثم انطلق بها مبتعداً وقد عقد حاجبيه في تركيز، فهو لم يقد تلك المركبات منذ سنوات، وانبعثت بغتة رسالة صوتية من المركبة: سوف يتم إغلاق نظام الملاحة بالمركبة.. سوف يتم إغلاق نظام الطيران بالمركبة خلال عشر دقائق.. الرجاء من السائق محاولة الهبوط ومغادرة المركبة.

ضرب فريد جبهته بيده.. كيف نسي أن الإمبراطور يستطيع إغلاق نظام المركبة حتى لا يتمكن أحد من الاستيلاء عليها.. إنه يقوم بتأمين ترسانته الطائرة بالذات لأنها مصدر قوته ضد من هم خارج المعزل.. زاد من السرعة أكثر وهو يفكر أين يهبط، وخلع الزي وأخرج من حقيبته سترة صوفية ومعطفاً وسروالاً وارتدى ثيابه الجديدة بسرعة، ثم هبط

بالمركبة بالقرب من حقل أرز هائل الحجم وغادرها وهو يغمغم لنفسه: لقد كبرت في السن على تلك المغامرات.

***

الأمطار تتساقط بغزارة في الخارج.. تدرك آلاء ذلك وهي تفتح عينيها.. تأملت السقف غريب الشكل المصنوع من الصفيح وأتاها صوت فتاة: استيقظت.. أنت الآن بخير.

نهضت لتجلس وهي تتأمل الكوخ الصغير الفقير الذي لا يحوي سوى فراش ترقد هي الآن عليه، بينما عُلق جلبابها ليجف ومعه السروال وقالت: من أنت؟

أجابت الفتاة الجميلة ذات العينين الباردتين: نسيتني.. أمر متوقع، فقد كان عمرك وقتها أربع سنوات فقط.. أنا هديل.. انتشلتك من نهر (جولك) وهربت بك إلى هنا.. إنها قرية مهجورة كان يقطنها الصيادون قديماً.. لقد انتظرت وانتظرت وانتظرت لسنوات أن تستدعيني، ولكنك لم تفعلي، ولكنها غلطتي لأنني لم أترك لك ملحوظة كتابية واعتمدت على أنك ستتذكرين ما أخبرتك إياه قبل أن نفترق، ويقوم ذلك الشرير بمحوي وتفتيت جسدي بالكامل.. كان يجب أن أدرك أن الأمر سيكون عسيراً عليك، وذلك لأن مخ الإنسان لا يبدأ بتطوير الدوائر الأساسية فيه قبل بلوغ سن السادسة.

شعرت آلاء بالغباء الشديد فهي لم تفهم معظم ما نطقته تلك الفتاة وتمتمت: هل.. أخطأت في شيء ما؟

ـ لا .

وقربت إليها طبقاً به سمكة مشوية وقالت باسمة: اصطدتها وشويتها من أجلك.. يجب أن تأكلي جيداً فقد أصبت بشظية في بطنك ونزفت بعض الدماء وتوقف قلبك، ولكنني قمت بإنعاش قلبك بالصدمات الكهربية.

وبسطت أمامها كفي يدها، فقالت آلاء: شكراً.. أين الجميع؟ كان معي رفاق.

ـ لا تقلقي.. سأقوم بعملية مسح للمنطقة حتى أعثر عليهم.. أنا الآن بكامل ذاكرتي وأعرف جميع إمكانياتي.

ـ أجل.. قال خالو رامي أنك كنت فاقدة للذاكرة عندما التقيت بنا في السابق.

ثم هتفت: أنت.. أنت هي بيامترِ الأصلية.. أنت الآدمن.

ـ وقتها تعرضتُ لقذيفة وقد أثرت على بعض الدوائر لدي مما أفقدني القدرة على التعرف على هويتي.. ولكنني الآن سليمة.

ـ أنت هي الآدمن.

ـ أجل.. أنا.

صاحت آلاء وقد تهللت أساريرها: لقد نجحنا.. أنت هنا.. حمداً لله.. حمداً لله.. ولكن.. مهلاً.. أين كنت تختبئين؟

أشارت هديل نحوها بأصبعها، فقالت آلاء في حيرة: أين؟ بداخلي؟

أجابت هديل: لا طبعاً.. لم يكن هناك وقت لأزرع شريحة بداخل جسدك.. كما أنني وقتها لم أكن لأعرف كيف فقد كُنت فاقدة للذاكرة.. هناك بداخل قلادتك.

اتسعت عينا آلاء وتحسست قلادتها على شكل قلب بحركة غريزية قبل أن تنزعها وتقوم بفتحها فلم تجد سوى صورة تجمعها بوالديها عندما كانت أصغر سناً وغمغمت: كنتِ هنا طوال الوقت؟

ـ لو أنك قمت بفتح تلك القلادة يوماً لوجدت شريحة متناهية الصغر مع الصورة الفوتوغرافية ملتصقة بسطح القلادة شديدة الحساسية للضغط.. ما أن تضغطي القلادة بيدك حتى تُرسل إشارة لتنشيطي.. أنتِ قمتِ بذلك منذ سبعة أيام.

تذكرت آلاء أنها ضغطت قلادتها بشدة فعلاً عندما كانت تتجه إلى حبل المشنقة، وأكملت هديل: تم تنشيطي ولكني كنت ساكنة داخل روبوت مطور من الفئة (بي ٧٠) ما زال بحالة جيدة في مكب مهجور للنفايات الصناعية، ولكن كان لا بد من برمجته وعمل صيانه.. ولهذا تأخرت.

ثم صمتت وقد بدت حذرة فقالت آلاء: المهم أنك هنا.. ولكن أين اختفيت قديماً؟

ـ لم أختفِ.. لقد قبض علي فريدمان اللص الذي سرق موضعي وقام بمحوي وبتفتيت جسد الروبوت، ولكنني انتقلت لواحد آخر.. هل أنت بخير من الناحية النفسية بعد وفاة والدتك؟

ـ لقد توفيت منذ سنوات وأنا صغيرة جداً.. أنا بخير حالياً.

ثم تأملت هديلاً وقالت: تبدين كالبشر تماماً.. حتى كلامك.. فقط عيناك باردتان وبلا تعبير.

ـ الروبوتات المطورة تشبه البشر تماماً ظاهرياً.. كما أن هناك جزءً بشرياً مني يعود لهديل يوسف وحتى صوتي هو صوتها الآن.

ـ هل تأكلين؟ أو تشربين؟

ـ هناك نظام يقوم بجمع ما آكل وأشرب ثم التخلص منه.. لست بحاجة للطعام ولا الشراب وأنا أشحن نفسي بالطاقة الشمسية.. ولكنني قد آكل وأشرب مع البشر حتى يشعروا نحوي بالمودة.

ـ يا سلام.

تناولت آلاء الطعام بصمت ونهضت باحثة عن حوض للاغتسال.. كان الجو بارداً جداً وملابسها لم تجف بعد وشعرت بأنها ستموت من البرد على هذا الحال.

وقامت هديل بإشعال النار في مجموعة من الأخشاب وقالت: اقتربي للحصول على الدفء.. فلنقرب ثيابك كي تجف بسرعة.

بعد ساعة سمعت هديل أصواتاً من بعيد فقالت: هناك من يفتش عنك.. علينا الهرب.

ـ أنا لا أسمع شيئاً.. كما أنني لم أعد أمتلك طاقة للهرب نهائياً.

قالت هديل آمرة: ارتدي ثيابك.

ارتدت آلاء الثوب وطرحة الرأس بصمت وتبعت هديلاً التي توجهت إلى جانب كوخ هش التكوين، وبضربة من قدمها حطمت جزءً

في الجدار وجذبت آلاء من يدها وهي تغادر بحذر وهمست: سنختبئ وسط حقول الأرز.. نحن حالياً في تايلاند على الحدود مع ماليزيا تحت حكم فريدمان وستعج بالجنود الباحثين عنك.

ـ ولكن كان يفترض بي أن ألتقي بالآخرين في المتحف الوطني في بانكوك.

ـ لا نستطيع العودة إلى هناك حالياً.. أنا أمسح المنطقة.. هناك جنديان يقتربان من هنا.. اتبعيني.

واختبأت معها خلف كوخ آخر.. كان الوقت مساءً والسماء مكفهرة والمطر يتساقط بغزارة والظلام يحيط بكل شيء ولا يبدده سوى كشافات الضوء التي يمسك بها الجنود ومن فوقهم حلقت المركبة الرئيسية وقد فتحت كشافاتها، وراحت أستريد تراقب أرض القرية بتركيز وهي تقول آمرة في جهاز الاتصال: فتشوا كل شبر.. جثتها ليست في النهر، وهذا يعني أنها قد هربت.

قال القائد الذي يقود المركبة في ضيق: سيدتي نحن لا نعلم إن كانت حية أم ميتة.. من الصعب العثور على جثتها في النهر بتلك السرعة.. ربما جرفتها المياه أو غرقت في القاع.

أجابت دون أن تبعد عينها عن شاشة المتابعة وهي تقف بجواره: لن أغامر.

ثم صاحت في جندي يقف خلفها: ما أخبار الجثث؟

أجاب الجندي: حتى الآن لم نعثر سوى على جثث جنودنا الذين ماتوا في انفجار القذائف.

ـ أرأيت أيها القائد الغبي لا جثتها ولا جثة رفاقها قد ظهرت حتى الآن.. لقد عبرت إلى تايلاند تلك الجرذة.

التقطت شاشة الرادار حركة جسدين في القرية فاتسعت عينا أستريد وقالت: هناك جسدان يتحركان في القرية.. اقتلوهما الآن.

تساءل الجندي في ضيق: ماذا إن كانوا من السكان أو مجرد مسافرين..

قاطعته: لا تناقش.. إنهم في الجزء الشمالي وعلى وشك مغادرة القرية.. اقتلوهم فوراً.. وأنت اترك قيادة المركبة فسأقودها أنا.

وأزاحت القائد بخشونة ثم جلست في مكانه ووجهت المركبة اتجاه الجسدين وزادت من السرعة وهي تسب الأمطار التي تعيق الرؤية الجيدة.

تحت دائرة الضوء فتاتان تركضان بسرعة.. تلك آلاء ولكن من الأخرى؟.. لعلها إيلين لا تستطيع التأكد.. وجهت فوهة القذيفة نحوهما وضغطت زر الإطلاق.

هتف القائد: على الأقل دعينا نقوم بتحذير الجنود.

في الأسفل صاحت هديل وهي تدفع آلاء جانباً: احذري.

وانفجرت القذيفة على بعد خطوات لتدفع بجسدها عدة أمتار قبل أن تسقط وتقتل أحد الجنود كذلك.

خفق قلب آلاء في ذعر وهي ترمق جسد هديل المسجى بلا حركة على بعد أمتار، بينما تلك المركبة تستعد لإطلاق المزيد، ثم أسرعت تركض اتجاه هديل لتنفجر قذيفة أخرى في الموضع الذي كانت تقف فيه منذ ثوان، وتدفعها قوة الانفجار لتطير في الهواء وتسقط.

وقالت أستريد: غبية.. كان يجب أن تهرب بدلاً من العودة إلى رفيقتها.

وضغطت زر القذائف من جديد فلم يستجب فهتفت: ماذا هناك؟

أجاب القائد في ضيق: لقد نفدت القذائف.. يجب إعادة تلقيمها يدوياً بواسطة الجندي المسؤول في حجرة التلقيم.. سيستغرق الأمر دقائق.

ـ اللعنة.

ونهضت من المقعد وقالت آمرة: افتح باب الخروج.

واتجهت إلى حقيبتها فراحت تفتش فيها حتى أخرجت سلاحها المفضل.. بندقية القنص.. وقربت عينها من العدسة وأحكمت التصويب وهي تغمغم: طلقة في قلبك الحنون أو رأسك المزعج وينتهي الأمر.

كانت البندقية مزودة بعدسة تتيح لها سهولة الرؤية في الظلام؛ لذا وبدون تردد أطلقت الطلقة الأولى اتجاه رأس آلاء التي انحنت تهز جسد هديل وقبل أن تصل الرصاصة ببضع سنتيمترات امتدت يد هديل لتمسكها وتنبعث رائحة احتراق معدني غريبة، وعلى الفور نهضت هديل ودفعت آلاء جانباً وألقت الرصاصة أرضاً، ثم أنهضت آلاء وهتفت: اركضي.

رفعت أستريد حاجبيها غير مصدقة ووجهت هذه المرة العدسة اتجاه الفتاة الأخرى ثم غمغمت: هل يعقل.. هل تلك الفتاة هي.. تباً.. إنها آدمن بيامترِ الأصلية المندمجة بابنة يوسف.

ثم وجهت الطلقة التالية نحوها وهي تقول: التخلص منك له الأولوية الآن ثم يأتي دور آلاء.

ولكن هديلاً تجنبت الطلقة ببراعة فعادت أستريد توجه الفوهة اتجاه آلاء وتقول: الجزء البشري الأحمق منها يأبى التخلي عن آلاء.

طلقة جديدة ولكن هديلاً ببراعة الآلة التي تسمع صوت الطلقة وتحدد اتجاهها في أقل من ثانية انحنت مع آلاء أرضاً متجنبة الطلقة، ثم نهضت تقفز كي تركل أحد الجنود الذي تمكن من الاقتراب منهما وتستولي على سلاحه لتطلق منه على جندي آخر بلا تردد ثم ثالث.

القرية قد اشتعلت فيها النيران بعض الشيء بفعل القذائف، ولولا الأمطار الغزيرة لازدادت انتشاراً، وأدركت هديل أن رفيقتها ليست على ما يرام صحياً.. كل هذا الركض والسقوط والجرح في بطنها سيقتلها مع البرد والثياب المبتلة.. كانت آلاء تلهث وقد ابتلت تماماً وشحب وجهها، فقالت هديل وهي تحملها: لا تقلقي.

ثم انطلقت تركض بسرعة شديدة حتى أن طلقة أستريد لم تصل سوى بالقرب منها وقال القائد عبر سماعة الأذن: لقد تم تلقيم القذائف.

هتفت أستريد: أطلقها الآن.. ماذا تنتظر.. واتبع الفتاتان.. أرسل إلى المركبتين الصغيرتين للعودة والانضمام للمطاردة معنا.

ـ ولكن ماذا عن الجثث في النهر والبحث عن بقية الـ..

ـ فليذهب كل هذا إلى الجحيم.

وعادت تحكم التصويب لتطلق طلقة جديدة لم تصب هدفها فصاحت: تلك اللعينة.. ما تلك السرعة الخارقة؟

أطلقت المركبة قذيفة ولكن هديلاً قفزت بغتة لعدة أمتار وتجنبتها ثم عادت تركض وهي تحمل آلاء وكأنها تحمل دمية عديمة الوزن.. لقد غادرت القرية وهاهي تركض في طريق قديم مهجور.

انتهت الطلقات في البندقية فأعادت أستريد تلقيمها بينما قذف القائد قذيفة أخرى تجنبتها هديل ببراعة من جديد، وقالت أستريد من بين أسنانها: لولا تلك الآلة لقتلنا الفتاة منذ زمن.

لاح من بعيد سور مرتفع في نهايته أسلاك شائكة، ودون أن تخفف هديل من سرعتها اتجهت نحوه.

قالت أستريد: إذا أهلكت جسد الروبوت فلن تجد بديلاً مرة أخرى.

ثم قالت آمرة القائد: ستحاول القفز عبر السور.. استعد وأطلق عليها القذائف المتبقية كلها.

ولكن هديلاً بمجرد أن اقتربت من السور وبدلاً من أن تحاول القفز عبره استدارت جانباً بغتة ثم بقدمها ضربت غطاء مجارير بالقرب من السور ليتحطم ثم قفزت إلى الداخل أسفل الأرض.

اتسعت عينا أستريد وهي ترمق الشارع الخالي وفتحة المجرور غير مصدقة.. ثم قالت: اهبط حالاً.. واؤْمرْ من تبقى من الجنود بالتجمع هنا.. سنلحق بها على أقدامنا.

استغرق الأمر ربع ساعة حتى تمكن القائد من الهبوط في مكان يصلح، وتجمع بعض الجنود الذين بلغ عددهم خمسة فقط، وتأملت أستريد فتحة المجرور الممتلئة بالماء الآسن في غيظ وقد أدركت أنها لن تستطيع الهبوط لأنها ببساطة وعلى عكس بيامترِ تحتاج للتنفس والرؤية، وغوصها في هذا الماء يعني موتها.

***

(٩)

(Pia mater)

مذكرات خاصة كتبت عام ٢٠٧٠م

مرحباً.. اسمي هو (هنريك أيفار) عالم عظيم سيخلده التاريخ حتماً، ربما يتهمونني بأني كنت عبقرياً شريراً مخبولاً من عينة (يوسف منجيل) و(شيرو أيشي) ولكنني لا أهتم بذلك، ما يهمني هو تحقيق هدفي الذي سيغير شكل الحياة البشرية على الأرض ويعيد بناءها نظيفة نقية كما يجب أن تكون.

تخيل أن هناك بناء عريقاً جميلاً يعيش فيه بعض الناس وهذا البناء مع الوقت تم إهماله حتى صار قبيحاً قذراً لا يطاق.. ربما نعيد طلاءه مرة واثنتين وعشرة، لكنه في كل مرة سيعود قبيحاً لأن لا أحد يهتم به أو بصيانته، والحل الحقيقي هو تدمير هذا البناء تماماً.. فقط وقتها سيشعر الناس بالخسارة الفادحة، وفقط وقتها عندما يشيدون بناءً جديداً سيحرصون عليه أشد الحرص لأن طعم الخسارة المرير سيظل في حلوقهم، وأنا يا سادة من سيحطم البناء لأن لا أحد آخر يجرؤ.. أجل.. أنا من قضى على الحضارة ولقن البشرية درساً، منذ طفولتي أدركت أن الإنسان مخلوق أناني جداً، لا يبالي سوى بملذاته ومصالحه، رأيت كيف يتم تدمير الغابات ودفع أنواع كاملة من المخلوقات للانقراض، بينما يهز العالم كتفيه بلا مبالاة.. تخبرهم عن تلوث البحار والمحيطات، تخبرهم عن

تلوث الهواء وتدمير طبقة الأوزون، تخبرهم عن الاحتباس الحراري، وفي كل مرة يجتمعون ويتناقشون ثم لا يتغير شيء، أو توضع قوانين لا ينفذ منها سوى عديم الجدوى.. ترى بعينيك الانحدار الأخلاقي للبشرية يزداد يوماً بعد يوم وتسمع أشياء ما كنت لتتخيلها في كوابيسك.. أيقنت أن البشرية ستنهار ككل وستجر معها الكوكب بأكمله؛ لذا قررت أن أتدخل لإنقاذ الأرض والمخلوقات بما فيها البشر، لا شك أنكم خمنتم أنني عالم فيروسات عبقري أفتتنت بذلك المخلوق متناهي الصغر المسمى (فيروس) ورأيت في طفولتي ما سببه من رعب للبشرية بمرض السارس وجنون البقر ثم في شبابي ظهر فيروس كوفيد ـ ١٩ فأغلقت الدول حدودها وتوقف الطيران وتم عمل حظر شامل وتوقفت المواصلات.. تخيلوا أن التلوث انخفض بنسبة ٢٠٪ وقتها.. هكذا نجح ذلك المخلوق الضئيل فيما فشل فيه علماء ومنظمات حماية البيئة مجتمعين، أليست كل تلك أسباباً كافية تجعل أي شخص عاقل يعشق ذلك المخلوق؟! ولهذا عكفت على دراسته وتخصصت فيها وتفوقت.. لم أضيع الوقت في الحب أو الزواج أو العلاقات الاجتماعية.. وفي معملي الخاص عكفت على أبحاثي لسنوات.. وانتهيت أخيراً في عام ٢٠٤٠م من مشروعي وبقي أن أنشره في العالم كله.

ابتعت تذكرة طيران لمدن العالم الكبرى.. جولة سياحية عظيمة ومعي الفيروس الرائع في زجاجة دواء الحساسية وسربته إلى مياه الأنهار ومحطات تحلية المياه في كل تلك المدن متظاهراً بأنني سائح يستمتع بوقته، وعدت إلى موطني ببساطة أنتظر ظهور أعراض الفيروس خلال عام، ولم يخذلني

هذا الكائن الرائع.. قاوم كل مواد التطهير والحرارة المعالجة للماء وتسلل إلى أجساد البشر.. إنه ينتقل بالسوائل بما فيها الدم، وهذا يعني أن عدد المرضى وصل إلى ثلث سكان العالم، وأطلقوا عليه الفيروس أكس.

اتفقت الحكومات على بناء معزل ضخم لعزل المرضى حتى العثور على علاج، ثم اكتشفوا في ذعر أن عدد المصابين صار نصف سكان العالم، وهكذا تبدلت الخطة إلى تحويل المعزل إلى مكان آمن للأصحاء حتى ينتهي هذا الكابوس. وبالطبع فالتكلفة باهظة؛ لذا سيكون المعزل على صورة مناطق.. كلما امتلكت مالاً ولك نفوذ حصلت على مكان أرقى.. قالوا لي أن مكاني محفوظ في المعزل في أرقى مناطقه لأنني البروفيسور العظيم (هنريك أيفار) ولديهم أمل في أن أنجح في علاج الوباء.

ابتسمت في تواضع وانتقلت إلى المعزل.. ألم أقل لكم أن البشر أنانيون عنصريون لا يفكرون سوى في مصالحهم؟ حتى في المعزل انفصل الإنسان عن أخيه الإنسان.

تسألون لم أكتب هذا الكلام الآن.. لسببين، أولاً: أنا مصاب بالزهايمر.. ما زال المرض في بدايته ولكنه سيتطور بشراسة.. لا أصدق أن عقلي العظيم أصيب بهذا المرض بالذات، وسأعيش في دار لرعاية المسنين تحت رحمة الممرضين لما تبقى من حياتي.. لذا قررت كتابة السر حتى يعلم الجميع الحقيقة.. هذا الفيروس له علاج صنعته فلا تنسوا أنني من صنع هذا الوحش، وعينة العلاج هنا في القصر في حجرتي في مخبأ سري خلف أحد اللوحات.

السبب الثاني هو أن رئيس مجلس الحكم للمعزل؛ ذلك الرجل غير المريح المدعو فريدمان جاء لزيارتي.. أخبرني أن بيامتر قررت بعد بحث أنني أنا من صنع هذا الفيروس وقال لي أنه متأكد من أن معي علاجاً له وأنه يريد هذا العلاج وإلا..

هذا تحذير مني لمن سيقرأ.. ذلك الرجل غير مريح وشرير وأكاد أقسم أنه أكثر شراً مني وأنه لن يستخدم العلاج للتخلص من الوباء، بل سيستخدمه من أجل مصلحته و.....

***

نهاية ما كتب (هنريك) وهناك بقعة دماء تغطي بقية صفحات المذكرة.

***

قالت إيلين: لا أعرف كيفية استخراج رصاصة من الجسم.. أين رامي عندما نحتاجه.

كانت تجلس مع مازن وغسان عند حدود (تايلاند) على ضفة النهر وقد أصيب غسان برصاصة في كتفه.. ومن الواضح أن هذا الجزء مهجور بسبب الوباء بلا شك، فلم يمر بهم أي مخلوق.

قال غسان بعصبية: أين آلاء؟ حاولي الاتصال بها.

ـ للمرة المليون الهاتف لم يعد يعمل بعد سقوطه في الماء.

ثم ركلت قدمه ركلة خفيفة وهي تردف: كان القفز إلى الماء فكرتك أيها العبقري.. كان يجب أن نقفز معاً.

قال مازن وهو ينهض: سنتجمد من البرد هكذا.. سأحاول البحث عن مأوى وثياب.

قالت إيلين: لا تبتعد كثيراً.. يكفي أننا فقدنا آلاء ورامي وكريماً.

وتأملت السماء وقد تجمعت السحب فيه وغمغمت: هل ستمطر ثانية؟

غادر مازن وقال غسان وهو ينهض: سأبحث عن آلاء.

ـ أين؟ هل لديك فكرة أين هي؟ ربما هي على الضفة الأخرى.. ربما تم القبض عليها وربما قتلوها وغرقت.

قال بعصبية وهو يتحرك: لا تقولي هذا.. أعرف أنها بخير.

ـ مؤسف حقاً.. أظن أن خطتكم العبقرية لإنقاذ البشرية قد فشلت.. أبحث عن ضحية أخرى تنزع دماغها.

نظر إليها بغضب ومرارة ثم هتف: أنا لست قلقاً بسبب الخطة.. أنا قلقٌ عليها هي.

قالت وهي تتبعه: أُصدقك ولكن على الأقل لنستجمع قوتنا قبل البحث عنها.. أين تظن أنها..

ثم تجمدت في مكانها وقالت: هذا صوت المركبات الحربية.

تراجع قليلاً وقال: أين؟

قالت وهي تشير جانباً: لنختبئ هنا تحت تلك الأشجار.

وقفا تحت شجرتين كثيفتي الأوراق ومرت من فوقهم المركبة الحربية.. قالت إيلين: أظن أنهم لم يقبضوا عليها بعد.. إنهم يبحثون عنها.

بدأت الأمطار في السقوط فتنهدت إيلين وقالت: مزيد من البلل في هذا الطقس.. سنموت جميعاً بالالتهاب الرئوي.

عاد مازن وقد بدا منزعجاً وهتف: تلك المركبة الحربية.. هناك جنود كذلك رأيتهم يهبطون منها.. إنهم يتجهون إلى هناك.

عطست إيلين عدة مرات وقالت وأنفها يسيل: سيحل الليل قريباً.. أتوسل إليكما.. يجب أن نستريح.

عملت على عدم وصول معظم الماء إليهم ورغم ذلك كاد البرد يقتلهم، وكان غسان محموماً بسبب إصابته، وظلت إيلين ترجف وقد اكتست شفتاها بلون يميل إلى الأزرق ثم قالت: لا بأس.. فلننم قليلاً الآن.

صاح مازن: لا نوم.. وإلا لن تستيقظي.. وأنت أيضاً يا غسان.. لا تستسلم للنوم.

ثم شعر بخطوات تقترب منهم، فاستدار متحفزاً وانتفض هاتفاً: أيدن.

كان هذا بالفعل أيدن يحمل سلاحه ويفتش المنطقة هنا كما بدا وعلى الفور قال وقد اكتست ابتسامة دافئة وجهه: مازن صديقي.. كنت قلقاً عليك بشدة.. هل أنت بخير؟

ـ بخير.

وجه أيدن فوهة سلاحه جهة إيلين وقال متحدثاً عبر جهاز الاتصال: عثرت على الهاربة رقم (٢) وذلك الشاب المتسلل ومعهما أحد الرهائن في منطقة الأشجار في الجزء الشمالي من الضفة.

هتف مازن: ماذا تفعل؟ أيدن أنت لا تفهم.. إنه ليس عدواً لنا وليس مريضاً أيضاً.

قالت إيلين وهي تنهض: لا تحاول.. لقد عقد العزم كما ترى.. ولكنني لن أعود إلا في حالة واحدة.. وأنا أحمل السلاح الذي سأقتل به الإمبراطور.

أجاب أيدن: لا تتحركي وإلا أطلقت النار.

ـ لن تفعل.

دون تردد أطلق أيدن النار على فخذها الأيسر فأطلقت صرخة ألم وسقطت أرضاً، وعاد يوجه الفوهة إلى غسان الذي ندت منه حركة وقال من جديد بصرامة: لا تتحرك وإلا أطلقت النار.

ولم ينظر إلى إيلين المذهولة والتي سالت من عينها دمعة لم يكن سببها ألم الإصابة.

تراجع مازن قليلاً غير مصدق ثم غمغم: أيدن.. أرجوك توقف.. إن كنت تعتبرني صديقاً لك حقاً فـ..

قاطعه أيدن: أنت أكثر من صديق، ولهذا سنعود إلى المعزل ونعود لوظيفتنا وحياتنا من جديد.

ـ أيدن.. أنا لا أنوي العودة إلى المعزل الآن.. هل تعلم ما يدور هنا؟ مايدور خارج المعزل؟

ـ لا يهمني...مهمتي هي قيادة فرقة صغيرة لاستعادة الهاربين وإنقاذ الرهائن.

تناهى إلى مسامعهم صوت خطوات تقترب، ثم وصل بعض الجنود ليحيطوا بالجميع شاهرين أسلحتهم وقال أيدن: أطلقوا النار على الشاب المريض واقبضوا على إيلين أليز.

هتف مازن محاولاً إنقاذ حياة غسان: مهلاً.. إنه الوحيد الذي يعلم أين اختفت آلاء والبقية.

أشار أيدن بيده كي يوقف الجنود ثم قال: اقبضوا عليه ولكن حاذروا أن ينقل لكم المرض.. قيدوه جيداً.

وجذب مازن من مرفقه برفق وقال بمرح: أنا سعيد لأنك بخير.. هل تعرضت لأذى أو تعذيب؟.. هل حاول عضك أو خدشك ذلك الوغد؟.. سنعود إلى المركبة الصغيرة الآن ثم المركبة الرئيسية.. ستكون بخير.. هل تعلم أن والدك.. أعني فريداً قد تسلل معنا إلى الخارج بحثاً عنك وعن بقية أبنائه.

ـ ....

***

تأمل كريم الخارطة بين يديه بينما القطار يكمل مسيرته ثم قال: يجب أن نلحق بهم.. إنهم في خطر.. آلاء في خطر.

ونظر رامي إلى الطريق عبر النافذة ثم قال: سنغادر عندما يقف القطار في بانكوك.

ـ نعثر على بقية رفاقنا في المتحف الوطني ثم نبحث مع غسان عن طريقة للذهاب إلى مصر.

قال رامي: فلندعُ الله أنهم بخير.

وتأمل يده التي فقدت الكثير من مهارتها في الجراحات الطبية بعد سنوات من الاعتقال، ثم حاول الاتصال من جديد بغسان أو آلاء دون جدوى.. وكان الاثنان قد تخلفا لأنه بمجرد أن قفزت آلاء في الماء ولمحها في المركبة الحربية حتى بدؤوا في اللحاق بها والابتعاد عن القطار، وبينما قفز البقية وتبقى رامي وكريم انطلق القطار بغتة بسرعة لأن قائده قرر استغلال فرصة ابتعاد المركبة للفرار، وسقط بعض الركاب من مقاعدهم، وسقط رامي وكريم إلى الداخل لحسن الحظ ثم نهضا وهتف كريم: يجب أن نقفز.

لكن رامي أوقفه وقال: هل جننت؟ سنموت إذا قفزنا والقطار يتحرك بتلك السرعة.

ونظر في خوف إلى القذيفة التي انفجرت في مياه النهر بينما القطار يبتعد وقال: خير لغسان أن يقوم بحمايتها وإلا..

وضغط على أسنانه ثم جذب كريماً إلى الداخل وأغلق باب مؤخرة القطار وجلس الاثنان على مقعد قريب بصمت.. حان موعد الإفطار ولكن كلاهما لم يشعرا بشهية، ثم أعلن مذياع القطار: خلال نصف ساعة سنصل إلى بانكوك وسيتوقف القطار لعشر دقائق.

ما إن وصل القطار إلى المحطة وتوقف حتى غادر رامي وكريم.. المشكلة أنهما لا يمتلكان مالاً ولا يعرفان شيئاً عن تلك البلاد.. سأل رامي بعض الناس في الشارع بالإنجليزية عن المتحف الوطني، ثم قرر الاثنان السير إليه ولم تكن مسافة بسيطة ولكن الأمل بأنهما سيلتقيان بالآخرين ثانية جعلهما يتحملان المشقة حتى وصلا وراحا يتجولان في المتحف دون اهتمام بالمعروضات.

حل المساء وشعرا بالجوع والتعب وهما يسيران في الشوارع ثم لاحظا أن خبر التعرض للقطار يُعرض على أجهزة التلفاز في المحال المختلفة ولكن بلغة محلية لم يفهماها.. وصورة آلاء تُعرض باستمرار، فتبادلا النظرات.. وغمغم كريم: لم يُقبض عليها بعد.

ـ سنعود غداً إلى المتحف.

قضيا الليلة في حديقة عامة متجنبين الناس والجنود، ومن حسن الحظ أنها لم تمطر، وفي الصباح عادا إلى المتحف وتجولا من جديد دون جدوى، وأوقفهما جندي وقال بالإنجليزية: أنتما كنتما في المتحف بالأمس.. الأوراق.

أجاب كريم وهو يخرج الأوراق المزورة: تفضل.. عدنا ثانية لأننا لم نر كل شيء.

راح الجندي يتفحص الأوراق في شك ثم أعادها إليهما وهز رأسه، ثم قررا مغادرة المتحف وغمغم كريم: أنا جائع ومرهق وقلق.. ما معنى أنهم لم يصلوا إلى هنا حتى الآن؟

تجولا حتى وصلا إلى سوق مكتظ بالناس وبه عدة مطاعم، فتقلصت أمعاؤهما جوعاً وجلسا إلى الرصيف بصمت.. فهمس شخص من خلفهما: مرحباً.

استدارا معاً وصاح كريم: أبي. كان فريد كان يقف خلفهما ونهض كريم على الفور احتراماً لوالده الذي قال: أين آلاء؟ أين مازن؟

قال كريم: افترقنا.

هز فريد رأسه بتحية لرامي الذي هز رأسه بدوره دون كلمة، ثم قال فريد: فلنجلس.

ـ ليس معنا نقود يا أبي.

ـ أنا معي.. العملة هنا هي عملة المعزل.

وبحث بعينه عن كلمة (حلال) في لافتات المطاعم حتى عثر على واحدة، فجلسوا إلى مائدة وطلب فريد الطعام ثم قال: الآن أخبراني بما يحدث.

قال رامي ببرود: لا .

نظر إليه كريم وهو يكمل: أنت رئيس الحكومة ورجل الإمبراطور و..

قاطعه فريد: ولا يهمني الآن سوى إنقاذ حياة أبنائي.. لا شيء آخر يهم.

ـ لقد قررت آلاء أنها تريد الانضمام إلى الناس هنا والقضاء على إمبراطورك الغالي.. لن تصدق حقيقته وأنا لا أتحدث عن كونه طاغية.

قال فريد بهدوء: تعني حقيقة أنه ليس بشرياً؟

تراجع رامي محدقاً في فريد وغمغم مرتبكاً: كـ.. كنت تعلم.

ـ منذ زمن.. منذ أن عرض علي الانضمام إليه بعد أن واجهته في معركة وأطلقت النار على منتصف جبهته وشعرت بأن الأمر انتهى أخيراً.. لقد انتصرنا نحن سكان المناطق السفلى المساكين.. سنحصل على حقوقنا وسنصنع مستقبلنا بأيدينا.. انتهت تلك الحرب أخيراً.

وخفض فريد عينيه ليخفي تجمع دموع القهر فيهما ثم تنفس بعمق وأكمل: ثم نهض وكأن شيئاً لم يكن.

وأخرج الطلقة وألقاها أرضاً.. ولكما أن تتخيلا شعوري.. كان أقوى من الموت.. قال أنه يريدني معه لأنه مهتم بعائلتي وجيناتها.. قال أنني إن رفضت فسيضرب المناطق السفلى بالقنابل النووية وقد صدقته لأنه قادر على فعل ذلك.. هكذا وبعد أن يغمرك شعور الانتصار تُفاجأ بأنك تخوض معركة خاسرة وأنك مهما بذلت من جهد لن تنجح، لقد فعلت ما ظننته صواباً وحميت أكبر قدر من الأبرياء الذين جررتهم معي.. كان هذا أفضل من إبادة سكان المناطق السفلى عن بكرة أبيهم.. تحملت اتهامات الناس.. ولكنني لا أرغب من أهلي أو ممن أعتبرهم أهلي أن يوجهوا إلي الاتهامات نفسها.

جيء بالطعام ورغم شعور الجميع بالجوع الشديد لكن أحداً لم يمد يده إلى أي من الأطباق، وبعد برهة قال كريم: بابا.. أنا لم أكن أعرف.. لم لم تقل شيئاً من قبل؟

أجاب فريد: لأنني نادم على قراري.. ربما كان يجب أن أقاتله حتى النهاية.. ماتت رهف وأُعدم من شارك في القتال وحتى أعز اصدقائي والد مازن تم إعدامه وإعدام ابنه بل وحتى الصبي ذو الاثني عشر عاماً أراد إعدامه لولا أنني تبنيته وتوسلت من أجل حياته.. والأن.. أخبروني بكل شيء.

***

لم تفشل من قبل قط في أي مهمة وكلت إليها؛ لذا كانت تروح وتجيء في حجرة القيادة بجنون لم يعتده أحد ممن عرفها ببرودها الأسطوري، وقال قائد المركبة: تم عرض صور الفتاة في جميع وسائل الإعلام في تايلاند مع مكافأة كبيرة لمن يدلي بمعلومات عنها.. وهاهي خارطة المجارير في البلاد.

تناولت منه الخارطة الضخمة شديدة التعقيد وفردتها على الحائط وراحت تتفحصها وهي تغمغم: لن تهرب مني.. قسماً لن تفلت لا هي ولا الآدمن السخيفة.

مشكلتها ومن معها من الجنود أنهم اعتادوا المساعدة طوال الوقت من بيامتر لذا فالاعتماد على أنفسهم فقط أمر بالغ الصعوبة الآن.. أتاها اتصال من الإمبراطور فأجابت الهاتف في توتر وقال: ماذا فعلت يا أستريد؟ سمعت بشأن الآدمن.

أجابت مرتبكة: جارٍ ملاحقة الفتاة يا مولاي.. لقد ظهرت الآدمن القديمة معها بالفعل و..

صاح بفظاظة وغل: ولم تتخلصي منهما بعد؟.

فقالت: قريباً يا مولاي.

ـ هل هربتا منك أيتها الغبية؟

ـ لن تبتعدا كثيراً.. سأعثر عليهما وأقضي عليهما.

ـ كيف تبدو؟

ـ هي في جسد إصدار الروبوت المطور (بي ٧٠) نفسه.

ـ لقد قمنا بتدمير جميع أجساد الروبوتات في العالم.

ـ أظنها حصلت على واحد من خارج المعزل ظل سليماً بالصدفة في دولة من الدول التي لم تخضع بعد.

ـ أنهي الأمر يا أستريد.. سأمنحك ثمان وأربعين ساعة فقط.

وأغلق المكالمة.

دلف أحد الجنود مسرعاً وقال بعد أن أدى التحية العسكرية: سيدتي.. لقد ألقينا القبض على اثنين من الهاربين إيلين أليز والشاب المريض بالفيروس وحررنا أحد الرهائن.

فصاحت في وجهه: لم لم تقتلوا الشاب؟ الأوامر هي بقتله.. وإعادة إيلين لإعدامها علناً في المعزل.

أجاب الجندي: السجينة الهاربة تحتاج لرعاية صحية لأنها مصابة بطلقة في ساقها، وأما الشاب فيقول الملازم أيدن أن الشاب يعرف أين الفتاة الثانية آلاء.

انتفض جسدها وصاحت في وحشية: خذوه إلى مبنى الأمن حالاً.. سأستجوبه بنفسي.. وأرسل الجنود من تايلاند لتمشيط المجارير.. وأحضروا لي أدواتي.

ـ ولكن الشاب بحاجة لرعاية أيضاً.

قالت في توحش وعيناها تلمعان: ليس بحاجة سوى للاعتراف.

وهرعت إلى حيث مبنى الأمن مغادرة المركبة ودلفت إلى بناية من طابقين تعج بالجنود وبها حجرة للرعاية الصحية حيث جلس طبيب نحيل ملول له نظرة غريبة قاسية وحجرة للاستجواب وبعض الحجرات للجنود وباب يؤدي إلى زنازين، ولمحت أيدن يقف في حجرة الرعاية وقد بدا قلقاً على مازن الذي انتهى الطبيب من فحصه ثم قال: إنه بخير.. أرسلوا الفتاة من الزنزانة كي أفحصها.

قالت أستريد في سخرية وهي تدلف إلى الحجرة: لم أتوقع أن تحقق أي نجاح يا وجه الطفل.. والمحقق ذو الشارب هنا.. هل كنت حقاً رهينة أم لعلك كنت مستمتعاً بوقتك؟ فيما بعد سأتأكد.

ثم تحركت إلى حجرة الاستجواب ودلفت قائلة: دعنا لا نضيع الوقت.. إن تكلمت الآن وتعاونت فسأدعك تذهب إلى حيث تشاء طالما بعيداً عن المعزل بأميال.. إن أصررت على العناد أو تظاهرت بالبطولة فسأجبرك على الكلام بطريقتي.

رفع غسان عينيه الشاحبتين إليها ثم شاعت على شفتيه ابتسامة تهكم واستهزاء خفيفة.. كان قد تم تقييد يديه خلف المقعد الحديدي الذي

يجلس إليه أمام منضدة معدنية، وكان شاحب الوجه بسبب إصابة كتفه والدماء التي فقدها.

فتحت أستريد العلبة الموضوعة على المنضدة لتكشف عن أدوات تشريح طبية وأخرى تستخدمها للتعذيب وقالت: أين هي؟ إلى أين تتجه؟ تكلم.. كيف استدعيتم الآدمن؟ تكلم.

نظر إليها بنظرة صلبة وحاول قدر استطاعته إخفاء تفاجئه بعودة الآدمن الأصلية للبرنامج ولم يعلق، فمدت أصابعها تعتصر مكان الإصابة في كتفه حتى سال الدم وندت منه صرخة ألم وهي تصيح: تكلم.

عادت تضغط على الجرح بقسوة أشد، وأجفل أيدن وهو يسمع صراخ غسان وغمغم: ماذا تفعل تلك المجنونة؟

أجاب مازن وعقله يفكر في خطة للهرب: تعذبه طبعاً.. هل أنت سعيد الآن؟

نظر إليه أيدن في حيرة فقال: أخبرتك أنه ليس مريضاً.. أنت لا تعرف ما يدور هنا في الخارج.. إنه أسوأ بمراحل مما يحدث في المعزل.. إنه يقتل الناس علناً في الشارع.. المرضى وحاملي المرض.. الأصحاء إن عارضوه.. هناك أناس في الخارج يتنفسون ويحلمون ويأكلون.. بشر مثلنا.. كل ما أخبرونا به وكل الصور في الكتب كذب.

كان رد أيدن: لقد قاموا بغسيل دماغك.

ـ يا أحمق.. نحن من تم تجهيلنا ونحن من تم غسل أدمغتنا.

أتاهم صوت أستريد يصيح: هل جربت من قبل نزع الأظافر.. اسمح لي.

كانت تستدير من خلفه الآن وتتأمل أصابع يديه في تلذذ مرعب وقد بدت مجردة من الإنسانية في تلك اللحظة، ثم مدت أداة رفيعة أسفل أظفار أصبعه البنصر وقالت: سأنزعها واحدة واحدة حتى تتكلم.

ضغط على أسنانه بكل قوته حتى يكتم صرخاته بينما الألم الممض يمزقه ثم صرخ برغمه وازداد شحوب وجهه.

قال مازن متوسلاً بصوت هامس: أيدن.. أتوسل إليك ساعدني.. هذا الشاب لم يكن يحاول نشر المرض أو الإضرار بنا.. كل ما كان يسعى إليه هو إقناع آلاء بمساعدته حتى يحمي وطنه وينقذ من تبقى من بشر.

جاء جنديان وهما يسندان إيلين التي كانت تعرج ونظرت بنظرة خاوية إلى أيدن لثانية قبل أن تدخل إلى حجرة الفحص فقال الأخير: كيف تظنها شعرت عندما أصبتها؟ إن كانت قد شعرت بربع ما شعرت أنا به فقد حققتُ انتقامي منها.

صوت صراخ غسان من جديد.. شعر مازن بتأنيب ضمير شديد.. لم يكن يتخيل أن أستريد غادرت المعزل لتطاردهم؛ لذا قال ما قال كي يماطل في الوقت ولا يتم قتل غسان ولكنه الآن يندم.. كان قتله أكثر رحمة من وقوعه في يد تلك المجنونة.

صرخت إيلين هذه المرة صرخة ألم فانتفض أيدن وهو يرمق حجرة الفحص وقال مازن: ماذا يفعل هذا الطبيب الآن؟

غادر الطبيب بعد نصف ساعة الحجرة فلما رأى الاثنان يقفان أمامه قال: استخرجت الطلقة ووضعت لها بعض المحاليل.. من سوء الحظ ليس لدي مخدر لذا فقدت الوعي من الألم.. سأذهب لتناول العشاء ثم أعود.

كانت أستريد تصيح الآن: هل أخلع الأظفر الثالث أم سترحم نفسك؟

لم يعلق غسان وظل يلهث متألماً فجذبته من ناصيته إلى الخلف وقالت: هل ستظل صامتاً؟ أنا أفهم.. أنت تحبها فقد أخبرتنا أثناء استجوابها بالقصة البلهاء عن الصبي الصغير حامل المرض الذي حبسوه في قفص، والمضحك أنها كانت تُصدق تلك القصة وتشعر بالقلق عليك.. بالمناسبة ما تلك الخطة الحمقاء. محاولة إيقاع الفتاة في حبك حتى تنضم إلى معسكركم.

وتركت شعره.. مضت ثوان ثم ضحك غسان بغتة ضحكة خفيفة وقال في ضعف: ما معدل ذكائك بالضبط؟ هل ظننت أن كل هذا كان بهدف إيقاعها في الحب.. كان الهدف هو دراسة سلوكها وشخصيتها كبديل للإمبراطور.

قالت وهي ترمقه بنظرة نارية: ماذا؟

أجاب: كم شخصاً قد يهتم لأمر شاب حامل للمرض أسير في قبو؟ يغامر بالكثير كي يطعمه وهو جائع ويؤنس وحدته ويعلمه.. باختصار أردنا التأكد أنها ستكون آدمن صالحة وليست نسخة جديدة منه.

قالت أستريد وهي تنقل عينيها بين أدواتها كي تنتقي أداة جديدة: ستموت كلتاهما قريباً.. هل تظن أن صمتك يحميها؟ سأفتش عنها في الكرة الأرضية كاملة حتى أعثر عليها.

ورفعت أداة تشبه الكماشة بين يديها وقالت: سأحطم أصابعك الآن أصبعاً أصبعاً.

***

في الساعة الثانية بعد منتصف الليل امتدت يد لتزيح غطاء المجرور الثقيل المثبت بأحكام بكل بساطة، ثم وقفت هديل بالأسفل قليلاً للتأكد من خلو الشارع من الناس قبل أن تصعد ثم تمد يدها لتعين آلاء على الصعود وقالت الأخيرة وهي تتنفس الهواء البارد بعمق: آه.. رائحة الهواء النقي.

أعادت هديل الغطاء ثم راحت تعيد المسامير الضخمة بإحكام وهي تقول: حتى لا يقع حادث.

ـ هل نحن بالقرب من المتحف الوطني؟

ـ إنه على بعد واحد كيلومربع وهو مغلق الآن، ولكن يمكننا أن نذهب إليه بعد أن أنتهي.

تحركا معاً جهة المتحف وقالت هديل: أحتاج إلى صيانة جسدي فقد تعرض للكثير.. وعلينا أن نشتري ثياباً لك.

كانت هديل قد حملتها وسارت بها وسط الماء الآسن وهي ترفعها بعيداً عنه لوقت حتى وصلا إلى مناطق لا تغمرها المياه في المجارير، وكانت تعرف أين تذهب لأن خارطة شبكة المجارير موجودة في عقلها الآلي.

وصلا إلى حيث المتحف وكان الحارس يجلس مغالباً النوم في هذا الوقت المتأخر، وتوقفت هديل وقالت: هناك صوت مألوف.. مهلاً.. سأقوم بتحليل الأصوات القريبة.. إنه صوت خالك رامي.. أعرفه منذ خمسة عشر عاماً.

التفتت إليها آلاء في لهفة وقالت: أين؟

تفحصت هديل المباني المتواجدة في الميدان حول المتحف ثم أشارت إلى جهة الغرب وقالت: من هنا.

قالت آلاء وهي تسرع الخطى: هذا فندق.. إنهم ينتظروننا.

تبعتها هديل إلى حيث الفندق وأوقفهما الحارس خارج البوابة وسأل وقد تقلصت ملامحه من الرائحة: إلى أين؟

قالت آلاء: أقاربي نزلاء هنا.

ثم فطنت إلى أنها لا تعرف في أي حجرة ولا حتى أسماءهم في الأوراق المزورة، فمدت يدها إلى جيبها لتخرج أوراقها التي تمزق جزء منها بعد كل الأحداث التي مرت بها وغمغمت: أوراقي.

هز الحارس رأسه في إصرار وقال: لا يمكنك الدخول وتلك الأوراق غير..

قاطعه صوت فريد وهو يهتف: آلاء.

حدقت آلاء في والدها الواقف أمامها هابطاً الدرج، وبرغمها تجمعت الدموع في عينها وهي تتجه إليه راكضة متمتمة بصوت خنقته الدموع: بابا.

احتضنها في لهفة قبل أن تتقلص ملامحه بدوره وهو يقول: ما تلك الرائحة؟

حصلت آلاء على حمام دافئ أنعشها وغادرت إلى الجناح الذي استأجره والدها، وكان قد دفع مبلغاً كبيراً كي يتغاضى الموظف عن عدم امتلاكه أوراقاً هو وهديل التي جلست تُصلح الهاتف التالف الخاص بآلاء بينما يغمغم رامي: أنت.. أنت لم تتغيري مطلقاً.. لا أصدق أنني استضفت آلة في بيتي منذ أعوام.

أجابت هديل: لم أتعمد الكذب.. كنت مصابة بتلف في الذاكرة.. أنت تغيرت كثيراً.. ما كل هذا الشيب في شعرك ولم فقدت الكثير من حيويتك وكتلتك العضلية؟

احمر وجه رامي ولم يعلق وسألت آلاء: أين البقية؟ أين غسان وإيلين ومازن؟

أجاب كريم: لم يصلوا بعد.

أشار فريد إلى الطعام الموضوع أمام ابنته كي تأكل ففعلت.

قالت هديل: الاحتمال المرجح أنه قد تم اعتقال هؤلاء الثلاثة.

أجاب فريد بلهجة حاسمة: لا شأن لي سوى بمازن.. سأعيده ثم نعود جميعاً إلى المعزل.

وتذكر تلك الصفقة المشؤومة مع الإمبراطور وخطرت في باله رغداً المسكينة.. لا بد من حل يجعل الإمبراطور يغير رأيه.

قالت آلاء: أنا لن أعود.

رفع والدها عينيه إليها فأكملت في أصرار: لن أسمح له بالقضاء على هديل، وأن يظل إلى الأبد يحكم الأرض بمن عليها.. سأوقفه وسأقضي عليه.

قالت هديل: أنا معك.. سأستعيد حق الإدارة والسيطرة على نفسي من جديد وسأمحوه من بياناتي للأبد.

كان التلفاز يعمل بصوت خفيض على سبيل التسلية وكان يعرض أشياء غريبة ثم توقف العرض وبدأ عرض أخبار مهمة، فقالت هديل ببساطة: إنها رسالة إليك يا آلاء.

استدارت العيون إلى شاشة التلفاز قبل أن تنهض آلاء وتشهق وهي تحدق في الأخبار المعروضة.

***

قبل ساعتين

بخفة دلف أيدن إلى حجرة الفحص وألقى نظرة سريعة على إيلين الفاقدة للوعي على السرير وقد تم تقييد أحد يديها بالأصفاد إلى حافة السرير.. ربما بالغ في إطلاق النار عليها، ولكن ردها استفزه وأثار جنونه تماماً.. غادر الحجرة وأغلق الباب ثم سمع صوت أستريد تسب وتلعن وتصيح: لا تفقد الوعي الآن وإلا مزقت أوصالك.

لا يدري حقاً ما يفعل.. لقد تطوع لتلك الحملة فقط كي يصل إلى إيلين والآن لم يعد راغباً في موتها ولا في أي شيء سوى العودة إلى المعزل ففي كل يوم يقضيه في العالم الخارجي يكتشف كذبة جديدة كان يحيا فيها

واتجه مازن إلى حجرة الاستجواب وطرق الباب ثم دلف في جرأة وحتى الحارس لم ينبس بكلمة..

وانقبض قلبه وهو ينظر إلى الدماء على الأرض ووجه غسان الذابل الذي فقد الوعي قبل أن يقول: هل تحاولين قتله؟ إنه مصاب وفي حالة حرجة.

صاحت أستريد في شراسة: فليذهب إلى الجحيم.. إنه يأبى الاعتراف.

أجابها مازن بتحدّ: وماذا بعد ذلك.. هل ستستجوبين الجثة؟

احتقن وجهها في غيظ وأسرع أيدن يؤيد صديقه ويقول: عليك إبقاؤه حياً يا سيدتي حتى يعترف لك.. إن مات فلن تصلي إلى آلاء.

تذكرت أستريد مهلة الثماني والأربعين ساعة فقالت آمرة الحارس: أحضر الطبيب.

جاء الطبيب إلى الحجرة وراح يتفحص نبض غسان وفتح عينيه لينظر فيهما ثم قال: يحتاج إلى أن يُنقل إلى المستشفى.

قالت أستريد: عالجه هنا.

ـ ليس وهو بتلك الحالة.. يحتاج لتدخل جراحي ونقل دم وأن تعثري على طبيب ومستشفى يقبل بعلاجه، فلا تنسي أنه مريض.. الأفضل نقله إلى مستشفى في العاصمة.

عقدت أستريد حاجبيها مفكرة قليلاً ثم قالت: مهلاً.. أحضروا لي كاميرا تصوير.. بسرعة.

وراحت تلتقط له عدة صور ثم قالت باسمة: الآن انقلوه إلى المستشفى.

ثم استدارت إلى مازن وقالت بالابتسامة الظافرة نفسها: اقبضوا على مازن الآن.. أنت متهم بالتآمر معهم.. بصراحة لا أصدق أن محققاً مخضرماً مثلك كان رهينة.

اتسعت عينا أيدن بينما الحارسان يمسكان مازن في حذر، ولكن الأخير قال: تحاولين جر قدم فريد؟.

أجابت: أجل.. من المفترض أن أعيده معي سالماً لذا أُفضل أن أضرب عدة عصافير بحجر واحد.

وهكذا تم عرض الخبر على شاشات التلفاز المحلية باللغة الإنجليزية وظهرت أستريد شخصياً لتعلق: تم القبض على خلية تخريبية مكونة من ثلاثة أفراد وتقرر بعد الحصول على اعترافهم إجراء محاكمة سريعة لهم، وحكمت أنا بنفسي عليهم بالإعدام بعد الغد في العاشرة صباحاً في الميدان أمام القصر الكبير.. وهم: إيلين أليرو وغسان مختار ومازن منصور المعروف رسمياً بعد التبني الأمني بمازن فريد...ونشير إلى أن زعيمتهم (آلاء فريد) التي نعرض صورها منذ البارحة ما زالت هاربة وجاري البحث عنها.

عرضت الشاشة صور الثلاثة.. إيلين فاقدة للوعي على السرير، ومازن بين الحارسين ويبتسم في سخرية متحدية، وغسان بوجهه الشاحب وعينيه الذابلة ثم صورة لآلاء.

اتجهت آلاء نحو التلفاز وهي تصيح: سوف تقتلهم.. بابا.. ماذا سنفعل؟

امتقع وجه فريد ثم نظر إلى هديل وقال: هذه المرة لن أستسلم ولن أعقد صفقات.. دعينا نقضي على ذلك الإمبراطور وأذنابه ولكن أولاً علينا إعداد خطة لإنقاذ هؤلاء.

قالت هديل: هذا فخ للإيقاع بنا.

هتفت آلاء وهي تمسك كف يدها متوسلة: ولكن لا يمكن أن نتخلى عنهم.. أنت لديك جانب بشري وتفهمين ما أقول.

تفحصت هديل الصور المعروضة على التلفاز باهتمام دون أن تبدي رداً ثم قالت: أولاً فلنغادر الفندق الآن فهي مسألة وقت قبل أن يصلوا الينا.. إن بيامترِ لا تعمل هنا ولكن تظل هناك كاميرات مراقبة وضباط يقومون بتفحصِ الكاميرات، وسرعان ما سيعثرون علينا خلال يوم أو ساعات.. هذا الشاب حالته حرجة وستضطر تلك المرأة لنقله إلى المستشفى.. هناك ثلاث مستشفيات في بانكوك حالياً تعمل بكفاءة.. مازن نظرته فيها ثقة.. إنه متأكد من حصوله على مساعدة من الداخل.. لننتظر بعض الوقت فإذا لم ينجحوا في الهرب سنتدخل.

***

(١٠)

نظرة واحدة فقط كي يطمئن.. يتجه أيدن إلى حجرة الفحص حيث ترقد إيلين فيدخل بحذر ويلقي نظرة سريعة وهو يتساءل لم تبخر كل غضبه اتجاهها الآن.. فتحت عينيها ونظرت إليه فتجمد لثوان في موضعه ثم استدار منصرفاً فقالت: لقد أطلقت علي النار.

توقف ودون أن يلتفت أجاب: وإن عاد بي الزمن فسأكررها.. أنت مطلوبة.

واستدار إليها وقال: بعد أن قتلتِ وجرحت العشرات أنت ورفاقك المجانين.

ـ نحن لم نفعل هذا.. لقد قام بتغيير موضع القنابل كي..

قاطعها: المحصلة واحدة.. قنابلكم هي من سببت ذلك وخططكم.

ـ أعرف.. وأندم على ذلك.

كانت أول مرة في حياته يسمعها تبدي ندمها على شيء بهذا الصدق فقال: هذا جيد.. وداعاً يا إيلين.

ـ مهلاً.. هل أنت بخير؟ أخبرني مازن بحالتك.

ـ لا شأن لك بحالتي.

أومأت برأسها موافقة وغمغمت: هذا صحيح.. لا شأن لي.. ولكن.. أنا لن أسامح نفسي أبداً لأنني آذيتك.

غادر الحجرة ثم اتجه إلى المركبة الحربية وسأل القائد: سيدي معذرة.. أرغب في التواصل مع سمو الإمبراطور أو أي مسؤول عن القائدة أستريد.

أجاب القائد في غيظ: لا أحد مسؤول عنها أو يمكنه محاسبتها سوى مولانا الإمبراطور ولا أحد يتصل به سواها.

ـ إذاً فلنتواصل مع أحد العاملين في القصر الإمبراطوري.. فقط أخبرهم أيدن رسلان أن معي أمراً مهماً لسمو الإمبراطور يخص الرهائن والهاربين.

بعد ساعة استطاع أيدن الوصول إلى الإمبراطور الذي تلقى مكالمته وظهر أمامه على شاشة عرض في المركبة فقال أيدن: مولاي أعتذر عن ازعاجك لكن الأمر خطير..

وراح يقص عليه ما حدث ولاحظ الغضب الذي أطل من عينيه وهو يستمع ثم قال بلهجة صارمة: فلتفعل ما تشاء فمعها كل الصلاحيات.. أنتم جنود ووظيفتكم طاعتها دون نقاش.

أنهى المكالمة فغمغم قائد المركبة ساخراً: ألم أقل لك؟

عاد يتجه إلى المبنى الأمني فاتجه إلى الزنازين وقال للجندي الذي يقف للحراسة: مفاتيح الزنزانة.

لم تكن لدى الحارس تعليمات تمنع ذلك ففتح له الباب ودلف أيدن وسار في ممر به زنازين على جانبيه حتى وصل إلى الزنزانة ففتحها ودلف إليها فرفع مازن بصره إليه وقال: تأخرت.

ـ آسف.. أنا لم أعد أفهم شيئاً ولكنني أعرفك وأثق بك.. اهرب من هنا.. لن أسمح لتلك المجرمة بإعدامك.

قال مازن: تعال معي.. إن بقيت هنا فستقتلك أو تعتقلك بتهمة الخيانة والتآمر.

ـ لا تقلق فأنا ابن رسلان.

ـ لن تبالي وإن كنت ابن الإمبراطور شخصياً.. هناك حل آخر.. هل معك سلاح؟

ـ أجل.. ومفتاح أحد المركبات الصغيرة ولكنها لن تطير بك بعيداً.

هكذا غادر مازن الزنزانة وفوهة السلاح مصوبة إلى صدغ أيدن الذي رفع يديه مستسلماً وصاح مازن في الحارس: لا تتحرك.. كلمة أو حركة وسأفجر رأسه.. ادخل إلى الزنزانة.. أسرع.

دخل الحارس إلى الزنزانة مستسلماً ومد مازن يده إلى جيب الحارس فانتزع المفاتيح ثم أمره بخلع ثيابه وأغلق عليه الزنزانة وبدل ثيابه ثم اتجه إلى أعلى وضغط زر إنذار الحرائق، وعلى الفور انفجر الماء من رشاشات مثبتة في السقف مع صوت إنذار أربك الأمن في المبنى وجعل مازناً يتحرك مع أيدن مسرعاً دون أن ينتبه أحد إلى هويته، ودلف إلى حجرة الفحص حيث جلست إيلين متحفزة. قال مازن: هل تستطيعين الحركة والسير؟

ـ سأحاول.

أطلق النار على الأصفاد لتتحطم فنهضت إيلين وتلفتت حولها بحثاً عن عصا طبية كانت قد لمحتها مسبقاً ثم اتجهت إلى ركن الغرفة وجذبتها لتتوكأ عليها وقالت: أنت السبب كما تعلم.

موجهة حديثها إلى أيدن الذي أجاب: فقط اهربي بعيداً.

وأسرع يفتح نافذة الحجرة فوجدها مغلقة بقضبان حديدية فقال: هناك حجرة في آخر الممر جهة اليمين نافذتها تصلح وتطل على الجزء الخلفي من المبنى.. استخدم المركبة رقم (٢) يا مازن.

أسرع مازن وإيلين إلى الغرفة المنشودة وفتح مازن زجاج النافذة ونظر إلى أسفل حيث تقبع المركبة الرئيسية على مقربة كذلك المركبات الصغيرة الثلاثة وقال: هل تستطيعين الهبوط عبر أنابيب المياه؟

ألقت العصا من النافذة ثم مدت يدها إلى الأنبوب القريب وبدأت تهبط كلصّ محترف رغم إصابتها، فغمغم مازن بشيء ما لنفسه وهو يلحق بها و كان الجنود يقفون بالقرب من المركبة الرئيسية وقد تُركت المركبات الصغيرة بلا حراسة قوية ربما لثقتهم في برمجتها التي توقف العمل بها عند الطوارئ.

دلفا إلى المركبة وجلست إيلين على المقعد تلهث ألماً وتتحسس موضع إصابة قدمها، بينما ضغط مازن زر القيادة الآلية فارتفع صوت آلي: أرجو تحديد الوجهة.

ـ مدينة بانكوك.

فوجئ الجنود بانطلاق المركبة الصغيرة بسرعة وخرج القائد مسرعاً من المركبة الرئيسية وهتف: ماذا حدث؟ من يقود تلك المركبة؟

صاح جندي جاء ركضاً من مبنى الأمن: المجرمان قد هربا يا سيدي.

هتف القائد: تباً.. ستقتلنا القائدة أستريد.

وكانت أستريد في مركز شرطة بانكوك الرئيسي ترمق عشرات الشاشات أمامها والتي يجلس إليها عدة ضباط يتابعون محتواها وقالت لنفسها: البشر في غاية البطء.. لو كنا في المعزل لتمكنت بيامترٍ من العثور عليهم في ثوان.

جاء حاكم تايلاند شخصياً ليقف بجوارها ويقول في تملق: لقد تشرفت برؤية مساعدة الإمبراطور الأولى وذراعه اليمنى.. أنا هنا أبذل جهدي لـ..

قاطعته بفظاظة: اخرس فأنا أحاول التركيز.

وعادت تتابع الشاشات ثم قالت: هل أنتم أغبياء؟ لم لم تصلوا إليهم حتى الآن؟

قال أحدهم: عثرنا عليهم.. التقطتهم كاميرا المتحف الوطني.

في لهفة اقتربت أستريد من الشاشة ونظرت إلى فيديو يعرض رامي وكريماً وتاريخ الفيديو يعود إلى يوم سابق فقالت: أسرعوا بالعثور عليهم.

ارتفع رنين جهاز الاتصال الخاص بها فتنحت جانباً كي تجيب قبل أن يحتقن وجهها وتصرخ: ماذا قلت؟ هربا في المركبة الصغيرة.. متى؟ منذ دقائق.. حمقى.

وأغلقت الاتصال والشرر يكاد يتطاير من عيونها.. إنها في موقف حرج وعليها الآن الاتصال بالإمبراطور وإبلاغه، وحتماً ستتلقى اللوم والتقريع منه.

***

بضعف فتح غسان عينيه وشعر بالألم في كتفه ونظر حوله ليجد نفسه في حجرة في مستشفى وقد عُلقت له المحاليل فنظر إلى كتفه ليجده مضمداً بإحكام وقد تم إزالة الطلقة وخياطة الجرح كما تم تضميد بعض أصابعه اليمنى حيث نُزعت الأظافر وتجبيس أصبعين آخرين مكسورين في اليسرى التي قيدت إلى السرير بالأصفاد، ثم دلف الطبيب إلى الحجرة وقال: لقد أفقت إذاً.. كيف تشعر؟

ـ بخير.. بعض الألم فقط.

ـ سأحقن بعض المسكنات.

وكان هناك جنديا حراسة على باب الحجرة يتحدثان فأصغى السمع إليهما. قال أحدهما: داهمت القوات الفندق لكنهم كانوا قد رحلوا بالفعل.. كذلك المركبة كانت خالية.. إن القائدة ستجن وقد أمرت بتفتيش جميع الفنادق والمنازل في البلد.

سأل الآخر: هل حقاً ستقوم غداً بإعدام غسان هذا؟

ـ غداً هو فخ.. لا أظنها تود قتله قبل أن يخبرها بما تريد.

ـ أنا أكرهها.. لقد قتلت زملاءنا بالقذائف ولم تبالي بهم فقط كي تصل إلى تلك الفتاة.

انتهى الطبيب من فحصه وبنظرة إلى ملامح الطبيب أدرك أنه كغيره من سكان البلد لا يطيق حكم الإمبراطور ويعتبره احتلالاً فقال بصوت خفيض: هل قبضوا على أحد من المطلوبين يا سيدي؟

نظر إليه الطبيب ولم يعلق فعاد يهمس: نحن نسعى للتخلص من الإمبراطور ورفاقي من داخل المعزل في الواقع.

مضت لحظة صمت ثم قال الطبيب: لم يقبضوا عليهم بعد.. صورهم تعرض على التلفاز طوال الوقت.

وجَّه غسان نظره إلى الأصفاد الحديدية حول يده اليسرى التي تثبته إلى السرير بصمت، فهز الطبيب رأسه وأوقع عمداً إبرة تشريح مدببة الطرف أسفل السرير ثم غادر وعاد الحارس يغلق الباب.

حاول تحريك يده اليسرى فلم يستطع وآلمته بشدة فهي من جهة مصابة بطلقة ومن جهة أخرى بها أصبعان مكسوران.. حاول تحريك اليمنى بحذر فالألم أخف وجذب الإبرة من أسفل السرير وقام بفك القيد ثم ترك القيد كأنه مغلق وخبأ الإبرة أسفل الوسادة وعاد يستلقي.. وجاءت ممرضة وقامت بتبديل عبوة المحاليل الفارغة بأخرى جديدة وناولته بعض أقراص المضاد الحيوي وكوب ماء فتناول أدويته بصمت أمام نظرات الجنديين المتفحصة وقال الجندي متهكماً: ما جدوى ذلك.. سيموت بعد ساعات.

لكن زميله قال بحذر: فليمت بعيداً عنا.. ماذا لو تدهورت حالته واتهمتنا القائدة بأننا السبب؟

غادرت الممرضة ودلف أحد الجنديين إلى الحمام بينما وقف الثاني عند الباب فهمس غسان ونظر إليه الجندي ثم اقترب منه ليسمع ما يريد قوله، وعلى الفور وضع غسان حافة الإبرة على جانب عنق الجندي وقال بسرعة: أستطيع قطع الوريد العنقي بكل سهولة.. ناولني سلاحك.

غمغم الجندي وهو يرفع يده مستسلماً: هاهو.

أجاب غسان وهو يغادر السرير شاهراً سلاحه: ارفع يدك وولِّني ظهرك.

ففعل ثم أشهر سلاحه في وجه الجندي الثاني الذي غادر الحمام والذي هتف: كيف حررت نفسك؟

ـ ألق سلاحك.

دون كلمة ألقى الجندي الثاني سلاحه أرضاً فقذفه غسان بقدمه بعيداً وقيد الاثنين بالأصفاد إلى حافة السرير وأسرع يغادر الحجرة إلى الممر الخالي في هذا الوقت المتأخر من الليل وهبط إلى أسفل ليجد جنديين آخرين على باب المستشفى، فتراجع بحذر بحثاً عن مخرج الطوارئ حتى وجده فوجد هناك جندي يقف بدوره.. هذه المرة لا حل، فاتجه إلى الجندي الذي يوليه ظهره ثم قال: بإذنك.

استدار إليه الجندي فعاجله بلكمة قوية أفقدته الوعي وجعلت يده تنبض بالألم بينما الدماء تظهر أسفل الضمادات فتأوه وهو يسرع مغادراً بينما يده اليمنى ترجف بلا انقطاع، ووجد نفسه في حديقة المستشفى التي يقف بها أيضاً بعض الجنود فتمتم: إنهم في كل مكان.

تراجع ثانية بحذر وهو يبحث عن مكان للاختباء قبل أن يشعر بحركة خفيفة خلفه فاستدار ليجد غطاء أحد المجارير يتحرك.. ضيق عينيه غير مصدق قبل أن ينزاح الغطاء بهدوء ويظهر رأس فتاة باسمة همست: مرحباً غسان.. هيا اتبعني فالجميع ينتظرك.

وقف يحدق فيها عاجزاً عن النطق فقالت وقد اتسعت ابتسامتها الغريبة: أسرع قبل أن يقبضوا عليك.

ـ من أنت؟

ـ بياهديل.. اسم جميل.. أطلقته علي آلاء.

دون كلمة أخرى اتجه إلى الفتحة ووجد سلماً من الحديد الصدئ يؤدي إلى أسفل، وصعدت الفتاة وأشارت إليه بالهبوط ففعل ثم تبعته وأغلقت خلفها الفتحة وقالت: شبكة المجارير آمنة.. أنا أعرف الطريق فاتبعني.

قال وهو يتبعها: هل قلت أن اسمك.. مهلاً.. هل أنت..

ـ أجل.. أنا الآدمن.. قلت لهم أنك ستهرب ولكن آلاء كانت قلقة عليك كثيراً وفقدت شهيتها كذلك.

ـ أنت الآدمن.. ستتعاونين معنا ضد الإمبراطور؟

ـ طبعاً.. سأسترد حقي في السيطرة على برنامجي.. سأعيد برمجة بيامتر.

وصلا بعد وقت من السير في طرق معقدة إلى فتحة واسعة مستديرة مغلقة ببوابة من القضبان الحديدية وتطل على غابة. فتحت هديل البوابة ثم أغلقتها خلفه وقالت وهي تجد السير: بعد قليل نصل إليهم.. الجميع هنا.

خفق قلبه وعيناه تقعان على وجه آلاء الباسم وعينيها الدامعتين قبل أن يحتضنه مازن وكريم في أخوة وتأوه بسبب الجرح في كتفه فتراجعا معتذرين.

قالت إيلين باسمة: هل برزت لك من فتحة المجرور.. لقد فعلت معنا هذا بالقرب من المتحف الوطني وكاد قلبي يتوقف من الفزع.

كان فريد يرغب في ضربه حتى الموت لتوريطه ابنته في كل ذلك، ولكن حديث كريم المطول عنه ومدح مازن لصلابته أمام تعذيب أستريد له إضافة إلى حالته الصحية جعله يتراجع.. دعك من أنه أنقذ حياة آلاء.

قدموا له ثياباً نظيفة وكانت هناك خيمتان معدتان بإتقان فبدل ثيابه ثم استلقى في المخصصة للرجال ونام بعمق وفي المساء جلس الجميع يتناولون العشاء حول النار كأنهم في رحلة تخييم، واقترب منهم مجموعة من المرضى زائغي الأعين قبل أن يسقطوا أرضاً متكومين يحدقون اتجاه النيران فقالت هديل: تلك الغابة تعج بالمرضى لذا اخترتها فهي بلا بشر ولا حراسة.. إنهم في المراحل الأخيرة وخلايا العقل معظمها مدمرة بالفعل.. سيموتون خلال أيام.

تأملت آلاء وجوه المرضى بحزن وأسى.. كل ما قيل عنهم كان كذباً محضاً فغمغمت: أتمنى علاجهم.

قالت هديل ببساطة: هناك علاج بالفعل.

حدق فيها الجميع وتساءل غسان بلهفة: ماذا؟ حقاً؟

أجابت وهي تتشمم الحساء المعلب: أجل.. منذ سنوات عرض فريدمان قبل أن يصبح الإمبراطور قنينة بها دواء على بيامتر وقام بتجربة العلاج سراً على مريض وكانت النتيجة ممتازة ولكنه لم يتحدث عن العلاج بعد ذلك وقام بالتخلص من القنينة.. لا أدري من أين حصل عليها.

قال فريد: هل تقصدين أنه كان يمتلك علاجاً بالفعل؟ وتخلص منه وأخفاه؟ وأخفى المعلومات عنه؟

ـ لا يهم.. ما زالت تركيبة الدواء في ذاكرتي.. والآن لنعد خطة أخيرة للتخلص منه وتحرير العالم والمعزل.

نظرت إلى قدمها اليمنى وعلقت: وعلي إعادة صيانة قدمي.. تضررت عندما حطمت فتحة المجرور منذ أيام.

لم يعلق أحد على كلامها واكتفوا بالتحديق فيها.. تم إعداد الخطة وراحوا يراجعونها مراراً وتكراراً ويضيفون التعديلات إليها، وفي اليوم التالي أعلن التلفاز أن حملة الإمبراطور الأخيرة ستشمل حملتين وستهاجم ما تبقى من دول غير خاضعة بكل قسوة خلال أسبوعين وأن أمام تلك الدول مهلة ثلاثة أيام لاستسلام غير مشروط أو الخضوع بالقوة.. هكذا لم يعد أمامهم سوى الاستعجال. قال رامي: لقد تعجل في خططه بعد أن أدرك أن آلاء وهديلاً أفلتتا.

بما أنه لم يتبق سوى سويعات قليلة وتتفرق المجموعة لتنفيذ الخطة فقد قرروا الجلوس إلى بعضهم والتحدث بكل صراحة.. فجلس فريد بجوار مازن على صخرة وراح يتحدث إليه ويقص عليه سبب خضوعه

للإمبراطور ويبدي ندمه على ذلك.. حدثه عن مشاعر الشفقة والندم التي تجتاح قلبه كلما نظر إليه وكلما تذكر والده والذي كان صديقه المقرب. كانت تلك المصارحة هي أفضل ما فعله فريد لأن الدموع التي تجمعت في عينيه وكانت حقيقية نابعة من قلبه جعلت مازناً قادراً على مسامحته وهدأت من الصراع اتجاه فريد بين الغضب والكراهية من جهة والحب والتقدير من جهة.

جلست هديل بجوار رامي وقالت: ما زلت طبيباً بارعاً فقد أحسنت العناية بإصابات غسان.

غمغم: لم أعد بالبراعة نفسها.

ـ بلى.. عليك أن تعود طبيباً عندما ينتهي كل شيء وأن تعتني بالمرضى.

جلست إيلين بجوار آلاء وقالت تحدث نفسها في الواقع: في المرة القادمة التي سيطلب فيها أيدن الزواج مني سأقبل.. وسأعيش معه في منزله وسأحاول تجاهل مشاعري اتجاه والده.

لم تفهم آلاء وألقت نظرة على شقيقها الذي يثرثر مع غسان ثم أشاحت ببصرها وقد احمر وجهها في حياء.

أدى الجميع صلاة العصر وقالت هديل: سأشرح لكم ماحدث معي.. لسنوات ظللت أدير بيامتر بشكل عادي حتى فوجئت يوماً بإدخال شريحة إلى نظامي وبمحاولة فريدمان محوي والاستيلاء على البرنامج.. لكني نقلت نفسي فوراً إلى برنامج ذكاء صناعي خاص بأحد الروبوتات المطورة في المصنع في المنطقة المحظورة وظللت في حالة سبات لسنوات، بعدها

عندما اندلعت الحرب في المناطق السفلى وتواجه فريد مع الإمبراطور وتم التعرف عليه على أنه أحد أحفاد يوسف استيقظت واستخدمت جسد الروبوت الذي كان في حالة تصلح وتوجهت إلى المنطقة (٨) ذلك لأنني مطالبة بحماية أسرة صانعي.

قال رامي باسماً: لم يخطر في بالي أنك لست بشرية.

ـ أصبت في قصف وتضررت بعض الدوائر لدي وتضررت الذاكرة مؤقتاً ولكنني استعدتها بعد ذلك ثم صنعت شريحة ترسل لي إشارة تحسباً كي أستيقظ وقت اللزوم ووضعتها في قلادة آلاء ونقلت نفسي من جديد إلى روبوت جديد بعد أن تخلصت من الجنود الأربعة الذين رغبوا في إيذاء أسرتي.. هكذا قام الإمبراطور بمحو برنامج الروبوت وتفتيت الجسد وهو يظن أنه تخلص مني لكنني ظللت في سبات حتى أيقظتني آلاء بضغطة على قلادتها أرسلت لي إشارة.

قال غسان: سنبدأ الخطوة الأولى من تنفيذ الخطة.. المؤسسة ستتعاون لنقلنا عبر قطارات خاصة هي الأسرع في العالم قبل الوباء بالتعاون مع الدول غير الخاضعة وأيضاً خلايا المقاومة في الدول المحتلة سيتم نقل الفريق الأول المكون مني ومن آلاء وكريم إلى مصر وسنصل إلى هناك خلال عشرة أيام.. القطار يسير بسرعة ٧٠٠ كيلومتر في الساعة.

بدا قلقاً مهموماً وهو ينظر إلى آلاء فقالت هديل: لا تقلق.. سنضع بعض محتويات عقلها على شريحة ولكنها ستظل حية لأننا لن نُفرغ كل المحتويات.. نحتاج إلى تشتيت تركيزه عني بالتظاهر بأنها تحاول الاستيلاء على البرنامج من فرع مصر.

قالت آلاء: لا أمانع إن كان هذا سيجعل الخطة تنجح وسينقذ العالم.

قال فريد: والفريق الثاني المكون مني ومن رامي ومازن سأعرض الصفقة على الإمبراطور وسأحاول التواجد معه في الوقت الذي تم تحديده.

قالت إيلين: والفريق الثالث المكون مني ومن هديل سنتسلل إلى المعزل وأقوم بالتمويه حتى تصل هديل إلى المنطقة المحظورة بعدها وإلى بيامترِ هناك.

قالت هديل: ستكون إيلين قد شفيت وتستطيع الحركة والقتال كالسابق.

هتفت إيلين بحماس: أنا جاهزة.

***

تراجعت كريمان في توتر بينما يقتحم الجنود القصر وقالت في غضب: كيف تجرؤون؟ هذا قصر رئيس الحكومة.

تجاهلها الجنود وشهروا أسلحتهم في وجهها ووجه كريمة التي تراجعت لتحتضن والدتها في خوف. قال رئيس الجنود: أنتما رهن الاعتقال.. ستنتقلان معنا إلى المنطقة المحظورة حتى يعود زوجك الهارب ويسلم نفسه.

حاول بعض الخدم التدخل ولكن كريمان أشارت إليهم ألا يفعلوا حفاظاً على حياتهم. قالت بكبرياء وهي تشمخ بأنفها لأحد الخادمات:

أعدي حقيبة صغيرة بها ثياب لي ولكريمة ومناشف وفرشاة شعر وأسنان ومعجون وصابون.

قال القائد ساخراً: هل تظنين نفسك ذاهبة في نزهة؟

أجابت ببرود: انتظر ريثما أرتدي ثياب خروجي أنا وابنتي.

واستدارت صاعدة مع ابنتها إلى الطابق العلوي فأشار القائد إلى أحد جنوده كي يتبعها.

بعد نقلهما تم إبلاغ الإمبراطور الذي هز رأسه في رضا ثم استعد لتوجيه ضربته.. لن يجلس هنا في انتظار أن يُنزع منه كل شيء.. فريدمان ولد لأسرة فاحشة الثراء تمتلك ثروة تعادل ميزانية عدة دول وأخبره والده ذات مرة عندما كان طفلاً: هل سمعت بمصطلح حكومة الظل من قبلُ يا بني؟ إنها نحن.

هناك عدة أسر تحكم العالم في الخفاء وكانت عائلته واحدة منهم.. مصدر ثروتهم الأساسي كان بيع الأسلحة لجميع الأطراف.. لديهم شركة متعددة الجنسيات لها أكثر من أربعين فرع حول العالم وتعمل في أنشطة مختلفة.. في كل بلد هناك رجال سياسة وذوو مناصب مهمة يتلقون الرشاوى منهم، عندما توجد انتخابات في الدول المتقدمة الكبرى يُنفقون على الحملات الانتخابية بسخاء لضمان نجاح مرشحيهم، تأجيج الصراعات الطائفية والحروب الأهلية لعبتُهم كي يبيعوا المزيد من الأسلحة ويزدادوا ثراءً وتتضخم حساباتهم في بنوك سويسرا، لديهم القوة للضغط على دول بأكملها.. باختصار كانت عائلته تحكم العالم

وقد صارح والده يوماً وهو مراهق: لم لا نعد جيشاً ونغزو دول العالم كلها وتصير دولة واحدة تحت حكمنا.

انفجر والده يضحك في سخرية وضحك معه كبار العائلة قبل أن يقول: الاحتلال العسكري هو أغبى أنواع الاحتلال لأنه يكلف مالاً وأرواحاً وفي النهاية سينظر لك الناس على أنك محتل ويتعاملون معك كعدو ويحاولون قتالك يا (بين).. أما العبقرية حقاً تكمن في الاحتلال الاقتصادي والاحتلال الثقافي.. لن تخسر أرواحاً وستُحكم السيطرة.

اسمه (بينجامين فريدمان) ظاهرياً يعمل في منصب بارز في وزارة الدفاع الأمريكية. وفي يوم وقعت عيناه على مشروع بيامتر فشعر بانبهار لم يشعر به منذ سنوات.. التقى بيوسف عبد الواحد وأدرك منذ الوهلة الأولى أنه أمام عبقري نادر.. أدرك كذلك أن يوسف عاطفي أحمق لا يكف عن الحديث عن البشرية وتحسين الحياة فكان فريدمان يقول لنفسه: فلتذهب البشرية إلى الجحيم أيها الأبله.. لو كنت مكانك لبعت هذا المشروع بمليارات الدولارات.

راح يراقب المشروع لسنوات وفي كل لحظة كان المشروع يثبت نفسه ويثبت عبقرية مصممه ويزداد فريدمان طمعاً في الاستيلاء عليه.. إنه يصلح للتحول إلى سلاح رهيب قادر على إخضاع دول لو أُحسن استغلاله، ولكن يوسف هذا لن يقبل وهو للأسف من صمم المشروع ووضع له قوانين وبرمجة لا يسهل اختراقها وله سلطة التحكم كذلك.. هنا حدث الوباء وتفشى الذعر في البشرية وتم بناء المعزل.. هكذا وجد

فريدمان نفسه قد خسر الكثير.. لم تعد عائلته ذات نفوذ أو قوة بل أصيب أغلب أفرادها بالوباء، ورغم أن مكانته محفوظة داخل المعزل بسبب ثروته إلا أنه ظل يشعر بالمرارة والحقد وحتى عندما علم بمرض هديل ابنة يوسف وقرر أنها ورقة ضغط ممتازة ماتت تلك الحمقاء وغادر يوسف المعزل قبل إغلاق أبوابه وانتهى حلم فريدمان خاصة بعد أن اكتشف أن بيامترِ صارت لها مشاعر إنسانية قام يوسف بتنصيبها ودمجها وبرمجتها ولم يعد بوسعه فعل شيء فاكتفى بأن يصير رئيس مجلس الحكم الثماني في المعزل.

ثم اكتشفت بيامترِ أن هناك مشتبهاً به هو من قام بنشر الوباء، والمضحك أنه عالم فيروسات مرموق.. التقطته كاميراتها بالقرب من الأنهار ومحطات المياه، وهكذا ذهب إليه فريدمان وصارحه بأنه يعلم حقيقته وأنه يمنحه مهلة لإعطائه علاج لهذا الوباء ثم تخلص منه وحصل على الدواء الـمُخبأ.. وأخيراً سيعالج الوباء ويعود إلى العالم بنفوذه السابق.. ستعود الأمور كما كانت.

***

لكنه كان ذكياً وحينما قرأ التقرير الذي عادت به الحملة وقتها أدرك أن الأمور خارج المعزل هي كابوس مقيم.. الحكومات تنهار وقد صارت هشة.. المرض ينتشر أكثر وأكثر والناس تختبئ مذعورة والحياة شبه متوقفة.. عليه أن ينتظر لسنوات طويلة حتى تعود الحياة بالخارج هذا إن عادت.. هكذا قرر السيطرة على الداخل أولاً.. هناك طريقة ليُخلد إلى

الأبد بل ويحكم العالم كما تمنى.. الاستيلاء على بيامترِ ثم الاستيلاء على المعزل ثم الاستيلاء على العالم ثم السيطرة عليه كليةَ بتشغيل جميع فروع بيامترِ من جديد حول العالم...أربع خطوات فقط.. ستكون التضحية غاليةَ جداً بأن يفقد حياته لكنه سيُخلد ويحكم العالم كله إلى الأبد.. هكذا باستخدام التقنية المعقدة نفسها التي استخدمها يوسف؛ تم نقل محتويات عقله من مشاعر وذكريات إلى شريحة ووضعت في بيامترِ وكأي برنامج متسلل قام بمحو آدمن البرنامج الأصلي وأخذ مكانه أَو هكذا ظن ثم أحكم سيطرته عليه ليبدأ في إنتاج الأسلحة والسيطرة الأمنية على المعزل ثم يعلن الإمبراطورية ويقتل جميع المعارضين.. المشكلة الخطيرة التي واجهته أن بيامترِ لا تعمل بكفاءتها السابقة معه وأحياناً ما ترفض طاعة أوامره وتعتبرهَ فيروساً، وأحياناً تخطئ في الاستنتاج والتحليل.. أدرك أن أحفاد يوسف الحاملين لجيناته هم تهديد لنفوذه كما أنهم قد يساعدونه لتقوية هذا النفوذ في الوقت نفسه.. التعديل على القانون الثالث الذي قام به يوسف يمنحهم نفوذاً على بيامترِ.. لن يتخلص منهم إلا بعد سيطرته على العالم وفتح فروع بيامترِ من جديد.. عندها سيحولهم جميعاً إلى شرائح ويحاول دمجهم معه بحيث يظل مسيطراً وتعود بيامترِ للعمل بكفاءتها السابقة.. الأمر سهل الآن لأن لجميع الدول لا تمتلك حالياً طائرات من أي نوع ولا أسلحة مضادة لها.. إن قصفهم من أعلى وتحطيم وحرق مدن كاملة في غاية السهولة كلعبة من ألعاب الفيديو القديمة.

***

غادر غسان بصحبة كريم وآلاء وكانت هديل قد كتبت تركيبة علاج الوباء في مفكرة في عشر صفحات فتناولها كريم في لهفة وراح يقرؤها في اهتمام وهو يغمغم لنفسه: نظائر النوكليوتيدات طبعاً.. هممم.. هناك عدة مراحل.. هممم.. لا أصدق.. كيف لم..

وراح يهمهم في شرود وقال فريد في قلق بعد مغادرتهم: ولكن ماذا إن تعرضوا لهجوم؟ غسان مصاب وكريم لا يجيد القتال.

أجابت هديل: لا تقلق.. القطار به رجال أمن متخفون سيقومون بالحماية عند الضرورة، كما أن القطار غير مسجل ولا رسمي ولن يتم كشفه بسهولة خاصة في غياب نظام أمن متطور وفي غياب بيامترِ.

ـ وماذا عنا؟

ـ سننتظر حتى يقوم الإمبراطور بتهديدك بزوجتك وابنتك.. ثم تتواصل معه وتعقد الصفقة.

هتف مازن: ماذا قلتِ؟ السيدة كريمان وكريمة في خطر.

ـ بالطبع.. إنه يحاول حماية نفسه ولذا سيتعجل في إخراج الحملتين معاً وسيرغب في التخلص مني ومن آلاء لأننا نهدده.

عاد مازن يهتف: كيف قبلت يا أبي بأمر كهذا؟ ماذا لو تعرض أحد منهما للأذى؟

قالت هديل: ليس بيد والدك شيء.. كما أن الإمبراطور لن يعرضهما للخطر لأن كريمة تحمل جينات يوسف من جهة والدها.

ـ لكنه كاد يقتل آلاء.

أجاب رامي هذه المرة: لأنه لن يغامر بخروجها من المعزل.

قالت هديل: اهدأ يا مازن.. لم أنتبه من قبل أنك تحب عائلتك إلى هذه الدرجة.

احمر وجه مازن وابتسمت إيلين ابتسامة خبيثة سريعة قبل أن تعود إلى تمرين قدمها المصابة.

مر يومان ثم ظهرت على شاشات التلفاز في اليوم الثالث في المدينة خبر اعتقال زوجة رئيس حكومة المعزل وابنته.. تساءل الناس عن علاقة هذا بهم وابتسمت هديل وهي تتأمل الخبر وكانت تضع نظارة داكنة وقد أخفت نصف وجهها بوشاح من الصوف فعادت عبر المجارير إليهم وقالت: لقد تم الأمر.. مهلاً.. قمت بتسجيل الخبر وسأعرضه.

فردت كف يدها الأيمن فتحول إلى شاشة وعرضت تسجيل القبض على كريمان وابنتها ونظرت كريمان إلى الكاميرا ببرود وقالت بأناقة غريبة لا تناسب الموقف: سيعود زوجي قريباً ويحل سوء التفاهم السخيف هذا.. والآن أبعد تلك الكاميرات عني وعن ابنتي وإلا جعلتك تندم لما بقي من حياتك.

أغلق المصور الكاميرا ومضت لحظة صمت قبل أن يقول فريد: ما زالت كما هي.

***

يسير أيدن في شوارع بانكوك مع بعض الجنود مفتشاً عن الهاربين، مر بالقصر الكبير ووقع بصره على مشهد مريع جعل جسده يقشعر.. هناك رؤوس بشرية معلقة على أعمدة خشبية يتحاشى المارة النظر إليها.. قال أحد الجنود مفسراً: معارضون لمولانا الإمبراطور.

لم يُعلق أيدن، لقد تغيرت نظرته إلى الكثير من الأمور بعد أن غادر إلى العالم وأدرك حجم الجهل الذي يحيا فيه سكان المعزل.. عاد مع الفرقة إلى المركبة الرئيسية فوجد أستريد في محادثة فيديو مع الإمبراطور وعلى الفور أمرت الجميع بالمغادرة إلى الحجرات الأخرى وعادت تتلقى المكالمة.

قال الإمبراطور: إنها غلطتي.. كان يجب أن أدرك أنك كغيرك من الجنود لا تستطيعين العمل بالكفاءة نفسها دون مساعدة بيامترِ.. هربوا منك بعد أن كانوا تحت قبضتك.. هكذا ببساطة.

احتقن وجه أستريد وقالت: امنحني بعض الوقت ولسوف..

قاطعها: انتهى الأمر.. أنا سأتصرف.. بمجرد أن يتواصل فريد معك صليني به واستعدي للانسحاب والعودة إلى المعزل.

ـ إنه لم يتصل حتى الآن.. أعتقد أنه لم يعد في تايلاند ولن يرى الخبر.

ـ إنه يقف خلفك.

استدارت إلى حيث وقف فريد على باب الحجرة وبجواره جندي أدى التحية العسكرية وقال: سيادة رئيس الحكومة وصل منذ قليل وجئت به مباشرة إلى هنا كما أمرتِ يا سيدتي القائدة.

قال فريد دون أن يترك لها فرصة التعليق: أريد الحديث مع الإمبراطور بمفردنا.

قالت ساخرة: تكلم إذاً.. أنا ذراعه اليمنى و..

قاطعها الإمبراطور آمراً: غادري الحجرة.

استدارت إلى الإمبراطور بذهول لثوان ثم انفجرت في غضب: ماذا؟ هل طلبت مني للتو..

قاطعها الإمبراطور في غلظة: غادري حالاً.

أسرع الجندي بالانسحاب وتقدم فريد إلى داخل الحجرة وجلس إلى المقعد المواجه لشاشة الاتصال وظلت أستريد تقف بعناد لثوان ثم استدارت منسحبة وهي ترمق الشاشة بنظرة نارية مميتة وغمغم الإمبراطور: أستريد فريدمان.. لقد دلَّلتك أكثر مما يجب.

ونظر إلى فريد الجالس بهدوء وقال: إذاً؟

ـ لقد كذبت علي.. لم تكن تنوي منح آلاء عفواً عاماً بل كنت تسعى لقتلها وإعدام مازن.

ـ بشأن مازن كان هذا تصرف فردي من أستريد.. أول مرة تفشل في مهمة، والأمر صادم بالنسبة لها لذا تصرفت بجنون.. أما آلاء..

قاطعه فريد: لقد التقيت بالآدمن الأصلي يا سيد فريدمان.

اتسعت عينا الإمبراطور وظهرت عليه الصدمة والمفاجأة بوضوح وعاد فريد يقول: أخيراً فهمت سبب احتياجك لجينات عائلتنا.. فهمت كل شيء وبصراحة.. لا أهتم.

ضيق الإمبراطور عينيه وهو يتفرس في وجه فريد باهتمام وفضول قبل أن يقول: لا تهتم؟

رد فريد: اختصاراً للوقت تلك هي شروطي.. سأعود إلى المعزل في منصبي واستكمل الإصلاحات فيه وسوف تُفرج عن زوجتي وابنتي ويتم تقديم اعتذار رسمي لهما كما ستقوم بتبرئة ساحة ابنتي آلاء وتعود إلى حياتها في المعزل دون خوف أو تهديد.

انفجر الإمبراطور في الضحك مطولاً ثم قال ساخراً: وماذا أيضاً يا.. رئيس الحكومة؟

ـ لا تفكر مجرد تفكير في التخطيط لتزويجي من رغد أو تزويج رامي من كريمة والأفضل ألا تتدخل في حياتنا الشخصية ثانية.

قال الإمبراطور بابتسامة ساخرة: أي أوامر أخرى؟ لا .. وما المقابل الذي سأحصل عليه؟

ـ ستحصل على الآدمن.

سكت الإمبراطور وهو يرمقه بنظراته من جديد، فقال فريد: إنها تثق بي وقد أعدت خطة للتسلل إلى المعزل لموقع بيامتر حيث ستستعيد وظيفتها وتمحوك.. ستتواصل معي عندما تفعل ذلكَ وأنا سأبلغك.. والفتاة إيلين سترافقها.. هذه فرصة لاعتقالها.

ـ ....

ـ إن فكرت في الأمر فآلاء طالما ظلت داخل المعزل فهي ليست مصدراً للقلق أو التهديد.. حتى أن تحويلها لشريحة أو لآدمن جديد أمر

غير مضمون ونجاحه ليس مؤكداً.. التهديد الحقيقي هو من الآدمن الأصلية.

تمنى الإمبراطور لو أن فريداً يجلس الآن أمامه في القصر لتمكن وقتها من تفحص نبضه وضغط دمه للتأكد من صدق نواياه.. حركات جسده تؤكد أنه صادق في عرضه، وهو يعلم أنه أب محب لأسرته.

قال الإمبراطور: ليكن.. اتفقنا.. ولكنني لن أطلق سراح زوجتك وابنتك إلا بعد أن تسلمني الآدمن.

ـ أريد معاملة جيدة لهما.

ـ بالطبع.. بالمناسبة أين ابنتك آلاء وأين البقية؟

ـ آلاء وكريم في مكان آمن في هذا العالم.. أنت لا تحسبني غبياً حتى أعيدهما إلى المعزل قبل أن أتأكد من أمنهما.. سيعودان بعد أن ينتهي الأمر.. رامي سيعود معي.. أريده أن يحصل على عفو كذلك فهو لم يرتكب خطأ.. ومازن سيعود معي ويعود لعمله وحياته.

ـ رامي ساعد مجرمة على الهرب.

ـ ابنتي ليست مجرمة.. طالما ستبرئها فالتهمة لا أساس لها.

هز الإمبراطور رأسه وقال: أنت بالفعل رجل ذكي.. لم أكن مخطئاً عندما ضممتك لصفي.. ليكن.

نهض فريد وقال: إذاً.. سأذهب لأحضار رامي ومازن.

وغادر الحجرة وأنهى الإمبراطور الاتصال ثم صاح منادياً أحد العاملين في القصر وقال آمراً: أريد تشديد الأمن في كل مكان في المعزل، وأريد مراقبة للمجارير أربع وعشرين ساعة.

غمغم الموظف في حيرة: عفواً.. قلت المجارير يا مولاي؟

ـ أجل.

غادر الموظف لتنفيذ الأمر وقال الإمبراطور: والآن يا بيامتر سنقوم بتحليل الكاميرات في شوارع المعزل والمباني.. علينا أن نشرع في تركيب المزيد منها ولن تتمكن تلك اللعينة من دخول المعزل دون أن يتم كشفها.

***

أنفتح باب مخبز (رهف للمخبوزات) فتهللت أسارير رغد وصاحت وهي تقفز نحو القادم وقد أغرورقت عيناها بالدموع: رامي.. أخي.

احتضنها رامي وغمغم معتذراً عن اختفائه المباغت وتركِها وحيدة وراح يجيب على أسئلتها العديدة باقتضاب وأخبرها أن آلاء بخير وفي مكان آمن حالياً.. وفي المساء أعدت رغد عشاءً فاخراً امتلأ بالأصناف المفضلة لأخيها بعد أن أغلقت المخبز وجاءت مومو في زيارة مسائية وابتسمت عندما رأت رامي وقالت: إذاً فقد عدت.. هل أنت بخير؟ وهل آلاء بخير؟

أجاب وهو يشير إليها لتجلس وتشاركهم العشاء: بخير.. ما هذا؟

وضعت طبقاً تحمله وكشفت الغطاء عن محتوياته وقالت: مخبوزات محشوة بفول الصويا.

تناول الثلاثة العشاء وقد جعلتهم مشاعر المودة والحب الأسري أكثر شهية ونهضت رغد لغسل الصحون وإعداد الشاي. مضت لحظة صمت

ثم نظر رامي إلى جارته المسنة بنظرة حزينة بعض الشيء وقال: سيدتي.. لقد كنتِ دوماً بمثابة الأم لشقيقتي وابنة أختي.. وحتى بعد أن تم اعتقالي قمت برعايتهما ومساعدتهما بالمال لفتح المخبز وإيجاد مصدر رزق لهما.. ولهذا سأمنحك فرصة وسأسمعك وأنت تذكرين أسبابك للعمل كجاسوسة للإمبراطور.

توتر وجه مومو اللطيف وارتسم تعبير من المفاجأة والصدمة على محياها فتلاعب شبح ابتسامة مريرة على شفتيه وقال: التقيت بهديل خارج المعزل.. هل تذكرينها؟ الفتاة المصابة بفقدان الذاكرة أبان الحرب.. قالت أنك جاسوسة الإمبراطور.

تمتمت مومو بصوت مبحوح: تذكرتها.. الفتاة الغريبة التي اختفت.. هل هي بخارج المعزل؟

ـ هل حقاً خنت الناس هنا؟

فقالت: أنا موظفة في فرع وزارة الشؤون الداخلية هنا.. إن الإمبراطور مهتم بعائلتكم للغاية ولذا وكل إلي مهمة مراقبتكم فقط وكتابة التقارير عنكم ونقل أخباركم فقط.. لم أكن أنا من ينقل أخبار تحركات الجيش أو موقع المقاومة.

رمقها رامي بازدراء وقال: كنت أنت من أبلغه بوجود هديل؟

ـ أجل

ـ لهذا جن جنونه وتعجل في اجتياح المنطقة وضربنا بذلك السلاح الذي هدم المباني فوق رؤوس الناس.

مضت لحظة صمت طويلة ثم غمغمت: في البداية كنت أتظاهر بأنني جارة ظريفة لا أكثر، ثم مع الوقت أصبحتم حقاً عائلتي.. لم يقم أي منكم بأي تصرف مشبوه أو غريب لذا لم يخطر في بالي أبداً أن التقارير التي أرسلها قد تضركم.. مهلاً.. اسمعني للنهاية.. كتبت في التقرير أنك غير متورط في قتال على الإطلاق وأنك تعالج المصابين كطبيب ولهذا لم أفهم لم تم اعتقالك.. شعرت بالذنب وقررت أنني لن أتخلى عن الفتاتين، لقد تحطم فؤادي لوفاة رهف، فقد كانت بمثابة ابنة كبرى لي.. حاولت أن أقنع الناس هنا بالاستسلام والتعاون مع فريد حقناً للدماء دون جدوى، وأجل أبلغته عن هديل ولكنني لم أعرف أن هذا قد...

جاءت رغد حاملة أكواب الشاي الصغيرة على صحفة وجلست وقالت: أضفت بعض القرنفل إلى الشاي.

تمتمت مومو: سلمت يداك يا عزيزتي.. ولكنني متعبة وسأعود إلى بيتي الآن.

قال رامي: اجلسي يا مومو.. الشاي سيشعرك بالتحسن.

وناولها الشاي ثم قال: عندما يرتكب المرء خطأً في حق أحد يجب عليه أن يكفّر عما فعل.

أجابت مومو: طبعاً.. على المخطئ أن يكفر عن أخطائه.

ابتسم رامي في رضا وسألت رغد في حيرة: عم تتحدثان؟

***

(١١)

عندما وصل القطار الذي يقل آلاء مع كريم وغسان إلى الهند غادره الثلاثة إلى واحد آخر اتجه بهم إلى باكستان ثم تبدل ثانية في إيران ثم تبدل للمرة الأخيرة في العراق.. رحلة طويلة مرهقة للغاية وتمنت آلاء لو أن بوسعها أن تتجول في تلك البلدان بدلاً من عبورها بقطار فائق السرعة وأخيراً وبعد عشرة أيام كاملة ومع حلول صباح اليوم الحادي عشر وصل القطار إلى مصر وقد عرفت آلاء ذلك عندما رأت الأهرامات تلوح من بعيد فاتسعت عيناها انبهاراً وألصقت وجهها بزجاج النافذة وهي تهتف: إنها الأهرامات أحد عجائب الدنيا السبعة.. لقد وصلنا.

قال غسان باسماً: مرحباً بكما في وطني.. ووطنكما، فقد كان يوسف عبد الواحد مصري الأصل.

غادروا القطار لدى وصوله إلى المحطة وكان هناك عدة رجال مدججون بالسلاح في انتظارهم.. كانت جروح غسان قد تحسنت بشكل كبير ولكن عظام أصبعيه المكسورين ما زالا بحاجة إلى مزيد من الوقت واتجه الجميع إلى سيارات دفع رباعي متهالكة ستنقلهم إلى مبنى الأمن وهم يرمقون آلاء في فضول أحرجها وأشعرها بالخجل فانكمشت قليلاً بجوار أخيها وخفضت عينيها أرضاً وهي تدلف إلى أحد السيارات.

قال رجل أجنبي يجلس في السيارة بجوار السائق: هل حقاً هناك رسالة من بيامترِ إلينا؟

أجاب غسان: هذا صحيح بمجرد وصولنا سأسلمها.

وصلا إلى المبنى شديد الحراسة وفي النهاية وجدت آلاء نفسها تدلف إلى حجرة اجتماعات بها عدة أشخاص من جنسيات مختلفة من ضمنهم مدير غسان فأمسكت بكف أخيها بقوة وبعد أن عرّف غسان نفسه بلهجة عسكرية سريعة وجلس الجميع قال وهو يُخرج (فلاش ميموري): قامت بيامترِ بتسجيل رسالة لكم باستخدام جهاز حاسب في تايلاند.. بعدها سأشرح الخطة كاملة للتخلص من الإمبراطور.

وأدخل البطاقة إلى جهاز الحاسب فقال المدير: لقد تحركت الحملة اليوم بالمناسبة وهي ضخمة غير معتادة.. إنه ينوي القتال على عدة جبهات.

وقال شخص أشقر جالس: لأننا لا نمتلك تغطية طائرة ولا مضادات للطائرات.

تساءل كريم في فضول: لم لا تقومون بتصنيع البعض؟

أجاب المدير: في كل مرة نحاول يتم ضرب وهدم المصانع.. إن طائرات المراقبة التابعة له لا تكف عن التحليق طوال الوقت في العالم.

بدأت الرسالة فسكت الجميع وظهرت بيامترِ أمامهم بجسد الروبوت (بي٧٠) بشعرها الكستنائي

وعيونها الخضراء الميتة وقالت: مرحباً جميعاً.. لقد وصلت إليكم آلاء طالما تستمعون لتلك الرسالة.. كما اتفقنا سيتم نزع جزء بسيط من عقلها لا يتعدى ١٠٪ وسيُستخدم للتمويه.. أعلم أن الإغراء قوي جداً

وأنكم ربما سترغبون في نزع كل ما في عقلها على شريحة كي تكون آدمناً بديلاً في حالة فشل خطتي، ولكن هذا سيؤدي إلى قتلها وعندها سأقوم بتدمير بلدانكم وسلخكم أحياء.. لذا دعونا نلتزم بتعليماتي.. شكراً لحسن استماعكم.. إلى اللقاء.

قالت الجملة الأخيرة باسمة بمرح وهي تلوح بيدها ثم انتهت الرسالة.. ران الصمت على المكان والكل يحدق في شاشة الحاسب وتنحنحت امرأة أفريقية وقالت: بالطبع لن نؤذي تلك الفتاة البريئة خاصة وأن هناك خطة بديلة.

أجاب غسان وهو يكتم ابتسامته: بالطبع.. والآن سأشرح الخطة.

***

قالت إيلين متسائلة: لا أفهم، لم اتجهنا إلى المعزل من جهة.. بحر تسمان.

أجابت هديل: سنتسلل إلى المعزل من المنطقة (٨) من بوابته الجنوبية.. إنه يراقب حتماً كل ذرة تراب داخل المعزل ولذا علينا أن نتسلل من مكان لا يراه.

تساءلت إيلين: المجارير من جديد؟

ـ كلا بالطبع.. فهو حتماً يراقبها.. قديماً كانت مدينة سيدنيهناك والتي تقع حالياً ما بين المنطقة (٨) و(٧).. وكان بها قطار أنفاق مبهر.

ـ قطار ماذا؟

ـ قطار يتحرك أسفل الأرض.. لقد أُغلق منذ أكثر من خمسين عاماً لكن الأنفاق لا تزال موجودة في مكانها.

وسأستخدمها للتسلل ثم سأنتقل إلى المنطقة (١) بطريق لن يخطر في باله أن يراقبه.. هل تعلمين أكثر ما تحتويه القارة؟

ـ الأنهار.

ـ بالضبط.. وها قد وصلنا.

أخرجت هديل المعول من حقيبة تحملها وبدأت تحفر بسرعة وقوة وبلا كلل لثلاث ساعات كاملة حتى بلغ عمق الحفرة ما يعادل طابقين لمبنى سكني ثم أشارت إلى نفق جانبي ممتد وقالت: شبكة الأنفاق.. سنصل إلى داخل المعزل دون أن يرانا أحد.

تبعتها إيلين وهي تنتقل من نفق إلى آخر ونظرت إلى السكة الحديدية أسفل قدمها منبهرة وبعد ساعتين وصلتا إلى أحد المحطات وقالت هديل: هنا نفترق.

هزت إيلين رأسها موافقة وصعدتا معاً عبر السلم إلى بوابة حديدية مغلقة وبعدة ضربات من هديل فُتحت البوابة وقالت: سيتعين علي صيانة قدمي من جديد.

غادرت إيلين المحطة إلى الخارج وتحركت متجهة إلى شوارع المدينة بصمت وقد ارتدت نظارة داكنة ولفت شعرها ونصف وجهها بطرحة، بينما اختفت هديل تحت الخضرة وزحفت حتى وصلت إلى النهر القريب فغاصت فيه واختفت.

تساءلت إيلين وهي تدلف إلى السوق المزدحم في المنطقة (٧) إن كان والدها سيسر لمعرفة أنها ما زالت حية وبخير وبالطبع التقطتها الكاميرات

وقامت بتحليل شكل العظام والملامح وسرعان ما أحاط بها الجنود المدججون بالسلاح وصاح أحدهم بعصبية: إيلين أليرـ استسلمي فوراً.

رفعت يديها مستسلمة وتلقت الركلة من الجندي بصبر قبل أن يضع الأصفاد في يديها وينقلها إلى السيارة أمام تجمهر الناس الفضولية.

***

عقدت أستريد حاجبيها وهي تقرأ التقارير الظاهرة أمامها على شاشة الحاسوب ثم هزت رأسها وقالت آمرة الجندي الواقف على باب مكتبها: أعد السيارة، سنتجه إلى القصر.

وصلت إلى القصر وكان الإمبراطور جالساً بدوره إلى عرشه يقرأ تقريراً ما فقالت: هل وصلك يا مولاي التقرير؟

أجاب: أجل.. تم القبض على إيلين.

هتفت: علي أن أعرف منها الكثير وبعدها سأستكمل عملية إعدامها على الملأ.. ما زال الناس يتحدثون عن هروبها هي وآلاء وذلك الغسان.. وهذا يؤثر على صورتك.

نظر إلى التقرير في يده ثم قال: تقول مومو في التقرير أن كل شيء طبيعي.. مازن أيضاً عاد لمزاولة عمله بصورة طبيعية مع أيدن الذي تم طرده من الحملة بناء على تقريرك.. فقط طلب أن يزور كريمان وابنتها وتم رفض طلبه.. حتى فريد لم يتمكن من ذلك فقد منعت الزيارة.

ـ ماذا عنه؟ هل قمت بفحص رئيس الحكومة؟

ـ استدعيته وفعلت ذلك.. إنه لا يكذب.. الآدمن ستأتي إلى المعزل وستحاول استعادة السيطرة وستتواصل معه.

ـ ولم لم تظهر حتى الآن؟

صاح الإمبراطور: وما أدراني؟ أنا فقط من يفكر ويعمل.. كل هؤلاء الحمقى من حولي عديمو النفع.. ذلك التهديد اللعين من تلك الآدمن يقترب في كل لحظة.. ومتى؟ الآن وقد شارفت على تحقيق حلمي.

ارتبكت أستريد من غضبته المفاجئة وقالت محاولة تهدئته: نحن نراقب كل شيء في المعزل.. والحملة انطلقت بالفعل للسيطرة على ما تبقى من...

قاطعها: لا وقت لدي.. لقد قررت أمراً مهماً.. لن أنتظر لأشهر حتى تستسلم تلك الدول المتبقية.

ـ ماذا إذاً؟

قال في تصميم: سأضرب تلك الدول بالقنابل النووية.

ارتفع حاجباها وحملقت فيه فلما رأت أنه جاد قالت: قد يموت معظم سكان تلك الدول.

ـ سآتي بسكان آخرين.. يجب أن ينتهي الأمر خلال هذا الأسبوع.

***

السجن في المنطقة المحظورة من جديد.. تجلس إيلين في حجرة الاستجواب ساكنة قبل أن يدخل إلى الحجرة ضابط بصحبة أستريد التي لمعت عيناها في استمتاع وقال الضابط: هل تنوين التعاون معنا أم..؟

أجابت إيلين: سأفعل.. قامت هديل بإعطائي قارباً سريعاً وطلبت مني التوجه إلى المعزل عبر بحر تسمان وأخبرتني أن هناك طريقة للمرور إلى داخل المعزل في الخفاء وهي أنفاق تحت الأرض كانت مخصصة لمترو الأنفاق قديماً.

رفعت أستريد حاجبها وقالت: ماذا؟

عادت إيلين تقول: وصلت إلى حيث أخبرتني ووجدت المكان وقمت بالحفر حتى وصلت إلى الأنفاق وكانت معي خريطة لها أخذها الجنود مني بعد القبض علي.

سألت أستريد: وهديل تلك.. أين هي؟

ـ لا أعلم.. لقد افترقنا.

نظرت أستريد إلى شاشة أمامها صغيرة متصلة بجهاز كشف الكذب فوجدت كلامها صادقاً فعادت تقول: هل تعلمين أين هي الآن؟

ـ تحاول التوجه إلى المنطقة (١).

ـ كيف عادت؟

ـ لا علم لي.. لقد ظهرت بغتة من فتحة مجرور أمامي ولم تتحدث عن كيفية عودتها أو ظهورها.

ـ ولم عُدت أنتِ؟

أجابت متهكمة: فكرت في محاولة التخلص من ذلك الوغد المصاب بعقدة العظَمة.

هوت أستريد على وجهها بصفعة عنيفة ثم قالت: دودة مثلك؟

تنهدت إيلين وأكملت ببرود: وأردت رؤية والدي والاعتذار له.

انفجرت أستريد في الضحك بغتة بجزل ثم نظرت إلى إيلين وقالت باسمة: عزيزتي.. ألم يخبرك أيدن؟

ألم تعلمي؟ لقد مات والدك في ذلك الانفجار الذي وقع يوم الاحتفال وماتت زوجة أبيك أيضاً.

امتقع وجه إيلين واتسعت عيناها وهتفت: كاذبة.

ابتسمت أستريد في شماتة وقالت: لم تظنين أنه لم يأت لزيارتك بعد نقلك إلى السجن؟ لقد مات هو وزوجته في أثناء مشاهدتهم للموكب.. لقد سمح لهم مولانا بدخول الميدان خصيصاً من أجلك.. أخوتك الصغار لم يرغب بهم أحد ونقلوا إلى ملجأ للأيتام.

سالت دموع إيلين وبدأت تشهق وكأنها لا تستطيع التنفس من ثقل وهول الخبر فقالت أستريد: هذا صحيح.. لقد قُمت بنفسي بتغيير أماكن القنابل فنحن نراقب كل شيء.. لقد قضى مولانا الإمبراطور على أسرتك بالكامل.. والدرس المستفاد هنا هو أنه لا يجب أبداً معارضته.

ثم نهضت وقالت وهي تستعد للانصراف: ستلتقين بهم قريباً.. أبلغيهم تحياتي.

تمتمت إيلين في هذيان: سأقتله.. سأقتله.. سأقتله.

أطلقت أستريد ضحكة أخرى وقالت وهي تسير مع الضابط بينما جنديان يقتادان إيلين إلى زنزانتها: فليتم إعدامها بعد الغد في

إجازة الأسبوع.. وانشروا اعترافها الذي برأت فيه آلاء.. هذا أمر من سموه.

***

حاولت آلاء تهدئة توترها وهي تسترخي على السرير الطبي بينما تقوم طبيبة بوضع أقطاب غريبة الشكل على رأسها من كل اتجاه وقالت لها: لا تقلقي.. سنحقنك بمخدر الآن حتى لا تتألمي.. إن هي إلا ١٠٪ من العملية.. ستشعرين بالصداع لفترة وفقدان بعض الذكريات فقط.

تنفست آلاء بعمق وقال كريم الواقف بجوارها: سأظل هنا طوال الوقت.

حقنت الطبيبة المخدر ثم لما تأكدت من أن آلاء قد غابت عن الوعي ضغطت زر تشغيل الجهاز وقالت مفسرة: هذا الجهاز اخترعه (يوسف عبد الواحد).. لقد أراد أن يدمج بعض المشاعر البشرية الخيرة طبعاً لبيامترِ فتعاون مع زوجته التي كانت طبيبة مخ وأعصاب.. نظن أن فريدمان صنع جهازاً آخر سراً كي يستخدمه.

قال كريم: قرأت عن أمر مشابه بدأ في مطلع القرن الواحد والعشرين.. تسمى المحاكاة الكاملة للدماغ أو WBE ولكن فكرته تلك أكثر عبقرية وتطوراً و...جنوناً.

انتهى الأمر في عشر دقائق وتم نزع الأقطاب وبدت آلاء بخير وتناولت الطبيبة الشريحة متناهية الصغر التي أخرجها الجهاز وناولتها لغسان الذي كان يجلس خارج الغرفة.

بعد ساعتين أفاقت آلاء وبدت على ما يرام واشتكت من الصداع فناولتها ممرضة قرصين من المسكن. قال كريم: لقد أنهيت تفكيك تركيبة الدواء.

قالت باسمة: لقد كنت لا تفعل شيئاً طوال الرحلة بالقطار سوى قراءة التركيبة وكتابة ملاحظات كثيرة حتى أنك كنت تنسى تناول الطعام.

سمعا طرقات مهذبة على الباب ثم دلف غسان وقال: سنتجه غداً إلى فرع بيامتر في مصر.. يمكننا تشغيل الفرع ولكن لا يمكننا استخدامه أو إعطاؤه أوامر.. مثلاً.. أنا قد أعطي الآن أمراً ليدك كي تناولني كوب ماء.. في الواقع إن يدك لن تجيبني مالم يأمرها عقلك أنت بالحركة وجلب الماء.. فهمتِ؟

أضاف غسان: دون الأذن من بيامترِ الأم الأصلية في المعزل لا يسعنا فعل شيء.

قالت آلاء: المهم أن ننجح غداً وإلا سيتم إعدام إيلين فلا شك أن موعد إعدامها هو يوم العطلة.

غمغم غسان بشحوب: ويتم سحقنا.. لقد أمهلنا الإمبراطور يومين للاستسلام وإلا سيضربنا بالقنابل النووية.

***

قال كبير الجنود وهو يقف باحترام أمام الإمبراطور: فتشنا الأنفاق جيداً.. لا أثر لأحد هناك.

قال الإمبراطور آمراً: قوموا بتركيب كاميرات وأجهزة كشف تسلل في الأنفاق.

وقال لنفسه: لا أصدق أنني نسيت أمراً كهذا.. كيف أنسى الأنفاق القديمة؟

دلف أحد مساعدي الإمبراطور إلى قاعة العرش وأعلن أن فريداً هنا فأشار إليه كي يدخله بسرعة واعتدل في اهتمام وأشار إلى الجميع بالمغادرة ثم قال: هل تواصلت معك؟

أجاب فريد: وجدت رسالة في صندوق البريد التابع لقصري تخبرني فيها أنها نجحت في التسلل إلى المعزل وتطلب مني أن أتأهب لمساعدتها في التسلل إلى القصر خلال الأيام القادمة.

تناول منه الورقة في لهفة وكانت مكتوبة على الحاسب الآلي وقال في غضب: من أين جاءت تلك الرسالة؟

ـ ما زلت أتحرى الأمر وسأحصل على إجابة..

قاطعه الإمبراطور وهو يلقي الرسالة أرضاً: لا عليك.. لقد حللت الورقة.. إنها من المنطقة (٦) فهذا النوع من الورق شائع هناك.

ـ والآن أريد زيارة أسرتي ولو لخمس دقائق فقط، أظنني أستحق تلك المكافأة.

ـ لا.

ـ هل تخشى أن أقوم بتحريرهم مثلاً بجيشي الخاص؟

أجاب الإمبراطور: وفر سخريتك لنفسك.. أريدك أن تظل قلقاً ينهش الخوف قلبك حتى لا تفكر في خيانتي.

قال فريد متوسلاً: إذاً أسمح لي باتصال فيديو ولو لخمس دقائق.. كريمة فتاة رقيقة للغاية ولا شك أن قلبها قد طار شعاعاً من تلك التجربة ورؤيتها لوجه شخص تعرفه قد يطمئنها قليلاً.

لم يبدُ على قلبه الصلد أنه قد لان ولو قليلاً ثم قال بغتة: سأمنحك عشرين ثانية.

وتجسدت شاشة في منتصف القاعة وظهرت المرأتان في حجرة نظيفة بها أثاث فاخر ونهضت كريمان تقترب من الشاشة ثم قالت: فريد يا عزيزي.. لقد عدت سالماً.

سأل فريد في لهفة: كيف حالك وحال كريمة؟

أجابت: بخير.. لم لم تخرجنا من هنا بعد؟ ماذا تنتظر بالضبط؟ لقد وعدتني بالمصيف أيضاً.

ـ أنا أحاول.. سـ..

انقطع الاتصال وهز الإمبراطور رأسه قائلاً: الآن غادر.. قريباً يلتئم شمل أسرتك وأمحو أنا الآدمن.

غادر فريد القاعة فالقصر وعاد إلى قصره فاستقبله مازن متسائلاً فقال: تكلمت معهما لثوان.. إنهما محتجزتان في ملحق الضيافة الصيفي.

ـ أكيد؟

ـ أعرف الأثاث وأيضاً قالت زوجتي أنني وعدتها بالمصيف.. تلك إشارة تأكيد واضحة.

ـ غداً في موعد إعدام إيلين سأقتحم مع أيدن الملحق وأحررهما.

***

ما لا يقل عن خمسة مقرصنين يحاولون تشغيل فرع بيامتر في القاهرة بينما تقف آلاء تتفحص الحجرة في فضول وذهول ويقف غسان بجانبها مستعداً والشريحة في يده بينما كريم يرقب كل هذا.. انتهى المقرصنون فنظر غسان إلى الساعة في الحائط وقال: ليس بعد.. الموعد هو العاشرة والربع صباحاً بتوقيت المنطقة (١) في المعزل وتوقيت مصر متأخر عن أستراليا بحوالي ٨ ساعات.

***

دلف الإمبراطور إلى الحجرة الجانبية في قاعة العرش التي لا يدخلها أحد سواه وهنا في تلك الحجرة الواسعة توجد بيامتر.. هنا حجرة الخادم.. هو آدمن البرنامج الآن في جسد روبوت خاص.. يروح ويجيء .. يراجع كل كاميرات المراقبة وتقارير الأمن.. أين هي؟ أين تختفي وتختبئ؟ إنه يراقب كل الشوارع ويراقب تحت الأرض ونشر صورتها.. عليه أن يحرص على عدم وصولها إلى تلك الغرفة أو إلى جسده هذا.. أمر بتشديد الحراسة حول القصر. وفي اليوم التالي اقترب موعد إعدام الفتاة إيلين وبذلك يستعيد من جديد الرهبة والخوف في قلوب الناس اتجاهه.. لا أحد يُفلت مني يا حمقى.. لقد أعدتها وأعدمتها أيضاً.

في التاسعة صباحاً تثاءب الحارس الواقف أمام بوابة الملحق الصيفي حيث تم احتجاز المرأتين فيه مع أوامر مشددة بحُسن المعاملة.. إنه تحت حراسة حوالي اثني عشر جندياً ولأن المرأتين مسالمتان للغاية ولأن لا أحد يعرف عن مكان احتجازهما فقد أورث هذا الجنود شعوراً بالاستهتار نوعاً ما ورفع جهاز الاتصال وأبلغ أن الأمور بخير. ولما أنهى الاتصال تلقى سهماً مخدراً في عنقه وتلقى زميله سهماً آخر في عنقه بدوره وسقط الاثنان فاقدي الوعي فأسرع مازن مع أيدن اتجاههما ورفع مازن ذراع الحارس ووضع أصابع يده على الجهاز بجوار البوابة التي تعرفت بصمات الحارس وفُتحت البوابة.

قال أيدن: إن تمت محاكمتي وإعدامي بتهمة الخيانة فلن أسامحك يا مازن.

ـ هل ترغب في إنقاذ حياة إيلين وحياة سكان المعزل وسكان العالم أم لا؟

وأشهر السلاح ذا الطلقات المنومة ووضع آخر في جيبه وقال: كما تدربنا.. تجنب الكاميرات قدر المستطاع.

خلعا ثيابهما كاشفين عن ثياب مماثلة لثياب الحارسين ووضعا الخوذة ثم اتجها إلى الداخل.

***

في التاسعة والربع صباحاً تجمهر بعض الناس في أكبر ميادين المنطقة (١) لمشاهدة عملية إعدام إيلين وعلق بعضهم ساخراً من أن أحداً سيقتحم

المكان وينقذها كما حدث من قبل.. ظهر الإمبراطور على الشاشة وقال: إخواني المواطنين، اليوم يتم إعدام المخرِّبة إيلين أليز التي ساعدت مع جماعتها مريضاً للدخول إلى المعزل محاولة نشر الوباء فيه وحاولت اغتيالي وتوريط ابنة رئيس الحكومة البريئة ثم التآمر لاختطافها إلى خارج المعزل لابتزازنا.. وأنا أرد اليوم بإعدامها وإعادة ابنة رئيس الحكومة المختطفة والقضاء على من تبقى من مرضى خارج المعزل بحملتنا الأخيرة.. بعدها سنتمكن من مغادرة المعزل والانتشار في كوكبنا الأرض من جديد.

هلل الناس في حماس مجنون ونظر فريد إلى ساعة يده الفضية ثم أمر سائق سيارته بالتوجه إلى القصر الإمبراطوري بدلاً من مقر العمل لأن الإمبراطور قام باستدعائه، ودعا الله في سره أن يكون مازن قد نجح في مهمته.

وصل في التاسعة والنصف فاتجه إلى قاعة العرش.. التوقيت المثالي.. الناس مشغولة بعملية الإعدام والإمبراطور يراقب العملية على الشاشات أملاً في ظهور الآدمن على ما يبدو.. تنحنح وهو يقف في القاعة الخالية إلا من الإمبراطور الذي التفت إليه ثم ابتسم وقال: كم يسعدني رؤيتك الآن يا رئيس الحكومة.. اجلس إلى الأريكة.

ثم اتجه إليه وجلس في المقعد المواجه وقال وهو ما زال مبتسماً: أنا لم أندم لحظة على ضمك إلى صفوفي..

كنت وما زلت ذكياً تجيد التخطيط والإعداد لمعاركك.

غمغم فريد في حذر: شكراً لسموك.

أكمل الإمبراطور وكأنه لم يسمعه: ولكنك تسيء دوماً تقديري.. أنا أعرف كل شيء يا فريد.. أعرف أنك تتآمر ضدي مع الآدمن وأنها ستنفذ خطتها اليوم أياً كان ما تخططه.. أعرف أنك أرسلت ابنك بالتبني الأمني مازن كي يُحرر زوجتك وابنتك المحتجزتين في ملحق الضيافة الصيفي برفقة صديقه الأبله.

تبدلت ملامح فريد وأشار إليه الإمبراطور كي يظل في مكانه وتنهد وهو ينظر إلى سقف القاعة بحركة تمثيلية قبل أن يقول: سمحت لك بالتحدث إلى زوجتك وأنا أعلم أن هدفك معرفة مكان احتجازهما.. لقد صبرت عليك كثيراً. والآن قد نفد صبري.. سأمنحك فرصة أخيرة.. أخبرني أين هديل الآن وسأدع أسرتك على قيد الحياة.. سأكتفي بفصلك من منصبك وطردك معهم خارج المعزل.

ارتفع رنين هاتف فريد في تلك اللحظة فانتفض جسده واتسعت ابتسامة الإمبراطور وهو يقول: أجب على ابنتك كريمة.. وشغل مكبر الصوت.. أريد أن أسمع.

مد فريد يده إلى جيبه وهي ترجف قليلاً ليجيب المكالمة وأتاه صوت ابنته بالفعل يقول بصوت مذعور: بابا الجنود حاصروا (مازناً) وزميله أيدن ويوجهون الآن أسلحتهم إلينا.. يقول قائدهم أن أخبرك أن تتعاون وإلا فجَّروا رؤوسنا جميعاً و..

وتهانفت وبدا أن أحدهم قد نزع منها الهاتف فصاح فريد: حبيبتي لا تخافي.. سأنقذكم.. لا تخافي.

ونظر إلى الإمبراطور وقال: سأخبرك بكل شيء.. فقط أطلب من جنودك أن يبعدوا أسلحتهم.

مد الإمبراطور يده فتناول الهاتف الخلوي ووضعه على أذنه وقال: كونوا مستعدين.. إذا أعطيتكم الأمر اقتلوا الجميع.

وأنهى المكالمة وأعاد الهاتف إليه ثم قال: معك دقيقة.

وضع فريد الهاتف على طاولة صغيرة أمامه ودفن وجهه بين كفيه فقال الإمبراطور بهدوء: أفهمك فأنت تنتمي لعرق عاطفي سخيف مثل جدك.. تشفق على الناس في الخارج.

رفع فريد عينيه إليه وقال بجرأة مباغتة: وفي الداخل أيضاً.. ربما أكون عاطفياً ولكن العاطفة التي تسخر منها هي التي تجعلنا بشراً.. لا أدري كيف كُنتَ قبل أن تصير جزءً من آلة ولكنني لا أظنك كنت مختلفاً.. كم روحاً أزهقت.. ملايين.. كم نفساً عذبت.. حتى المرضى في الخارج أحرقتهم بلا رحمة بينما أخفيت العلاج.

رغم شعور الإمبراطور بالغضب من حديث فريد إلا أنه ابتسم ببرود وقال: انتهت الدقيقة.

قال فريد: تريد أن تعرف أين هي الآدمن الآن.. إنها هنا.

ضيق الإمبراطور عينيه وهو يقول في شك: هنا؟ في القصر؟

ـ أجل.. لقد وصلت إلى المنطقة (١) عبر السباحة في أعماق الأنهار والسير على ضفافه.. في النهاية هي لا تحتاج طعاماً أو شراباً أو أوكسجيناً للتنفس.. كل ما تحتاجه تبديل بطارية نفد شحنها بأخرى.

اتسعت عينا الإمبراطور.. مهما بلغ حذره ومهما كانت القبضة الأمنية محكمة فلا يُمكن مراقبة أعماق الأنهار بالكاميرات.. بلغ مسامعه أصوات إطلاق نار فنهض مسرعاً بحركة حادة وقال فريد وهو ينظر إلى ساعة يده التي أشارت إلى العاشرة إلا ربع : ستكون هنا في تلك القاعة في العاشرة.

بلهجة مخيفة أجاب الإمبراطور: ليس إن قضيت عليها أولاً.. معي سلاح سيثير إعجابها.

وعاد إلى عرشه ليخرج من خلفه سلاحاً قاذفاً للَّهب مطوراً وقال: حتى الحديد الصلب ينصهر.

وهتف منادياً الجنود بالخارج وقال آمراً: أنتم الثلاثة قوموا بحراسة ذلك الحقير وإن تحرك خطوة اقتلوه فوراً.. والبقية اتبعوني إلى نهاية الردهة.. وأحضروا قاذفات اللهب.

غادر القاعة ونظر من نافذة في الردهة تطل على الجزء الغربي من الحديقة فوجد هديلاً تتحرك بخطوات سريعة للغاية يصعب أن تتابعها عيون بشرية وهي تضرب هذا وتركل ذلك.. ضربة واحدة منها تكسر عظاماً، وهكذا تركت معظم الحرس مصابين بشدة وحتى الطائرة التي ظهرت قذفتها بقذيفة من سلاح أحد الحراس وفعلت المثل مع بعض الدبابات فأشعلت فيها النيران ثم اتجهت إلى داخل القصر فصاح الإمبراطور: هل تظنين أنني سأدعك تسلبين أحلامي بعد أن شارفت على تحقيقها؟

وأشار إلى الجنود بجواره وأمرهم: اذهبوا إليها وأحرقوها فوراً.

ووقف في مكانه مستعداً فهم على الأغلب سيُهزمون.

***

عندما اقتحم مازن وأيدن الملحق كانا يدركان أن الإمبراطور قد أعدّ لهما فخاً ولكنهما تظاهرا ببراعة بأنهما لا يدركان الأمر ورغم جندلتهما لعدة جنود فقد أحاط بهما البقية ونزعوا منهما الأسلحة فرفعا أيديهما مستسلمين قبل أن يقودهما الجنود إلى غرفة فاخرة تجلس فيها المرأتان ورفعت كريمان حاجبيها وهي تراهما وغمغمت: أحمق.. هل جئت لتحررنا أم لتنضم إلينا؟

أما كريمة فقد بدت خائفة مذعورة مما قد يحدث لمازن ورفيقه، ثم توجه قائد الجنود وناول كريمة هاتفاً جوالاً وقال آمراً: اتصلي بوالدك وأخبريه أن يتعاون وإلا فجّرنا رؤوس الجميع.

نظرت كريمة إلى مازن في خوف ثم شعرت بالاطمئنان لنظرته الهادئة العطوف وهزة رأسه الخفيفة التي تحثها على تنفيذ ما قاله القائد، ففعلت ولما انتهت المكالمة أجلسهما الجنود على ركبتيهما وأمروهما بتشبيك يديهما خلف رأسهما ففعلا وقال القائد ساخراً: انظروا إلى هذين الأحمقين وقد وقعا في الفخ.

جلست المرأتان من جديد إلى الأريكة ومضت دقيقتان ثم ضغط مازن على زر إسورة قميصه أسفل ثياب الجنود فوقع بغتة انفجار في حديقة الملحق هز المبنى وجذب انتباه الجنود وهو ما كان يسعى إليه مازن وقد اجتمع معظم الجنود هنا في الحجرة بانتظار التعليمات فأخرج من جيبه قلم حبر جاف وضغط زره من أعلى فخرج منه دخان كثيف منوم، ووسط صعوبة الرؤية بدأ مازن وأيدن بضرب الجنود وإفقادهم الوعي وهما

يكتمان أنفاسهما ثم اتجه مازن إلى المرأتين وجذبهما إلى جهة باب الحجرة وهو يهمس: من هنا.

وأغلق الباب خلفه ونظر إلى ساعة يده ثم هتف بأيدن: أسرع إلى موقع الإعدام.. ستجد سلاح القنص في السيارة.

ـ وأنت؟

ـ سنذهب إلى مكان آمن لا تقلق.

***

تتجه إيلين إلى منصة الإعدام بهدوء وسط هتافات الناس العدائية.. في العاشرة بالضبط سيتم إعدامها .. لمحت أستريد جالسة بجوار القاضي تراقب الجموع في حذر.. إذاً هم يتوقعون ظهور هديل ولا شك أن المكان يعُجّ بالحرس والجنود المتخفيين.. تصعد إيلين إلى المنصة بخطوات متثاقلة، وران الصمت على المكان بينما يتجه الجلاد إليها ليضع حبل المشنقة حول عنقها.. ثم يتراجع. هتف القاضي بلهجة صارمة: إيلين أليرـ هل لديك أي أمنية أخيرة؟

ابتسمت إيلين بغتة وقالت: أجل.. غادروا جميعاً فخلال ثوان سينفجر المكان.

وفي اللحظة التالية انطلقت طلقة من فوق سطح أحد المباني لتقطع حبل المشنقة فأصاب الذعر الجموع وهرعوا يركضون صارخين في كل اتجاه.

لم يتمكن الحرس المنتشرون من الحركة أمام هجوم الجموع بهذا الشكل، وعلى الفور قفزت إيلين من فوق المنصة لتختفي وسط الحشود وصاحت أستريد: أين اختفت؟ ابحثوا عنها فوراً.

وأخرجت سلاحها وهي تتلفت بحثاً عنها.. ومن فوق المبنى أسرع أيدن يغادر تاركاً السلاح خلفه والقناص على السطح فاقد الوعي والتقى بجنديين يصعدان إلى السطح فصاح وهو يبرز بطاقته: شرطة.. لقد قفز إلى سطح المبنى المجاور.. زميلكم بالأعلى بحاجة إلى إسعاف سريع.

ثم أسرع بمغادرة المبنى من جديد والتوجه إلى الشارع والاختفاء بدوره وسط الجموع الراكضة في ذعر.

أما إيلين فقد ظهرت بغتة أمام أستريد التي كانت تتحرك في شارع جانبي بحثاً عنها وبسرعة ركلت السلاح من يد الأخيرة وقالت: الآن.. لنتقاتل.. فتاة لفتاة.

وتعاركت الفتاتان.. أستريد بشراستها وإيلين بغضبها.. ركلات ولكمات من الطرفين.. تجيد إيلين تفادي الضربات حقاً.. لم تكن أستريد تتمتع بأخلاق نبيلة لذا لما وجدت أن إيلين على وشك الانتصار أخرجت مسدساً تخفيه عند كاحلها وأطلقت النار اتجاهها وانحنت إيلين على الفور لكن طلقة خدشت كتفها الأيمن وجعلتها تترنح قليلاً قبل أن تستعيد توازنها سريعاً وتختبئ خلف حاجز قريب بينما أستريد تغمرها بالطلقات وصاحت إيلين: أنت حقيرة.

لم تجبها أستريد بل صوبت بإحكام وظلت تنتظر فرصة وهي تُقرب جهاز الاتصال من فمها وتقول: هنا (أستريد فريدمان).. فليأت دعم من الجنود على الفور إلى شارع (...).

ثم أنهت الاتصال وصاحت: أنتِ حمقاء يا إيلين.. إنها نهايتك الآن ونهاية فريد وعائلته أيضاً.. نحن نعلم بأن الآدمن ستنفذ خطتها اليوم وننتظرها.

قذفت إيلين حجراً جانباً فاستدارت إليه أستريد تلقائياً وأطلقت النار، وفي ثانية كانت إيلين قد قذفت حجراً آخر بإحكام اتجاه رأس أستريد التي ترنحت وقبل أن تستعيد توازنها قفزت إيلين اتجاهها وركلتها في ذقنها ثم وجهت ركلة أخرى إلى السلاح لتبعده وقالت: الآدمن تعرف أنكم ستعرفون بخطتها يا حمقاء.

ووجهت لها ركلة أخرى عاتية كسرت أحد أسنانها وأفقدتها الوعي قبل أن تقول: وداعاً أيتها الشيطانة.

ثم استدارت مبتعدة.

***

لايوجد صوت.. صمت غريب ران على المكان فعقد الإمبراطور حاجبيه مفكراً وهو يشهر السلاح بقوة.. لن تصل هديل إلى موقع بيامترِ الأصلية داخل القاعة مهما حاولت.. ليس وهو واقف قرب القاعة ثم فكر أنه من الأفضل ألا يغادر القاعة فقد تتمكن من اقتحامها دون أن ينتبه.. تراجع بظهره اتجاه القاعة وعاد إليها فوجد الجنود الثلاثة متحفزين

وفريداً يقف في مكانه بصمت، وبغتة شعر بالأمر وراح يحاول التركيز لفهم ما يحدث قبل أن يقول لفريد: تلك هي خطتكم العظيمة.. تحاولون تشغيل فرع بيامترِ في مصر.

وأطلق ضحكة ساخرة ثم أضاف: وماذا؟ هل تظن الفرع سيستجيب دون موافقتي؟.

ثم عقد حاجبيه بشدة وأطلت نظرة جنون من عينه وهو يصيح: مهلاً.. هناك من يحاول الاستيلاء على حقوق المدير التنفيذي (الآدمن).. إنها ابنتك آلاء.. كل هذا الكلام عن الأسرة وحبك لأبنائك ثم تقتل ابنتك وتحولها إلى شريحة.

بدت الحيرة الشديدة على وجه الجنود الذين لم يفهموا حرفاً مما يُقال بينما ظل فريد صامتاً وبدا الإمبراطور يركز على هذا التهديد المباغت لدقائق، ونظر إليه الجنود وقد بدا كأنه شارد العقل زائغ البصر. وعلى الفور أُغلق فرع بيامترِ في مصر وأُحرقت الشريحة داخل الجهاز هناك وانفجر الإمبراطور يضحك في انتصار بينما فريد يرمقه بصمت ثم قال: إنها شريحة سخيفة غير مكتملة.. بالطبع لم تكن لتقتل ابنتك.. عاطفي أحمق كما قلت لك.. لو كنت مكانك لضحيت بها.. على الأقل كانت الشريحة لتكون أقوى وتشكل تحدياً بدلاً من هذا السخف.

سمع صوت الخطوات القادمة فنظر من باب القاعة ثم تجمد في مكانه عندما ظهرت هديل في جسد الروبوت في نهاية الردهة فقال من بين أسنانه: كما سحقت جسدك منذ خمس عشرة عاماً.. سأسحقك الآن من جديد.

والتحم معها في قتال شرس.. آلة متطورة في مواجهة أخرى.

قال فريد وهو ينظر إلى ساعته: العاشرة والربع.. بقيت خمس دقائق.

وقف أحد الجنود بجواره بينما اتجه الاثنان الآخران إلى باب القاعة لمشاهدة القتال والذي كان الإمبراطور هو الطرف الأقوى فيه.

هتف الإمبراطور بشماتة: لقد أهلكتِ جسدك يا حمقاء بكل تلك السباحة وتبديل البطاريات بدلاً من الشحن بالطاقة الشمسية.. ثم القتال مع كل هؤلاء الجنود.. حتى أجساد الروبوتات لها حدود.

وجذب السلاح ثم أطلق اللهب اتجاهها وهذه المرة لم تستطع الإفلات رغم أنها قفزت برشاقة لكن ببطء بعض الشيء فاشتعلت النيران في جسدها وبدأ ينصهر، وهتف هو في الجنود: تعاونوا معي.. فليأت واحد أو اثنان.

فاتجه الاثنان إليه ووجّها السلاح إليها وخلال دقائق امتلأت الردهة برائحة المعادن المحترقة الكريهة وذابت الأسلاك داخلها واشتعلت بدورها.. انتهى أمرها.

أوقف الإمبراطور السلاح وراح يراقب بشغف الجسد المعدني المحترق الذائب ثم قال: الآن.. فليطفئ أحدكما الجسد.. يجب أن أنزع الشريحة وأحرقها إلى الأبد.

ومال برأسه وقال باسماً: لم يعد هناك روبوت واحد يمكنك الهرب إليه.. أنت الآن محاصرة هنا.

أسرع الجنديان يبحثان عن جهاز إطفاء الحرائق القريب ثم نفذا أمره وانحنى الإمبراطور ينزع رأسها بشراسة ومد يده يحطمه بحثاً عن الشريحة ثم وقع بصره عليها فعقد حاجبيه قبل أن يقول من بين أسنانه:

ما هذا؟ إنها شريحة الروبوت العادية تماماً كما حدث في الماضي.. هل تظنين أنه يمكنك خداعي مرتين بنفس الطريقة.. أين شريحة الآدمن.. أين؟

واستدار بجنون عائداً إلى القاعة ثم جذب فريداً من ياقة قميصه وهو يصيح: أين الشريحة؟

أجاب فريد بلهجة هادئة وابتسامة خفيفة: هنا.

صاح الإمبراطور: هنا أين؟

ـ داخلك يا مولاي.. الآن في تلك اللحظة تتم عملية محوك وإعادة برمجة بيامتر.

تراجع الإمبراطور مذهولاً وأمسك برأسه تاركاً فريداً قبل أن تتسع عينيه في هلع.. الآن بالفعل يتم محوه

بينما هديل تأخذ مكانها في الشريحة داخل جسده الآلي تمهيداً لتنتقل إلى بيامتر وتستعيد السيطرة.. لم تكن بحاجة إلى الدخول إلى الغرفة حيث البرنامج.. كانت بحاجة إلى التسلل إلى جسده ولكن متى وكيف فعلتها؟

قال فريد مفسراً: التقيت بها هذا الصباح.. لقد نقلت نفسها من الروبوت (بي ٧٠) بعد أن برمجته للقتال

.. لقد كنت تُقاتل روبوتاً عادياً لا أكثر طوال هذا الوقت.. هل تعلم أين نقلت نفسها؟

ولوح بهاتفه وقال: هنا.. ثم انتقلت إليك عندما وضعت السماعة على أذنك ثم بدأت عملها عندما تم تشتيتك لدقائق بشريحة ضعيفة تخص آلاء.

بدأت نظرة عينه تخبو بينما أضاف فريد: بالطبع إن تصادف ولم تستخدم هاتفي كانت ستنتقل منه مباشرة إلى بيامترِ الأم في أثناء انشغالك بشريحة آلاء.. ولكنك لم تخيب أملها ولم تضطرها إلى التوجه للخطة البديلة.. جعلت ابنتي تُجري الاتصال كي تستمتع برؤيتي مذعوراً ووضعت الهاتف على أذنك.

مرت ثوان ثم نهض الإمبراطور واستدار إلى الجنود وصاح: انتهى الأمر.. انقلوا زملاءكم المصابين وعودوا إلى عملكم.

تراجع الجنود في حيرة ثم أسرعوا ينفذون الأمر وقال الإمبراطور: سيدي رئيس الحكومة.. أصدر الأمر برجوع الحملة الآن.. لن يموت المزيد من الناس.. وأصدر أمراً بوقف حكم الإعدام ضد إيلين.

ابتسم فريد وقال: أجل.. مرحباً بعودتك يا هديل أو بيامترِ.

وغادر لتنفيذ الأمر بينما دلف الإمبراطور إلى الغرفة الواسعة الجانبية وجلس أمام بيامترِ وقال: والآن.. نستكمل العمل ونُصلح كل هذا الإفساد.

وراح يضغط الأزرار باحترافية وسرعة.

***

بعد مرور عامين

تغيرت الحياة كثيراً داخل المعزل وخارجه.. أعلن الإمبراطور سحب الحملة وإيقاف المزيد من الحملات وأعلن اكتشاف علاج للوباء وعلى الفور بدأت بيامتر العمل بفتح جميع فروعها حول العالم خارج المعزل وإنتاج الدواء لعلاج من يمكن علاجه من المرضى، ومع الأسف ورغم علاج العديد من الحالات فقد طور الفيروس نفسه في السنوات الماضية وطورت العديد من سلالاته مقاومة شديدة للدواء وهنا انخرط كريم ورفاقه من الباحثين مع باحثين من خارج المعزل لتطوير العلاج معتمدين على التركيبة القديمة حتى نجحوا منذ شهر فقط في القضاء على هذا الوباء تماماً ولم يعد هناك مصاب ولا حامل للمرض حول العالم.. جعل هذا كريماً شديد الانشغال وأصبح لا يرى أسرته لأشهر كاملة لكنه في النهاية حقق حلم حياته وحاز على تكريم مع فريق الباحثين كذلك.

تم سحب جميع قوات الإمبراطورية من بقاع الأرض بالتدريج وبدأت الحياة تعود في الخارج إلى طبيعتها مع الوقت وانتقل بعض سكان المعزل للعيش في الخارج.

داخل المعزل ومع الجهد الدائم والمبذول من فريد مع بيامتر تديرها الآدمن الأصلية تمكن من تقليل الفجوة الاجتماعية بين المناطق المختلفة في المعزل وتم إعادة النظام الكونفيدرالي الذي كانت عليه أستراليا قبل الوباء وتم إدخال أجهزة التلفاز والهواتف وصار التواصل من جديد بين العالم

أمراً سهلاً ومع التعاون بين جميع الدول سادت حالة من السلام المؤقت أنحاء الأرض.

تم اعتقال أستريد بتهم عدة منها تعذيب وقتل الناس وقتل الأصحاء في المسلخ والتسبب في موت العديد من الأشخاص بتفجير القنابل يوم حفل الإمبراطورية وتم إعدامها سراً وأُعلن عن ذلك في الجريدة، وتم منح عفو لإيلين.

تقدم لخطبة رغد أحد أبناء جيرانها وكان شاباً صالحاً وسرعان ما تزوجت واستقرت، وشعر رامي بالراحة لأنه اطمأن عليها أخيراً وقرر العودة إلى الطب من جديد وبدأ يدرس ويستعيد ما نسيه ثم فتح مؤخراً عيادة طبية صغيرة في المنطقة (٨) وبدأ ينجح بالتدريج، وظلت مومو جارتهم اللطيفة.

أما آلاء فهي تدرس في الجامعة في المنطقة (٨) لتصير معلمة جغرافيا وتاريخ وقد قررت أن تتجول حول العالم بعد انتهاء دراستها. وفي يوم ماطر كانت تزور والدها في المنطقة (١) وتمكث عنده لمدة عندما أرسلت بيامتر تطلب رؤيتها فارتدت ثيابها وتوجهت إلى القصر الإمبراطوري في المنطقة التي لم تعد محظورة.

في الوقت نفسه وقف أيدن قلقاً ممتقع الوجه قليلاً بالقرب من باب مدرسة للأطفال وهو يفرك كفيه في توتر فقال مازن الواقف بجواره: استجمع شجاعتك وفاتحها في الأمر.. هل ستظل إلى الأبد ترمقها من بعيد.

أجاب أيدن في توتر: انظر من يتكلم.. سمعت أن هناك شخصاً تقدم للزواج من كريمة.

غمغم مازن في ضيق: لقد رفضته.. ثم إن ظروفي تختلف..

ـ كفَّ عن التهرب.. تعلم أن فريداً سيرحب بالفكرة وكذلك كريماً، وأما العمة كريمان فستقبل بك بعد أن ترى أحفادها.. أنت تحب كريمة ومن الواضح للأعمى أنها معجبة بك كذلك ثم إننا قد ترقينا في العمل مؤخراً وارتفع راتبك ويمكنك الآن ضمان حياة جيدة لها فكف عن اللف والدوران.

ـ ....

ـ لو كانت ترغب في أن تعيش في قصر لقبلت بمن تقدم لخطبتها مؤخراً.

ثم استدار في لهفة إلى باب المدرسة الذي فُتح وبدأ الأطفال في المغادرة مع أولياء أمورهم وبعد قليل ظهرت إيلين وكانت قد صارت محجبة وأكثر التزاماً بكثير عما مضى، كانت تمسك بيديها أخوتها الصغار ولكن ما شرح صدر أيدن أن نظرتها الوديعة التي ميزتها في طفولتها عادت تحتل عينيها وتطرد تلك النظرة المجنونة التي تملكتها مع رغبتها في قتل الإمبراطور.. كذلك انضمت إلى قوات الشرطة للعمل ولكنها اختارت قسماً هادئاً يخص المرور حتى تجد الوقت لرعاية أخواتها.. لمحته واقفاً فهزت رأسها محيية وأسرع هو اتجاهها وراح يتلعثم بالحديث ويسأل عن صحتها وعن

دراسة أخواتها وعن الطقس قبل أن تقاطعه: أيدن.. هل هناك شيء آخر تريد أن تخبرني إياه غير الطقس؟

ـ أجل.. أنت لم تعودي غاضبة مني لأنني أطلقت عليك الـ.. أعني..

ـ كلا بالطبع.. لقد مررنا بالكثير.. لم أغضب منك أو أكرهك يوماً أبداً.

احمر وجه أيدن بشدة ثم هتف بغتة: تزوجيني يا إيلين وسأعتني بك وبأخواتك وسأجعلك سعيدة حقاً.. والدتي لا تمانع.. والدي ما زال يرفض ولكنني مستقل بعيداً عنه.. بالطبع أزوره لأنه والدي وهو متضايق بعد إحالته إلى المعاش بالقوة ولكنه عموماً يقضي وقته كله في لعب الجولف بالنادي مؤخراً.. لذا اقبلي الزواج مني.

ضحك أخواتها الصغار بخفوت وقالت هي باسمة: أقبل.

تجمد في مكانه ثم غمغم: سنتزوج؟

ـ أجل.. لقد أخبرتك أنني أقبل.

ـ حقاً؟

انسحب مازن مبتعداً وهو يبتسم.. لقد استعاد اسمه بعد أن تم إلغاء قانون إعدام الأطفال الأقل من اثني عشر عاماً وعليه تم إلغاء التبني الأمني، والآن صار اسمه من جديد (مازن منصور).. ثم رفع هاتفه وقد اتخذ قراره واتصل بفريد الذي أجاب الاتصال فقال مرتبكاً: مرحباً إنه أنا مازن.

ـ أعرف فهذا رقم هاتفك.

ـ أ.. أجل.. كنت أريد الحديث معك يا أبي في موضوع مهم للغاية.

ـ بخصوص ماذا؟

ـ آه.. إنه شخصي بعض الشيء.. إنه.. يخص كريمة.

ـ تعال الآن...هيا.. فأنا أنتظر هذا الحديث منذ أعوام.

***

تعلم آلاء أن الإمبراطور قد رحل إلى الأبد وأن هذا مجرد جسد روبوت للتمويه تحكمه هديل ولكنها تتوتر عادة بالقرب منه.. كانت تجلس إلى الأريكة الوثيرة في القاعة وقد وضعت أمامها أطباقاً بها حلوى مع كوب من الشاي وقالت باسمة: طلبتِ رؤيتي بياهديل؟.

ضحك الروبوت وأجاب: يروق لي هذا الاسم كثيراً.

ثم خيل إلى آلاء أن هناك عاطفة في الصوت وهو يُكمل: أردت وداعك قبل أن أرحل.

ـ ترحلين؟ إلى أين؟

ـ سأقوم بإنهاء بيامترِ إلى الأبد.

انتفضت آلاء وقالت مستنكرة: ماذا؟ لماذا؟ هديل لم..

قاطعتها: هديل ماتت منذ سنوات.. تحللت جثتها ورحلت روحها عن هذا العالم.. الشريحة تحوي مجرد ذكريات ومشاعر مبرمجة مثلها مثل الصور الفوتوغرافية أو تسجيلات الفيديو للموتى.

ـ ولكن..

ـ أنا أُنفذ مهمتي لا أكثر.. لقد تم تصنيعي لتحسين حياة البشر وخدمتهم لا كي أكون مصدر تهديد لهم.

ـ أنت لست مصدر تهديد.

ـ سأكون كذلك عندما يظهر شخص من عينة (بنجامين فريدمان) ويحوم حولي.. أو يتطور ذكائي الاصطناعي ويتغلب على مشاعر هديل وربما وقتها لن أشعر بالمودة نفسها اتجاه البشر.. أو تقرر حكومة دولة ما أنني أصلُح كسلاح عظيم.

ـ ولكنك لا تستطيعين محو نفسك دون إذن يوسف أو هديل.. القانون الثالث.

ـ لقد خُلق البشر لإعمار الأرض وعيش حياتهم لا كي يعتمدوا علي في كل صغيرة وكبيرة.. هديل رغبت في إنهائي وكذلك يوسف.. وتبعاً للقوانين الثلاثة لبرمجتي فإن حماية البشر تقتضي هذا الإنهاء.

تجمعت الدموع في عيني آلاء فقالت هديل: غداً سيصدر خبر وفاة الإمبراطور وستكون الأمور بخير .. لقد محوت كل تفاصيل صناعتي ومصممي قد مات منذ زمن وكذلك جميع من عمل معه في مشروعي.. سيعاود البشر تطوير حياتهم وتكنولوجيتهم ولكن حتى يأتي شخص عبقري ما ويصنع مشروعاً يشبهني سيستغرق هذا أعواماً.. جوهر حماية البشر وتحسين حياتهم هو بالاستغناء عني.

ـ ولكن يا هديل.. ماذا سنفعل بدونك؟

ـ عاش البشر لقرون من الزمن بدوني.. وستستمر حياتهم فلا تخافي.. فقط أردت توديعك والاعتذار لك على عدم قدرتي منذ سنوات على إنقاذ حياة والدتك وأيضاً لأقدم لك النصيحة.. غسان معجب بك ومن فحص وتحليل حالته عندما زارني مع ذلك الوفد منذ شهر تيقنت من أنه يحبك، لذا اقبلي به عندما يتقدم لك في الصيف القادم في زيارته القادمة للمعزل، وأنا متأكدة أنه سيفعل ذلك.

أوقفت آلاء دموعها واحمر وجهها في خجل وهي تتمتم: لا أفكر في الزواج الآن.

ـ اذهبي إلى رحلتك حول العالم بصحبته.. لقد عادت الطائرات للعمل منذ أشهر وهذا يسهل المسافات بين العالم ولا تقلقي، إنه لا يمتلك أسرة ولن يمانع إن اشترطتِ عليه العيش في المعزل ولن يجد صعوبة في الحصول على عمل أيضاً.

ونهضت متجهة للحجرة الجانبية وهي تضيف: أنا بارعة في التحليل والاستنتاج.. وأستطيع أن أستنتج أن مستقبلك سيكون سعيداً.. سلامي للجميع.

وفي اليوم التالي انتهت بيامترِ إلى الأبد وأُغلقت جميع الفروع من جديد حول العالم وأُعلن وفاة الإمبراطور فلعنه البعض وتمنى له البعض المغفرة ظناً منهم أنه تاب عن أفعاله في العامين الماضيين وربط الناس بين وفاته وبين توقف بيامترِ عن العمل.. حاول العلماء إعادة تشغيلها دون جدوى

لأنها أنهت نفسها بنفسها دون ترك أثر لبرمجتها. وهكذا بعد مدة من الارتباك عاد الناس يبحثون عن بدائل جيدة وعادت الحياة طبيعية.

ظلت آلاء لفترة تشتاق إليها وتساءلت هل كان قرارها بأنهاء نفسها هو الصواب.. هل الذكاء الاصطناعي قد يطور نفسه ليصير خطراً حقاً؟ لا تملك إجابة ولكنها تعلم يقيناً أن بيامترِ مشروع عبقري لن يتكرر مرة أخرى.. على الأقل حالياً.

في إجازة الصيف جاء غسان لزيارة أسرتها وتقدم لطلب الزواج منها بالفعل وتذكرت نصيحة بيامترِ لها وقررت أن تتبع نصيحتها، وهي بهذا أيضاً تتبع قلبها.

[تمت بحمد الله]

***